الدكتور محمد صالح توفيق

عميد كلية دار العلوم- جامعة القاهرة

اللغة العبرية
تطبيقات فى المنهج المقارن

لطلاب الفرقة الرابعة

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

توزيع

دار الهانى للطباعة والنشر

مقدمـــة

* * * *

لولا اختلاف الصورة بين اللغتين العربية والعبريـــة ، واخـــتلاف بعض الحروف والحركات بينهما لقلنا : العبرية عين العربية ، ولا تختلف عنها سوى فى تقديم حرف الباء على الراء فى "عربى – عبرى" ولــدينا فى العبرية كلمات لا تعد ولا تحصى من ذات العربية لفظــا ومعنـــى • أيضا من يدرس الشعر العبرى يجد فيه تفاعيل بحـــر الـــشعر العربـــى ، وبخاصة بحر الهزج [مفاعلين – مفاعلن] ومجزوء الـــوافر [مفـــاعلين – مفاعلنَ]

ومن المعلوم أن المستشرقين قد اتخذ اللغة العربية نموذجًا لأقـــدم صورة لغوية قديمة ، وذلك لانعزالها فى جزيرة العرب على حد قـــولهم ولكنهم نسوا أنها هى الأصل القديم لسائر اللغات المسماه بالسامية •

ومما يحزننى أن بعض أقسام اللغة العربية فى كلياتنا قـــد تركـــت دراسة العبرية ، وركزت على دراسة تاريخ النحو العربـــى والمـــدارس النحوية ، دون التركيز على متن اللغة ، وتطورها عبر التاريخ ، كما أنهم أغرقوا أنفسهم فى الخلاف بين البصريين والكوفيين دون عائد يعود على من يريد نطق العربية وكتابتها بطريقة سليمة •

ومما أراح النفس ، وأذهب عنها الحزن أن كليتنـــا العريقـــة قـــد حرصت منذ بداية القرن العشرين على الاهتمام بدراسة اللغات السامية ، واللغة الفارسية ، وكان طالب دار العلوم يدرس سنتين (فارسى) ومثلهمـــا

(عبرى) ، ولكن التيسير الذى لحق بكل العلوم فأصابها بالضياع العلمى أصاب هذا الاهتمام ، فتقلصت الدراسة فى هذا المجال إلى ثلاث سنوات ، ويدرس فيها الطالب أحد التخصصين (عبرى) أو (فارسى) ، وكان الهدف الأساسى هو توسيع مدارك الطالب اللغوية ونظرته الثقافية ، وآفاقه الجامعية .

وقد أثمرت هذه الدراسة بتوفيق الله ، فصار طالب دار العلوم على معرفة باللغة العربية ، ويستطيع التركيز على المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية ، وساعد ذلك على كشف الحجب عن كثير من أسرار العربية ووجدنا إقبالا كبيرًا من طلاب الكلية على إكمال دراساتهم العليا فى دراسة النحو المقارن للغات السامية .

وبعد : فإنى كنت قد كتبت معظم هذه البحوث فى مجال المنهج المقارن ونشرتها فى مجلات علمية محكمة ، وقد رأيت أن أعود إليها بالتهذيب والإصلاح ، فأضمّ إليها أبحاثا أخرى ، وأحذف منها ما لا تدعو إليه الضرورة وأبسط بعض هذه البحوث ، وأوجز بعضها الآخر . وها أنذا أضع هذه البحوث مرة أخرى بين أيدى القراء والدارسين ، وأرجو من الله عز وجل أن تسهم في فهمنا لمميزات لغتنا العربية ، ومدى علاقتها بسائر اللغات المسماة بالسامية ، فإن أك قد وفقت إلى هذا فذلك ما أرجوه ، وإلا فأسأله – تعالى جل شأنه العون – والسداد فإنه الهادى إلى طريق الرشاد .

المؤلف

د/ محمد صالح توفيق

الفصل الأول

العربية في ضوء اللغات السامية

لمحة تاريخية :

تنتمي اللغة العربية لمجموعة من اللغات عرفت بـ «اللغات السامية» وقد ذهب كثير من المستشرقين إلى أن «اللغة العربية هي إحدى أقدم اللغات السامية التي حافظت ومازالت تحافظ على الكثير من الخصائص الأصيلة للغة السامية التي يفترض أنها الأصل الذي تفرعت عنه كل اللغات السامية وهي لذلك تقف على قدم المساواة مع اللغة الأكدية من حيث محافظتها على الطابع العريق الذي تتميز به الألسنة السامية على وجه العموم»(١).

وتبدو الحقيقة الناصعة أمامنا وهي أن اللغة العربية ليست وليدة القرن الثالث أو الرابع الميلادي، وإنما هي قديمة، متغلغلة في أعماق الماضي ولا يمكن بحال من الأحوال أن تقف عند الأدب الجاهلي على أنه يمثل طفولة اللغة العربية، فليس فيه ما يدل على البداية، ففيه الانضباط الإعرابي، ونصوصه بلغت الكمال، وأصبحت هذه النصوص تمثل النموذج الذي احتذاه النحاة واللغويون العرب، وهم يؤصلون قواعد العربية ويسجلون مفرداتها منذ مطلع القرن الثاني الهجري.

ومازالت معلوماتنا عن طفولة اللغة العربية هي معلومات جد ضئيلة تحتاج إلى تضافر جهود علماء المقارنات السامية لإبراز خصائص هذه اللغة المغرقة في القدم، والتي نراها موجودة في اللغات السامية الأخرى التي دونت في مراحل زمنية قديمة قبل الميلاد، فالتشابهات بين اللغات السامية أكثر وضوحًا من التشابهات بين اللغات الهند وأوربية، وهي التي تعطينا لمحات عن تاريخ

اللغة العربية ومراحلها الأولى لدى الشعب البدوي الذي سكن جزيــرة العــرب واشتق اسمه من الجذر الثلاثي (ع ر ب).

وظهر تقسيم آخر لسكان شبه الجزيرة العربية، فقد سكنها قــوم عرفــوا بــ«العرب البائدة» وهي قبائل ذكرها القرآن الكريم لم تستجب لأوامر الرســل كعاد وثمود وجرهم. أما العرب الذين جاءوا بعدهم فهم منحدرون من أصلين: قحطان وعدنان، ويتصل بنو قحطان نسبا بالعرب البائدة الذين سكنوا جنــوب الجزيرة العربية، أما أبناء عدنان فهم عرب الشمال الذين تعربــوا فــي فتــرة تاريخية متأخرة، وسمتهم المصادر «العرب المستعربة» في مقابــل أن عــرب قحطان أطلق عليهم «العرب العاربة» أي العرب الحقيقيون الــذين اســتوطنوا جزيرة العرب من قديم الزمان.

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نقرر، ونحن مطمئنون، أن العربيــة، ككــل اللغات السامية الأخرى، لها عناصرها القديمة التي لم تصل إلينــا، ونــستطيع الوقوف عليها من خلال المقارنة بين العربية وأخواتها. ومن الثابت علميــا أن وحدة الأصل بين العربية وهذه اللغات قد ترك آثارًا واضحة علــى التركيــب الصوتي والصرفي والدلالي في العربية وفي اللغات السامية على حــد ســواء ومن هنا حرص المستشرقون على أن تكون بداية المقارنات السامية من العربية الفصحى رغم حداثتها، يقول «كيس فرستيغ»: «بالرغم من أن المادة الأشورية والبابلية الموجودة يرجع تاريخها لأكثر من ألفي عام قبل تاريخ أقــدم المــواد العربية المكتوبة، تبقى اللغة العربية نموذجا لتحليل اللغات السامية وأنماطهــا، وليس السبب فقط معرفة الباحثين باللغة العربية ووفرة المــادة المتاحــة عــن تاريخها، بل يكمن السبب في كونها لغة محافظة نوعًا ما، وخاصة في مــسألة احتفاظها بالعلامة الإعرابية»[٢].

إن هذا البحث يرمي إلى اكتشاف في ماضي الحقيقة اللغوية، وتدوين سيرتها، والوقوف على حالها، والتنبؤ بما لها، وذلك بمراقبة أصالة الاستعمال العربي، والحكم على قدمه أو حداثته، يرده إلى الاستعمالات القديمة التي نراها في اللغات الأكدية أو الأوجاريتية أو الآرامية أو العبرية، وهي لغات تعود في تدوينها إلى القرون السابقة قبل الميلاد. وهذا الجانب من الدراسة برع فيه بعض المستشرقين الذين مكنت لهم معرفتهم باللغات السامية من تعميق نظرتهم إلى تاريخ الظواهر اللغوية.

١-١: اللغويون العرب القدامى والبحث المقارن:

لم يكن علماء العربية القدامى غافلين عن العلاقة بين العربية وأخواتها وظهر ذلك واضحا من خلال الإشارات اللطيفة التي وردت متفرقة في مؤلفاتهم مما يدل على معرفتهم للقرابة بين هذه اللغات السامية، ويبدو أنهم عزفوا عن الخوض في الحديث عن هذه اللغات حرصًا على لغة القرآن الكريم، وحتى لا تتعدد الألسنة الناطقة بالعربية، ولذا كثير لديهم الربط بين مدح الإسلام ومدح العربية، وفي المقابل ارتبط ذم الكفر بذم اللغات الأخرى. وانتقلت بذلك قداسة الدين إلى قداسة اللغة، وانعكس كل هذا في كثرة الدراسة للشريعة واللغة العربية على حساب كثير من المعارف الأخرى سواء كانت فكرية أو غير فكرية.

ويبدو لنا أن معرفة علماء العربية القدامى للقرابة بين اللغات السامية ناتج عن ثقافة عامة لديهم، كانت موجودة في عصرهم، من خلال اتصالهم بأهل الكتاب في الجاهلية، والعلاقات الفكرية بين العرب وأهل الكتاب، والتي تتضح في إشارات لطيفة عن اللغات التي كان يتكلم بها أحيانا اليهود والنصارى في معاملاتهم التجارية، ومن خلال الطقوس الدينية التي كانوا يقومون بها كالجنائز والأعياد والصلوات في كنائسهم ومعابدهم.

ومن باب الإنصاف نقول: علماء العربية القدامى أسبق من علماء الغرب في اكتشاف علاقة القرابة بين اللغات السامية، وهم أول من أدرك أن جميع هذه اللغات من أصل واحد، كما أنهم أول من مهد الطريق للبحث المقارن حين أشاروا إلى بعض المقارنات اللغوية في مصنفاتهم اللغوية. ومن الخطأ الكبير أن نرد ما ظنه المستشرقون من أنهم أول من عرف أو تنبه لأهمية اللغات السامية أو بيان العلاقة بين هذه اللغات، فقد سبقهم بقرون عديدة علماء العربية القدامى، وسجلوا في كتبهم ما يدل على معرفتهم بهذه اللغات في ضوء تفسيراتهم لكثير من ظواهر العربية.

ولتتمة ذلك نلقي الضوء على الإشارات اللطيفة الواردة في تراثنا العربي، ولسنا ندّعي أننا سنذكر كل ما ورد في المصادر العربية، بل حسبنا أن نبين ما يثبت لدينا أن العرب لم يجهلوا الدراسة المقارنة، بل أشاروا إلى أهميتها، واستعانوا بها مواضع بعينها.

١-٢: إشارات علماء العربية القدامى لبعض اللغات السامية:

يعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) أول من أشار إلى القرابة بين العربية واللغات السامية الأخرى في معجمه (العين) الذي وضع على نظام التقليبات الصوتية. وحسبنا أن نذكر بعض النصوص التي ذكرها الخليل، وتعد من الإشارات القوية الدالة على وجود علاقة بين العربية وأخواتها.

أ- قال الخليل بن أحمد: «وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون لغة تضارع العربية»[٣]. هذا النص يؤكد وجود علاقة لغوية بين فرعين من فروع اللغات السامية، هما: العربية والكنعانية، وبينهما تشابه وتضارع مما يؤكد الأصل الواحد لكل منهما.

ب- قال الخليل: «والعبرانية لغة اليهود»[٤] وهذا يفهم منه أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان على دراية بلغة اليهود،، وأنها لغة مستقلة يتكلمها اليهود، وهي تختلف عن الآرامية التي كانت سائدة على ألسنة أهل الكتاب آنذاك.

ج- قال الخليل: «هيا شراهيا» بالعبرانية: يا حيّ يا قيوّم»[٥]. ومن العجيب أن هذه الجملة هي من لغة العهد القديم الذي يتعبد بها، وهي جزء من نص في سفر الخروج [١٣/ ١٤]، هي بالعبرية אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה وترجمتها (أنا الذي هو أنا) أي: الكائن الذي يكون. ومن المعلون أن الكلمة אֶהְיֶה هي فعل مستقل دال على التكلم، تعبر عن اسم الله حين يتحدث عن نفسه.

د- قال الخليل: «إيل: اسم من أسماء الله عز وجل بالعبرانية»[٦] ولا شك أن هذه الكلمة من المشترك السامي القديم، فكل اسم لدى العرب آخره «ال» أو «إيل» فهو مضاف إلى الله تعالى، نحو: ميكائيل، اسرافيل عزرائيل، إسماعيل، جبريل. ودلت كلمة «إيل» على الإله في النقوش السبئيه والقتبانية، وكذلك العبرية، وهذا كله يفسر لدينا من المشترك السامي القديم.

هـ- قال الخليل: «ويقال: المرجبة: المقلاع بالعبرانية»[٧]. ويبدو أن الخليل بن أحمد سمعها من يهوديّ على أنها بالباء، والأصل العبري ورد بالميم מַרְגֵּמָה مقلاع.

ولدينا نصوص أخرى كثيرة في كتاب العين[٨] يضيق المقام هنا عن ذكرها وكلها تشير إلى معرفة الخليل بن أحمد بوجود لغات أخرى قريبة من اللغة العربية كالسريانية والحبشية واليمنية والكنعانية والعبرية. ومع ذلك لا ندعي أن الخليل بن أحمد قد اتبع منهجا مقارنا، وإنما جاءت هذه المقارنات عرضية عابرة، ولا تدل على منهج محدد المعالم على النحو الذي عرفته الدراسات اللغوية في العصر الحديث. ويبقى أن النصوص السابقة الذكر من كتاب العين هي ذات قيمة كبرى في ضوء المنهج التاريخي، لأنها تشكل حلقة أولى من حلقات البحث السامي المقارن.

١ - ٢ - ٢: أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ومعرفته باللغة السريانية:

عرف أبو عبيد القاسم بن سلام اللغة السريانية، وتحدث عن أداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها، كما وقف على أوجه الاختلاف بين العربية والسريانية، وثنى بالحديث عن النهاية الإعرابية لكل من اللغتين. قال أبو حاتم الرازي: «قال أبو عبيد القاسم بن سلام: للعرب في كلامها علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه، منها: إدخال الألف واللام في أول الاسم، إلزامهم إياه الإعراب في كل وجه، في الرفع والنصب والخفض، كما أدخلوا في (الطور) وحذفوا الألف التي في الآخر، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية: (طورا) على حال واحدة، في الرفع والنصب والخفض. وكذلك: (اليمّ) هو بالسريانية: (يمّا)، فأدخلت العرب فيه الألف واللام، وصرفته في جميع الإعراب، على ما وصفت»[٩].

هذا النص السابق قد ركز على أمرين مهمين:

الأول منهما أنه وضح أداة التعريف في اللغة السريانية وأنها ألف مد ترد في نهاية الاسم، ومثّل لذلك بكلمتي «طورا» و«يمّا».

وقد علّق الدكتور إبراهيم أنيس على ما قاله أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال: «والذين قالوا إن هذه الكلمة سريانية كانوا أقرب إلى الصواب، لأنها لم تستعمل بمعنى (الجبل) في سفر الخروج، كما كنا نتوقع، وإنما استعمل مكانها الكلمة العادية (هاهار) على أنها استعملت في هذا السفر بمعنى طبقة من الحجارة (١٨/ ١٧. أما في الأرامية (والسريانية لهجة من لهجات الآرامية) فالكلمة (طورا) بمعنى الجبل، كما في سفر دانيال ٢/ ٢٥»[١٠].

والآخر: أشار أبو عبيد إلى تميز العربية وتفردها بظاهرة الإعــراب وأن اللغة السريانية لا إعراب فيها، فالمعروف أن الإعراب قد اندثر مــن اللغــات السامية الأخرى ومنها السريانية، وإن بقيت آثار تدل عليه، في حين أن العربية هي اللغة الوحيدة التي احتفظت بظاهرة الإعراب كاملة، وصار آخــر الكلمــة يتغير تبعا لموقعها في الجملة أو السياق.

١-٢- ٣: ابن دريد (ت ٣٢٥هـ) وشغفه بذكر ألفاظ سامية أخرى:

كان ابن دريد حجة في اللغة، وذا حافظة نادرة، وقد كان شديد التعــصب للغة اليمن، كما يبدو ذلك للقارئ في كتب (الجمهرة)، إذ إنها لغتــه الأولــى. ويبدو اهتمامه بالمعرب، وقد عقد له فصلا خاصا في الأبواب الملحقة بالمعجم، وكثرت إشاراته وشواهده على استخدام كلمات سريانية في الــشعر الجــاهلي، وبخاصة شعر أمية بن أبي الصلت، وهذه طائفة من المــواد المــذكورة فــي الجمهرة تدل على فهمه التام للعلاقات بين العربية وأخواتها، نذكر منها:

أ- قال ابن دريد: «والسهر: القمر بالسريانية، وهو الساهور، وزعم قوم: بــل دارة القمر، وقد ذكره أمية بن أبي الصلت، ولم يسمع إلا في شعره، وكــان مستعملاً للسريانية كثيرًا، لأنه كان قرأ الكتب..» [١١] وكرّر هذه المقولة في كتابه «الاشتقاق» حيث قال: «والساهورة: القمر بالسريانية، وقد تكلمت بــه العرب وذكر في الشعر..»[١٢].

وقد تبع ابن منظور في معجمه مقولة ابن دريد حول كلمة (الساهور) حيث قال: «السهر: الأرق. ورجل سُهرة مثال هُمزة، أي: كثير السهر... والــساهرة والساهور: كالغلاف للقمر، يدخل فيه إذا كشف فيما تزعمه العرب. قال أمية بن أبي الصلت:

لا نقص فيــه غيــر أن خبيئــة قمر وســاهور يــسلّ ويغمــد

والساهور والسهر:نفس القمر. والساهور: دارة القمر، كلاهما سرياني:[١٣]

والذي يبدو لي أن المادة اللغوية (س هـ ر) هي من المشترك السامي القديم الذي يدل على القمر، بدليل وجوده في السريانية وفي العربية، وهو في العبرية كذلك، ففيها סַהַר: قمر، هلال، ومن مشتقاته: סַהֲרוֹן: قمر، وترد بالسين الأخرى שַׂהַר: قمر.

ب- قال ابن دريد: «والبَرْخ: الكثير الرخيص، لغة يمانية، وأحسب أصلها عبرانيا أو سريانيا. وهو من البركة والنماء»[١٤]. وما قاله ابن دريد يؤكد وقوفه على التقابل الصوتي بين الكاف العربية والتي تنطق خاء عبرية أو سريانية، وهذا تحكمه قاعدة «بجد كفت» التي تحول الكاف الانفجارية إلى خاء احتكاكية حين تقع في غير بداية الكلمة أو غير بداية المقطع. وقد تكررت مقولة ابن دريد في المعاجم العربية اللاحقة، ومن ذلك ما جاء في اللسان: «التبرْخ: الكبير الرّخص، عمانية، وقيل: هي بالعبرانية أو السريانية. يقال: كيف أسعارهم؟ فيقال: برْخ أيْ: رخيص، والتبريخ: التبريك»[١٥].

هذه عجالة لا تفي ببيان كل ما قاله علماء العربية القدامى وبخاصة علماء المشرق الإسلامي حول معرفتهم بالقرابة بين العربية واللغات السامية الأخرى فالمقولات عديدة ومتنوعة في المعجمات العربية، كأن يقول صاحب المعجم: هذه عبرية، تلك سريانية، والأخرى حبشية، كما ظهرت هذه الأحكام في كتب التفسير، والفقه، وكتب المعرّبات التي تخصصت في بيان الدخيل على العربية الفصحى. وليس بالإمكان أن تختزن كل ما كتبه هؤلاء العلماء في عدد قليل من الصفحات.

١- ٣-١: الأندلس محطة مهمة في الدرس اللغوي المقارن

كانت اللغة العربية طيلت العمر الذهبي للإسلام في الأندلس لغة رفيعة تستخدم في كل المجالات الدينية والثقافية والإدارية والعلمية. وكان من ثمرة التقدم العلمي في الأندلس أن ظهر عالم مسلم هو (ابن حزم الأندلسي ٤٥٦هـ) فبالإضافة إلى أنه فقيه الأندلس وزعيم المذهب الظاهري، فقد استطاع الوقوف على علاقة القربى بين العربية واللغات السامية الأخرى، حيث قال: «إن الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقينا، أن السريانية والعبرانية والعربية، التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرس، كالذي يحدث من الأندلس، إذا رام نفحة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام لغة أهل الأندلس.... ومثل هذا كثير، فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية، أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا، من تبديل ألفاظ الناس، على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل». وكأني بابن حزم هنا قد توصل إلى ما نسميه اليوم بـ(السامية الأم) التي تفرعت عنها هذه اللغات الثلاث (العربية والعبرانية والسريانية)، كما أنه وقف على أن العربية الجنوبية (لغة حمير) تختلف في بعض ظواهرها اللغوية عن العربية الشمالية التي هي لغة القرآن الكريم(١٦).

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) فقد عرف اللغة الحبشية، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف في الحبشية كتابا مستقلا اسمه «جلاء الغبش عن لسان الحبش». وقد أشار إلى ذلك في تفسيره «البحر المحيط» فقال: «وأما قولهم: هندي وهندكي في معنى واحد، وهو المنسوب إلى الهند... فخرّجه أصحابنا، على أن الكاف ليست زائدة؛ لأنه لم تثبت زيادتها في موضع من المواضع، فيحمل هذا عليه، وإنما هو من باب: سبط وسبطر. والذي أخرّجه عليه أن من تكلم بهذا من العرب- إن كان تكلم به- فإنما سرى إليه من لغة

الحبش، لقرب العرب من الحبش، ودخول كثير من لغة بعضهم، في لغة بعض. والحبشة إذا نسبت ألحقت آخرها تنسب إليه كافا مكسورة، مشوبة بعدها يـاء، يقولون في النسب إلى الفُرس: الفرسكي، وربما أبدلت تاء مكسورة، قالوا في النسب إلى جَبْر: جبرتي. وقد تكلمت على كيفية نسب الحبش، في كتابنا المترجم عن هذه اللغة، المسمى بـ(جلاء الغبش عن لسان الحبش). وكثيرًا ما تتوافق اللغتان: لغة العرب، ولغة الحبش، في ألفاظ، وفي قواعد من التراكيب نحوية،كحروف المضارعة، وتاء التأنيث، وهمزة التعدية»[١٧].

إن الذي ذكره أبو حيان الأندلسي عن قواعد الحبشية، واتفاقه مع قواعد العربية أكده الاستقراء والمقارنة، فإن حروف المضارعة واحدة في اللغتين وهي التي يجمعها قولنا (أنيت) بل هي الموجودة أيضا في العبرية والآرامية. ومن العجيب أن مصطلح (المضارعة) هو المستخدم في اللغة الحبشية، ولذلك يرى علماء الحبشية أنها من اللغات التي تفرق بين نوعين من المضارع: الأول منها يسمى المضارع الإخباري، أو المضارع المرفوع، والثاني المضارع المنصوب، والذي يستخدم للتعبير عن رغبة أو أمنية، أو قصد معين، ولذلك فمن الممكن أن نسميه بالمضارع الإنشائي في مقابل المضارع الإخباري السابق[١٨].

ومما يزيدنا تأكيدًا على معرفة أبي حيان الأندلسي للغة الحبشية أن مصطلح (تاء التأنيث) هو الشائع في الحبشية، في حين أن العبرية مثلا شاع فيها (هاء التأنيث) على حساب التاء. يقول علماء الحبشية: «إن المذكر ليس له علامة معينة تميزه في الحبشية، ويمكن إدراكه فقط في غياب إحدى علامات التأنيث، أما المؤنث فله عدة نهايات في الحبشية أبرزها ما يلي:

أولاً: تاء التأنيث وتأتي في عدة صور.

ثانيًا: حركة الفتح الطويل في نهاية الاسم.

ثالثا: حركة الإمالة في نهاية الاسم[١٩].

والعلامتان الأخريان ناتجان عن اختفاء علامة التأنيث الإصلية وهي التاء كما في العربية الدراجة: فاطمة ← فاطمه ← فاطما.

أما همزة التعدية التي أشار إليها أبو حيان الأندلسي كمثال ثالث على اتفاق العربية والحبشية فهو كلام دقيق عن لغة بعينها، لا يدركها إلا المتخصصون فيها،والذين صرحوا بأن «يأتي وزن(أفعل) بزيادة ألف على الوزن الثلاثي كما في العربية والآرامية، ولم تأت في الحبشية الهاء في أول الفعل، لصياغة هذا الوزن كما في العبرية والسبئية»[٢٠].

هذه القضايا الصرفية الثلاث التي أشار إليها أبو حيان الأندلسي، وعالجها في ضوء المقارنة بين العربية والحبشية باتفاقهما في المصطلحات ونوع الظاهرة تجعلنا نؤكد صحة تأليفه لكتاب (جلاء الغبش عن لسان الحبش)، ولو وصلنا هذا الكتاب لغيرّ كثيرًا من أفكارنا، ولربما عرفنا من خلاله مؤلفات أخرى في مجال المقارنات السامية. ولكن نحكم على ما بأيدينا، فنقول: إن علماء اللغة العربية القدامى كانوا متنبهين إلى القرابة بين اللغات السامية، وأنهم مهّدوا الطريق للبحث اللغوي المقارن حين ذكروا النواة الأولى لهذا المقارنات في مصنفاتهم العربية.

١- ٣- ٢: مقارنة العبرية بالعربية لدى يهود الأندلس:

ساعدت الثقافة العربية في الأندلس في إيجاد حركة لغوية عبرية، بدأت بتأليف الكتب اليهودية باللغة العربية بخط عبري بفضل تسامح المسلمين معهم، ومعاملة أهل الكتاب كأحرار في ممارسة شعائرهم الدينية.

ومن بين علماء اليهود الذين أسهموا في نهضة اللغة العبرية آنذاك (سعديا سعيد بن يوسف الفيومي ت ٩٤٥م) الذي تنقل بين مصر وفلسطين وبغداد، وتعلّم النحو العربي في بغداد، ودرس بها المذاهب الإسلامية، والتيارات الفلسفية. ومما كتبه في مجال اللغة معجم «أجرون أي: جامع اللغة، و«كتاب اللغة» وهو محاولة لتقعيد عبرية التوراة على غرار قواعد اللغة العربية.

ولكن النحو العبري خطا خطوة حاسمة تجاه الاستفادة من النحو العربي على يد أبي زكريا يحيى بن داود حيوج الذي ولد بفاس في القرن العاشر الميلادي، ورحل إلى قرطبة، وصار علما من أعلام اللغة العبرية فيما بعد. ومن مؤلفاته اللغوية: كتاب الأفعال ذوات المثلين، كتاب الأفعال ذوات اللين. ويبدو في هذين الكتابين تأثره الكبير بالنحاة العرب في الأخذ بالأصل الثلاثي للكلمة.

أما شيخ نحاه اليهود واسمه المأخوذ من العربية (أبو الوليد مروان بن جناح العبري ت ١٠٥٠م) فهو صاحب أول كتاب علمي كامل في نحو اللغة العبرية، عرف باسم (اللمع). ويبدو أنه قرأ كتاب سيبويه قراءة واعية، فاستشهد كثيرًا بكلامه، وتبعه في تناول موضوعات متنوعة صوتية وصرفية ودلالية. كما تبعة في مصطلحاته اللغوية (الاعتلال- التصريف- المجاز- الإدغام.. إلخ)، وفي كل باب حرص على ذكر الأمثلة العبرية والعربية، وبرزت لنا المقارنة بين اللغتين واضحة، لدرجة أنه عاب على زملائه المتعصبين للغتهم، ولا يقارنونها بالعربية، قال: «وما لم أجد عليه شاهدًا مما ذكرت، ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي لم أنكل من الاستشهاد بواضحه، كما يتخرج عن ذلك من ضعف علمه وقلّ تمييزه من أهل زماننا، لاسيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين مع قلة التحصيل بحقائق الأمور»[٢١].

ثم جاء كتاب «الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية» لابن بارون، وهو أول كتاب خصص كلية للمقارنة بين اللغتين العبرية والعربية، وجاءت هذه المقارنة على المستويين النحوي والمعجمي. وقد نقله من الخط العبري إلى الخط العربي، وقدم له الأستاذ الدكتور أحمد محمود هو يدي، الذي قدّم خدمة جليلة لمن يريد أن يقف على اللغة العبرية في ضوء المقارنة مع العربية. وقد ركز في مقدمة الكتاب على نشأة الدراسة النحوية اليهودية وتأثيرها بالنحو العربي. إن هذا الكتاب يعدّ مرحلة مهمة في نشأة علم نحو اللغات السامية المقارن بما فيه من موازنة صرفية ونحوية ومعجمية بين اللغتين العبرية والعربية.

وقد يكون من المناسب أن نورد مقدمة ابن بارون للجزء الثاني من كتابه، حيث قال: «إني قد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب رتبة تشارك اللغتين في النحو وتصرف الأفعال، وغير ذلك مما وفيته، وأمعنت القول فيه. وأنا ذاكر في هذا الجزء الثاني، بمعونة الله، أصولا توافقت اللغتان فيها باللفظ والمعنى»(٢٢).

وإني لمن الداعين- مع الدكتور هويدى- إلى «دراسة منهج ابن بارون من جل باحثي علم اللغة- في ضوء تأثره بالنحاة والمعجميين العرب- لإظهار فضل الحضارة العربية والإسلامية على اليهود في العصر الوسيط، وإبطال دعوى المستشرقين بتأثر النحو العربي بمؤثرات يهودية أو سريانية أو غيرها»(٢٣).

٢- علم اللغات السامية المقارن: موضوعه وماهيته

يعد علم اللغة المقارن أقدم مناهج علم اللغة الحديث، وبه بدأ البحث اللغوي عصر ازدهاره في القرن التاسع عشر، حين اكتشفت اللغة السنسكريتية في الهند، وقورنت باليونانية واللاتينية. وثبت من هذه المقارنات وجود قرابة لغوية

بين هذه اللغات، وأنها ترجع إلى اصل قديم بائد، وتقدّم البحث شيئًا فشيئًا فقورنت اللغات الأوربية المختلفة واللغات الإيرانية واللغات الهندية، وثبت بهذه المقارنات أن كثيرًا من هذه اللغات تحمل أوجه شبه في البنية والمعجم، وبذلك اتضحت معالم أسرة لغوية كبيرة تضم لغات كثيرة في الهند وإيران وأوربا، وأطلق الباحثون على هذه الأسرة اسم أسرة اللغات الهندية الأوربية(٢٤).

إن علم اللغة المقارن يهتم بدراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، لحصر أوجه التشابه بين هذه اللغات، وقد صار بهذا علم اللغة المقارن يعتمد على مبادئ علم اللغة العام في دراسة أوجه التشابه بين اللغات المختلفة، كما أطلق عليه أحيانا مصطلح علم النحو المقارن **Comparative qrammar**. وهو مصطلح خاص يهتم بدراسة النحو دراسة مقارنة بين لغتين من فصيلة واحدة، أو بين مرحلتين مختلفتين من مراحل للغة الواحدة.

وقد قام الباحثون في اللغات السامية بتطبيق المنهج المقارن الذي كان قد تطور في مجال اللغات الهند وأوربية، وساعدهم على ذلك الكشوف الأثرية للغات القديمة أمثال الأكدية والعربية الجنوبية والحبشية والفنيقية، وأخيرًا اللغة الأوجريتية التي اكتشفت في ساحل الشام بالقرب من مدينة رأس شمرا سنة ١٩٢٦م. وتبعا لهذه الاكتشافات ازدهر علم اللغات السامية المقارن كأحد فروع علم اللغة الذي يهتم غالبًا بالظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في فروع اللغات المنتمية إلى فصيلة اللغات السامية.

وقد ترتب على ظهور علم اللغات السامية المقارن وجود فروع جديدة في حقل الدرس اللغوي لم تكن معروفة من قبل، وهي:

أ- علم الأصوات المقارن للغات السامية:

يهتم هذا العلم بدراسة الجانب الصوتي على مستوى الفصيلة الواحدة، إن الباحث في هذا العلم يركز على الأصوات الموجودة في هذه اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، من أجل التوصل إلى قواعد عامة تفسر التغيرات الصوتية التي طرأت على مر الزمن، يقول أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي: «اتضح في إطار البحث الصوتي المقارن أن مجموعة من الأصوات مستمرة دون تغير يذكر في كل لغات الأسرة الواحدة، فكل اللغات السامية مثلا بها صوت الراء دون تغير، وعلى العكس من هذا فهناك أصوات خضعت لتغيرات بعيدة المدى منها صوت الضاد الذي اختفى بمضي الوقت من كل اللغات السامية باستثناء اللغة العربية»[٢٥].

ومن المؤلفات القيمة في هذا الفرع كتاب أستاذنا الدكتور/ صلاح حسنين، بعنوان «المدخل في علم الأصوات المقارن» ركز فيه على ظواهر صوتية في اللغات السامية، منها: المماثلة، والمخالفة، والإطالة، والحذف، والتقصير، والزيادة، والقلب المكاني. ومع نهاية كل دراسة بانت القوانين الصوتية في كل لغة من اللغات السامية. ومما يظهر صعوبة هذا النوع من الدراسة ما صرّح به أستاذنا عن منهجه الدراسي حيث قال: «لقد استخدمنا في دراستنا للتغير الصوتي حتى الآن ما يعرف بالمنهج التاريخي، ويستنبط تاريخ الأصوات من مقارنة نصوص مختلفة ترجع إلى فترات مختلفة تبدأ من أقدم نص تاريخي يمكن العثور عليه حتى أحدث نص تاريخي يتم العثور عليه»[٢٦].

ب- علم الصرف المقارن للغات السامية:

يهتم هذا الفرع بدراسة بناء الكلمة على مستوى الفصيلة الواحدة وما يتعلق بها من أوزان، وسوابق، ولواحق، ووظائفها المختلفة. وهناك موضوعات صرفية مقارنة درست في صورة أطروحة الماجستير أو الدكتوراه، تناولت بنية

الكلمة في ضوء المنهج المقارن، منها:

- التعريف والتنكير في اللغات السامية.
- الأسماء الموصولة بين العربية واللغات السامية الأخرى.
- أبنية المصادر في اللغتين العربية والعبرية.
- أسماء الإشارة في اللغات السامية.
- الصيغ الفعلية: دراسة تحليلية مقارنة.

وكل هذه الموضوعات تدخل في علم الصرف المقارن للغات السامية.

ج- علم النحو المقارن للغات السامية

يهتم هذا العلم بدراسة الجانب التركيبي على مستوى الفصيلة السامية، وقد حظي هذا الجانب من الدراسة باهتمام كثير من المستشرقين وبخاصة «بروكلمان» في الجزء الثاني من كتابه «الأساس في النحو المقارن للغات السامية

Grundriss der vergleichenden Grammatic der semtischen Sprachen.

ويطول بنا المقام لو أرنا حصر الكتب المؤلفة في مجال النحو المقارن للغات السامية، وحسبنا أن نذكر كتابين مهمين من هذه الكتب.

- النحو المقارن للغات السامية لـ أوليري

O,leary, Comparative grammar of the semitic languages.

- المدخل إلى النحو المقارن للغات السامية لموسكاتي

Moscati, An introduction To the comparative grammar of the Semitic languages.

وكل القضايا المتعلقة ببناء الجملة في اللغات السامية تحت ضمن موضوعات علم النحو المقارن، ومن هذه الدراسات: الجملة الحالية بين العربية والعبرية، جملة الاستفهام في اللغات السامية، المطابقة بين الفعل والفاعل في اللغات السامية.. إلخ.

د- علم الدلالة المقارن للغات السامية:

هذا الفرع يهتم بدراسة القضايا الدلالية على مستوى الفصيلة السامية، وبخاصة ما يتعلق بتاريخ الكلمات وتأصيلها. وهناك نتائج ملموسة في هذا المجال منها أن اللغات السامية بها ألفاظ قديمة تعبر عن أمور يحتاج الإنسان إلى التعبير عنها منذ أقدم العصور، وذلك كالألفاظ الدالة على أعضاء الجسم الإنساني من يد، ورجل، ورأس، وقدم، وأذن،وعين، وأنف، أو كتلك التي يعبر بها عما حوله من مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء، وأنواع الحيوانات المختلفة كالذئب والحمار وغيرهما مما يدل على اتحاد معاني هذه الكلمات في أغلب اللغات السامية، كما أن هناك كلمات كثيرة في اللغات السامية طرأ عليها التغير الدلالي، مما يدخل في علم الدلالة المقارن.

وقد وجدت معاجم متخصصة في مجال الدلالة للغات السامية اهتمت بحصر الكلمات التي تعد من المشترك السامي القديم، واهتمت أيضا بتتبع معاني الكلمات خلال العصور، وملاحظة ما يطرأ عليها من تبدلات تصيبها في ألفاظها، ومعانيها، وطرق استعمالها في لغات الفصيلة السامية. يقول الدكتور/ السيد يعقوب بكر: «علينا أن ننظر في معاجم اللغات السامية الأخرى لنرى المواد المشتركة بينها وبين اللغة العربية، ونتلمس وجوه الشبه أو الخلاف في دلالات هذه المواد.. إن الرجوع إلى اللغات السامية المختلفة تعين على تبين الأصلي والفرعي منها، وعلى تتبع التطور من دلالة إلى دلالة»[٢٧].

ويدخل في مجال علم الدلالة المقارن الوقوف على نظرية الحقول الدلالية، لكي يمكن تصنيف المشترك السامي وفقا لهذه النظرية، حتى تتبين خصائص المجتمع السامي الأول على المستوى الاجتماعي، والحضاري. وقد ذهب أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي إلى أن «أهم جانب تطبيقي لعلم الدلالة المقارن هو تأصيل المواد اللغوية في المعاجم، وتأصيل المواد المعجمية العربية بردها إلى أصولها السامية إن وجدت. ويعدّ من الإضافات المهمة التي نجدها- مثلا- في المعجم الكبير الذي يصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهذه التأصيلات تقوم على علم الدلالة المقارن للغات السامية»(٢٨).

لقد سخر علماء الساميات أمثال «بروكلمان» و«موسكاتي» و«أوليري» و«رايت» وغيرهم مما شاع في العصور الوسطى من أن العبرية أصل اللغات الأخرى القريبة منها، وذلك في مرحلة إجلالهم للعهد القديم حتى بلغ بهم الأمر إلى اعتبارهم آدم أول من تكلم العبرية، ووجدنا هذا التعصب للعبرية موجودًا لدى بعض علماء العبرية في العصر الحديث أمثال مراد فرج المحامي،الذي ادّعى «لولا تباين الصورة بين اللغتين، واختلاف بعض الحروف والحركات في العربية عن العبرية لكانت العربية عين العبرية، فإن في العربية مالا يعدّ ولا يحصى من ذات العبرية لفظا ومعنى»(٢٩).

بل ذهب هؤلاء المتخصصون في علم اللغات السامية المقارن إلى أن العربية أغنى اللغات السامية بالأصول السامية القديمة من مفردات وقواعد فهي اللغة الوحيدة التي لم تفارق شبه جزيرة العرب، ولم تحتك بلغات أخرى تبعدها عن أصلها. يقول «كيس فرستيغ»: «أدت نزعة محاولة إعادة تركيب اللغة السامية الأم، انطلاقا من العربية في الماضي، إلى تركيب لغة سامية أم مشابهة للغة العربية شبها كبيرًا، ولذلك اعتبر الباحثون العربية لغة قديمة بالمقارنة بباقي اللغات السامية، في الحقيقة كانت بعض السمات العربية موجودة في

المراحل المبكرة للغات الأخرى، ولكن أهملتها في مراحل تطورها الأحداث»[٣٠].

هذه المقولة السابقة وغيرها لابد أن تشفع لدينا بالدليل اللغوي، بالنظر في جملة من المسائل الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تشارك فيها العربية بعض أخواتها، أو هي من المشترك السامي بين لغات الفصيلة السامية. وهذا يتطلب من كل باحث في العربية أن يكون على معرفة ولو يسيرة بهذه اللغات السامية حتى يتمكن من الإسهام بحل بعض المشكلات التي تصادفنا في العربية الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة على السواء. وقد سجل أحد الباحثين عبارة بليغة تلخص المراد هنا، قال: «إن دارسى اللغة العربية بدون دراسته اللغات السامية مثلهم مثل من ينظر إلى الأشياء من ثقب في الباب، ومثل من يقارن اللغة العربية باللغات السامية مثل من تفتحت له جميع النوافذ والأبواب، فهو ينظر إلى الأشياء من خلالها بوضوح تام»[٣١].

أقول: إن المسائل الصوتية والصرفية والنحوية المقارنة في اللغات السامية كثيرة ومتشعبة، ولسنا بقادرين على استنفادها جميعها في بحث كهذا، وإلا كتبنا كتابا في النحو المقارن للغات السامية- وهذا ما نتمناه في المستقبل إن شاء الله- وحسبنا أن نعطي أمثلة من كل مستوى لغوي توضح أهمية الدراسات السامية للناطقين بالعربية، حريصين فيها على الاختصار غير المخل، الذي يوقفنا على العناصر القديمة الموروثة عن اللغة الأم.

ثالثا: أهمية الدراسات السامية للناطقين بالعربية:

أراني في بداية الحديث عن أهمية الدراسات السامية للعرب والعربية، مضطرًا إلى تأكيد عدة أمور، فرغ منها علماء الساميات، منذ فترة طويلة، وهي تعدّ عندهم الآن من البديهيات، على حين يجادل فيها بعض علماء التراث العربي القديم.

وأول هذه الأمور أن نصوص الشعر الجاهلي ليست أقدم نصوص عربية معروفة فقد ثبت بعد اكتشاف اللغة الأكدية أن كثيرًا من الظواهر العربية تعود إلى مرحلة أسبق من الشعر الجاهلي بأكثر من ألفي عام،بعد الوقوف على الشبه الكبير بين العربية والأكدية.

والحقيقة الثانية أن ما نسميه بقواعد العربية الفصحى قد امتزج فيها مستويان من مستويات اللغة، ينبغي التفريق بينها، وهما: مستوى العربية المشتركة التي كان يفهمها ويتعامل بها الخاصة من القوم، ومستوى اللهجات المحلية التي كان يفهمها ويتعامل بها أفراد القبائل المختلفة في حياتهم اليومية. ولذلك ستكون الأمثلة من هاتين المستويين، خاصة وأن النصوص الأدبية الجاهلية تكاد تكون خالصة من القبائل غير قريش، وهذا يؤكد لدينا أن العربية الفصحى [العربية المشتركة] لغة جميع العرب وليست لغة قريش فقط كما زعموا.

والقضية الثالثة التي نريد تأكيدها هنا أن التطور اللغوي يحدث وفقا لقواعد ثابتة في اللغات السامية، يمكن أن نصوغها في صورة قوانين دقيقة تصدق على أية لغة من هذه اللغات، ولكن يزداد سرعة التطور اللغوي بازدياد انتشار اللغة بين غير أهلها، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها.

يقول أستاذنا الدكتور محمودِ فهمي حجازي: «إن الحديث عن العربية واللغات السامية الأخرى طويل، ولكننا نكتفي بأن نقرر هنا مع الباحثين أن العربية قد احتفظت بعدد من الظواهر اللغوية التي تفوق الهجرة الأكادية سنة ٢٥٠٠ق. م قدمًا، وأن مقارنة العربية باللغات السامية الأخرى توضح جوانب الاشتقاق في كثير من الأمور التي حار اللغويون في الفصل فيها، وأن هناك تطورًا عرفته اللغات السامية في الأصوات والصيغ والدلالة، وأنه من الممكن تمييز الأصيل في العربية الموروث عن اللغة السامية الأم عن الدخيل من إحدى اللغات السامية إلى العربية في ضوء القوانين الصوتية»[٣٢].

ويكفينا هنا ذكر بعض الظواهر اللغوية التي حار اللغويون العرب في تفسيرها، ونجد الحسم أو العلاج فيما نجد من نصوص في اللغات السامية الأخرى، وفيما قال علماء البحث المقارن للغات السامية حول هذه الظواهر اللغوية.

١- دراسة الأصوات في اللغات السامية

ترتكز دراسة الصوامت في اللغات السامية إلى الكتابة في معظم الأحيان وهذا لا يعوق الدراسة الصوتية السامية إلى درجة كبيرة، لأن معظم الصوامت السامية هي من المشترك بين جميع الأخوات، ولا يشكل ذلك صعوبة خاصة.

ومن الممكن تقسيم الصوامت السامية إلى ثلاثة أقسام:

١- ما احتفظ به جميع اللغات السامية من الأصل.

٢- ما احتفظت به العربية دون أخواتها، كلها أو بعضها.

٣- ما احتفظ به بعض اللغات دون العربية.

القسم الأول: ما احتفظ به جميع اللغات السامية في مجال الأصوات:

اختصت اللغات السامية في مجال الأصوات بوجود عدد من هذه الأصوات ليس موجودًا في الفصائل الأخرى، وأصبحت هذه الأصوات هي التي يتميز بها المتكلمون عرقيا عن غيرهم من أبناء الشعوب المجاورة، وتكاد تكون اللغة العربية هي القاسم المشترك مع اللغات السامية الأخرى في محتواها الصوتي من مجموعات الأصوات التي تميز الفصيلة السامية، وهي بالدرجة الأولى ما يعرف بـ «أصوات الحلق» و«أصوات الإطباق».

أما أصوات الحلق فهي في العربية ستة هي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء. وهي موزعة على ثلاثة مخارج في علم اللغة الحديث فالهمزة والهاء مخرجها الحنجرة، في حين أن العين والحاء عرفا بأصوات الحلق أما

الغين والخاء فيها أصوات طبقية، خلت منها العبرية كرمزين كتابيين. أما اللغة الأكدية فهي أقل اللغات السامية احتفاظا بأصوات الحلق، فليس من هذه الحروف الستة سوى الهمزة والخاء، وحلت الهمزة محل سائر أصوات الحلق وبقيت الخاء الأكدية تقابل الخاء الأصلية دون تغيير.

ووراء سقوط بعض الأصوات الحلقية من إحدى اللغات السامية ما ذكره الدكتور رمزي بعلبكي: «ولعل التفسير الأصوب لظاهرة سقوط الأصوات الحلقية من بعض هذه اللغات هو المبدأ اللغوي العام المعروف بقانون الجهد الأدنى **Law of least effort** أي: نزعة اللغات عامة على اختصار الجهد العضلي في النطق، فالأصوات الحلقية تختلف في درجة اقتضائها للجهد العضلي. ويبدو أن أكثرها اقتضاء لهذا الجهد أخذ ينحسر ويحل غيره محله. ومهما يكن من أمر تتميز مجموعة الأصوات الحلقية في اللغات السامية، علاوة على ظاهرة سقوط بعضها، بميلها إلى الفتحة»(٣٣).

ولدينا اتجاه عام في اللغات السامية يتمثل في المماثلة بين أصوات الحلق والحركات، ينتهي بتحويل حركتي الضم أو الكسر إلى الفتح، الذي هو أخف الحركات، مما يجعله يتناسب مع أصوات الحلق، أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور صلاح حسنين فقال: «في كثير من اللغات السامية، كثيرًا ما تتحول حركة المضارع من الضم أو الكسر إلى الفتح إذا كانت عينه أو لامه صوتا حلقيا، فالفعل (فتح) مضارعه في العربية (يفتح)، وفي الحبشية **yefeah**، وفي العبرية **yeftah**، وفي السريانية **neftah**، وفي الأشورية **ipte (iptah)** وفي العبرية **ya'amod**»(٣٤).

فإذا ما انتقلنا إلى أصوات الإطباق الخمسة (ص، ض، ط، ظ، ق) نجدها قلما تخلو منها لغة سامية، أو من بعضها لغة من اللغات السامية. ويجدر بنا أن نقول: قد نجد الإطباق في نطق بعض الأصوات الأوربية، ولكنه الإطباق

الثانوي الذي لا تأثير له على عدد الوحدات الصوتية لهذه اللغات، وذلك كتفخيم السين مثلا في **sunday** الانجليزية. وليس كذلك الإطباق في اللغات السامية فهو ذو أثر فعال في عدد الوحدات الصوتية، نجد التاء غير الطاء، والسين خلاف الصاد، وهكذا:

وهناك مجموعة أصوات نجدها واضحة في كل أفرع اللغات السامية مما يدل على أنها موروثة عن اللغة السامية الأم، وهي الراء واللام والنون والميم. وكما يقول «موسكاتي»: «للسامية الأم ساكن أسناني أنفي واحد هو النون «**n**» وساكن أسناني جانبي هو: اللام «*L*» ومكرر أسناني واحد هو: الراء «**r**»»[٣٥]. وقد ثبت أن الراء العربية يقابلها راء في الأكدية، وراء في العبرية، وراء في الآرامية، وراء في الحبشية دون أدنى تغيير حقيقي. كذلك صوت اللام الذي نجده لا ما في كل اللغات السامية.

وقد عرفت هذه الأصوات لدى علماء اللغة المحدثين بالأصوات المائعة، وهي المعروفة لدى علماء العربية القدامى بالأصوات المتوسطة. تحدث عن هذه الأصوات أستاذنا المرحوم الدكتور رمضان عبد التواب فقال: «وقد بقيت هذه الأصوات في اللغات السامية كلها. فمثال اللام، كلمة: «لُبّ في العربية، يقابلها في العبرية: לב **lēb**، وفي الآرامية: **lebbā**، وفي الحبشية:**leb** ، وفي الأكادية: **libbu**. ومثال الميم: كلمة: «ملأ» في العربية، يقابلها في العبرية: מָלֵא **mālē** وفي الآرامية **mlā**، وفي الحبشية **mal'a**، وفي الأكادية **malū**. ومثال النون: كلمة: «نفخ» في العربية، ويقابلها في العبرية: נָפַח **nāfah**، وفي الآرامية: **nfah**، وفي الحبشية **nafha**، وفي الأكادية **napahu**. ومثال الراء: كلمة: رأس في العربية، يقابلها في العبرية ראשׁ **rōš**، وفي الآرامية **rīšā**، وفي الحبشية **rēš**. وفي الأكادية **rēšu**. هذه هي حالة الأصوات المائعة في اللغات السامية»[٣٦]. وهكذا تثبت المقارنات اللفظية بين العربية وأخواتها الساميات أصالة هذه الأصوات المتوسطة أو المائعة في السامية الأم.

ويدخل في هذا القسم صوتا التاء والدال، فكلاهما صوت قديم في السامية الأم، ولم يطرأ عليه أي تغيير في العربية أو الحبشية أو الآرامية أو الأكدية أو العبرية. يقول «موسكاتي»: «للسامية الأم صوتان انفجاريان أسنانيات غير

مفخمين «الثاء» المهموسة، و«الدال» المجهورة»[٣٧]. ومن الواضح أن هذين الصوتين في أفرع اللغات السامية لم يصبها تغيير مطلقا، على الرغم من نشأة تاء جديدة في الآرامية والعبرية من الثاء، ودال جديدة في الآرامية والعبرية من الذال.

القسم الثاني: ما احتفظت به العربية دون أخواتها، كلها أو بعضها:

ذهب علماء اللغات السامية إلى أن اللغة العربية من أقدم هذه اللغات وحين ظهر لهم أن العربية تعرف بعض الظواهر التي تفوق الهجرة الأكدية قدمًا تأكد لهم قدم هذه اللغة عن سائر اللغات. وقد وضحوا عمر كثير من الظواهر اللغوية الموجودة في اللغة العربية، وردوها إلى اللغة الأم.

ومن ذلك مثلا الأصوات الأسنانية الثلاثة (الثاء والذال والظاء) فقد بقيت كما هي في فرعي العربية (الشمالية والجنوبية) وتطورت إلى أصوات أخرى في سائر اللغات السامية، وكذلك اللهجات العربية الحديثة تبعًا لنظرية السهولة والتيسير، والتي يتطلب نطقها جهدًا عضليا، بوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى، ولذلك يتم تسهيلها بنطقها من مخرج آخر أيسر على المتكلم[٣٨].

كما أن صوت «الضاد» من الأصوات العربية خاصة، يقابله الصاد في اللغات الأكدية والأوجاريتية والعبرية، ويقابله العين في السريانية. ويبدو أن «الضاد» تعدّ فونيما مستقلا في اللغات الجنوبية فقط- العربية الشمالية والعربية الجنوبية والحبشية- ومن الصعب التكهن بأي شيء من نطق الضاد قديمًا في الأكدية والأوجاريتية والعبرية والتي أصبح فيها هذا الصوت ينطق صادًا بدلا من الضاد. وهذا يجعلنا نرى أن الضاد من أصوات اللغة السامية الأم،وأطلقت على اللغة العربية وحدها فقيل: (لغة الضاد) لما في نطقها من مشكلة عويصة في نطقها لدى الأعاجم، ومثلها (الظاء) العربية في هذه الصعوبة.

كما تنفرد العربية بحفاظها على رموز الحروف التي جمعها قولهم (ثخذ ضظغ) وهي الحروف الستة التي تطورت في بقية اللغات السامية، واندمجت في أصوات تشبهها أو تماثلها في المخرج أو الصفة، وصارت لها في العبرية والآرامية قاعدة صوتية خاصته بها عرفت بـ(بجدكفت) مما جعل «برجشتراسر» يشهد بأصالة الجانب الصوتي في اللغة العربية، حين قال: «إن اللغة العربية رغما لطول الزمان الماضي عليها قبل بروزها في ميدان التاريخ قد حفظت الحروف الأصلية حفظًا أتم من سائر اللغات السامية الأخرى، ما عدا لغة الكتابات اليمنية العتيقة أو لغة معين وسبأ إلى آخره»[٣٩].

القسم الثالث: ما احتفظت به بعض اللغات السامية دون العربية:

لدينا بعض الصوامت غيرّتها العربية عن أصلها، وذلك في الوقت الذي نجد الأصل قد استخدم في إحدى أخوات العربية، وهي صوامت قليلة لا تتعارض مع أصالة الجانب الصوتي في اللغة العربية. ويمكن حصر هذه الأصوات في أربعة فقط هي: الجيم والسين والشين والفاء.

١- الجيم:

ذكر أستاذنا الدكتور كمال بشر صورًا خمسة لنطق الجيم، لها جميعا أصول قديمة، ومازال لها وجود هنا وهناك في الحديث، ويختلف الأمر باختلاف بيئة الناطقين، واختلاف المستوى اللغوي الذي توظف فيه. هذه الصور الخمس هي:

١- الجيم الفصيحة: ورمزها في الكتابة الصوتية **[dj]**.

٢- الجيم الظاهرية: ورموزها **(g)**.

٣- الجيم في صورة الدال، ورمزها **(d)**.

٤- الجيم الشامية، ورمزها (j).

٥- الجيم ياء: ورمزها (y).

وقال عن الجيم القاهرية: «يقال إنها الأصل في نطق الجيم، وأصابها التطور وتحولت إلى ما سميناه الجيم الفصيحة. وعلى الرغم من فصاحتها وصحتها- أي: الجيم القاهرية- فإننا لا نرى استعمالها في قراءة القرآن والحديث الشريف لأن لهما تقاليد وضوابط قرآنية متفقا عليها عند الثقات من القراء والدارسين»[٤٠].

وقد ثبت لدى علماء الساميات أن اللغات السامية المعروفة ما عدا العربية الشمالية تنطق هذا الصوت من أقصى الحنك، شديدًا، غير معطش، وهذا الاتفاق في أفرع اللغات السامية يؤكد لدينا أن النطق العربي المعطش غير أصلي، وإنما هو التطور الصوتي للجيم السامية التي تشبه الجيم القاهرية الآن. ولدينا آثار لغوية تدل على أن أصل الجيم في العربية الشمالية كان صوتًا انفجاريا مجهورًا كما في اللغات السامية الأخرى.

جاء في الصاحبي لابن فارس: «وحدثني على بن أحمد الصباحي قال: سمعت ابن دريد يقول: حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها... فمن تلك الحروف الذي بين القاف والكاف والجيم، وهي لغة سائرة في اليمن، إذا اضطروا قالوا «كمل»»[٤١]. إن كتابة كلمة (جمل) بهذا الشكل (كمل) بالكاف جاء لقرب الكاف من الجيم في مخرجها، مما يؤكد لنا أن هذه هي الجيم غير المعطشة التي تشبه إلى حد ما الجيم القاهرية. أما تنويع هذا الصوت في العربية وتعدد نطقه فقد جاء تخلصا من الجيم المتعطشة في الفصحى.

٢-٣:- السين والشين وأصولهما السامية:

لاحظ علماء الساميات أن السين في الكلمات العربية يقابلها الشين في الكلمات العبرية، وفي غيرها من اللغات السامية، ومن أمثلة ذلك: **שָׁלוֹם** سلام، **שׁוּק** سوق، **שָׁמַע** سمع. ورأوا أن التقابل الصوتي هنا وراءه أن السامية الأصلية بها ثلاثة أصوات هي السين والشين العربيتان، وسين ثالثة احتفظت بها العربية الجنوبية والعبرية، ويبدو أن هذا الصوت الثالث دخله التطور الصوتي في العربية الفصحى، فتأرجح بين السين والشين. يقول «بروكلمان»: «لابد أن قلب الصوت السامي القديم (ś) إلى (š)، وكذلك قلب (š) إلى (s) قد حدث في العربية الشمالية في وقت متأخر نسبيا، لأن فيها بعض الألفاظ المستعارة من الآرامية، قد حدث فيها نفس القلب الذي حدث في الألفاظ الموروثة (مثل: **šātān** شيطان، ومثل:

šārītā < sāriya سارية). في حين أنها احتفظت بالأصوات الآرامية في مجموعة حديثة من الكلمات الآرامية المستعارة مثل:

sakkīn < sikkīn سكين، ومثل **šrakrāk < šarakrāk** اسم طائر). وبذلك يمكن أيضا تفسير استخدام عرب الشمال، لرمز: **ś-š**، في كتابة شينهم (š) المأخوذة من (ś)، وكتابة سينهم (s) المأخوذة من (s) و (š) عندما أخذوا الأبجدية الحرفية من الأبجدية السامية؛ لأن هذا القلب لم يكن قد انتهى حينذاك»(٤٢).

ومن الثابت احتفاظ لغات سامية بثلاثة أصوات هما السين الجانبية والسين والشين كالأمهرية مثلا، وفي العبرية ثلاثة رموز كتابية هي السين (**שׂ**) والشين (**שׁ**) والسامخ (**ס**). وقد استنتج أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي «أن السين العربية تمثل السين السامية الأولى من جانب، كما تمثل الشين السامية الأولى من الجانب الآخر. أما الشين العربية فتمثل السين الجانبية المفترضة في

اللغة السامية الأولى»(٤٣). كما نشأت شين جديدة حق الثاء في كل من العبرية والأكدية. ومن أمثلة ذلك:

שׁוֹר ثور، שָׁם ثمّ، יָשַׁב وثب

ولم يعد لدى ناطقي العبرية أي تمييز نطقي لرمزي السين (שׂ، ס) لأن النظام العبري لم يفرق بينهما في النطق، فصوت السين مثلا في שָׂרָה سارة هو النطق نفسه في كلمة סֵפֶר كتاب. وقد أشار بروكلمان إلى أنه «لم يصل إلينا من اختلاف اللهجات، في داخل اللغة العبرية، إلا الرواية المباشرة في القصة المعروفة، في الآية السادسة من الإصحاح الثاني عشر رفي سفر القضاة، والتي تقول: إن قبيلة «إفرايم» كانت تنطق الشين سينا في كلمة: שִׁבֹּלֶת سنبلة»(٤٤).

٤- الفاء العربية والباء المهموسة السامية:

يتم نطق الفاء العربية بوضع أطراف الثنايا العليا على الشفة السفلى، ولكن بصورة تسمح للهواء أن ينفذ من خلالها ومن خلال الثنايا، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بالفاء.

هذه الفاء العربية من الأصوات الأسنانية الشفوية الاحتكاكية المهموسة. وليس لها نظير مجهور في اللغة العربية.

أما اللغة العبرية ففيها النظير الشديد للفاء وهو صوت p الموجود في اللغات الأوروبية، وصارت العبرية تفرق بين الصوتين بالشدة الخفيفة وهي عبارة عن نقطة توضع وسط الحرف حين يقع في بداية الكلام أو بعد سكون تام كما في פָּתַח pātah = فتح יִפְתַּח yiftah= يفتح.

ويبدو وجود اتفاق اللغات السامية- ماعدا العربية- في وجود صوت الباء المهموسة، في مقابل الفاء العربية، ومن ذلك فو ← فم، جاء في العبرية

פֶּה pē، وفي الأكدية pu، وفي الحبشية af، وفي الآرامية pummā. وهذا مما يرجح لدينا أن الباء المهموسة هي الأصل السامي القديم، والعربية طورته إلى الفاء القريبة من مخرج الباء يقول أستاذنا الدكتور حجازي: «إن صوت الفاء العربية ليس امتدادًا مباشرًا للغة السامية، بل هو ثمرة تغير صوتي، فقد تحولت الباء المهموسة، وهي صوت شفوي ينطق بالتقاء الشفتين تمام الالتقاء إلى صوت الفاء، وهو صوت شفوي أسناني ينطق بالتقاء الشفة السفلى والأسنان العليا، أي أن الباء المهموسة والفاء لا تختلفان إلا من ناحية المخرج بدرجة ما، فالشفة السفلى تشترك في نطقهما، ولهذا لم يكن من الصعب حدوث هذا التغير. فالفاء العربية إذن صوت نتج عن صوت الباء المهموسة في اللغة السامية الأولى»[٤٥]. ويقول «كيس فرستيغ: إن صوت الفاء الشفوي يحل محل صوت p الموجود في باقي الساميات، انظر مثلا كلمة paqad في العبرية، وهي تعني (يزور). وكلمة paqaadu في الأكدية، وهي تعني (يعتني). أما في اللغة العربية فنفس الكلمة هي (فقد)»[٤٦].

وهكذا ذهب علماء الساميات إلى أن صوت (p) سامي الأصل، وأن صوت الفاء (f) متطور عنه في اللغات السامية الجنوبية عامة، وفي العربية خاصة. ويظهر لنا صحة ذلك حين نجد أن اللغة الأكدية تنطق كلمة (الأسكفة) بالباء (أسكبتو) وهي مشتقة من الجذر الأكدي (سكابو). والمرجح كثيرًا أن الكلمة الأكدية أصل الكلمة العربية أو الآرامية (اسكفتا)، كما وجد في العربية (إسكاب) بالباء، و(إسكاف) بالفاء، مما يدل على أن الصيغة التي اشتملت على الفاء إنما حدثت فيما بعد، إذ إن الأكدية احتفظت بالأصل[٤٧].

ونلمس هذا التطور الصوتي للفاء العربية فيما ذكره أستاذنا الدكتور صلاح حسنين حين قال: «.. ويتضح هذا أكثر من تتبع التطور التاريخي لصوت الفاء في العربية من خلال مقارنته باللغات السامية الأخرى، فأصل هذا الصوت (p)

في اللغات السامية الشمالية، ثم تحول إلى نظيره الاحتكاكي، وهو (الفاء) في اللغات السامية الجنوبية، مثل العربية، والذي يدل على ذلك وجود الباء في الأكدية والأوجاريتية والعبرية والآرامية. ويتضح ذلك من المقارنة الآتية بين العربية والعبرية.

عبرية	عربية
Pul	فول
Pē	فم
Pālag	فلج
Patan	فتح[٤٨]

٢- بناء الكلمة في اللغات السامية:

إن مصطلح «المورفيم» يمثل المصطلح الأساسي في التحليل الصرفي الحديث، عرفه بلومفيلد بقوله «صيغة لغوية لا تحمل أي شبه جزئي في التتابع الصوتي والمحتوى الدلالي مع أية صيغة أخرى»[٤٩]. ولدينا مورفيم حر، يوجد مستقلا ومنفصلا، والآخر عرف بـ المورفيم المقيد الذي لا يوجد إلا مرتبطا أو متصلا كالضمائر مثلا.

إن مسائل الصرف عديدة، شأنها في ذلك شأن الأصوات وكل قسم من أقسام الكلمة يمكن أن يدرس صرفيا في كتاب مستقل، فتصريف الأسماء يتضمن الصيغ الاسمية، والإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والضمائر، والأعداد.. إلخ. أما تصريف الأفعال فموضوعاته عديدة منها تقسيمها إلى مجرد ومزيد وإلى صحيح ومعتل، وإلى ثنائي فثلاثي فرباعي، وعلاقة كل قسم بالتعبير عن الزمن.. إلخ. أما الحروف فتقتصر

الدراسة فيها على تحديد وظائفها من عطف أو استفهام أو نفي أو ما شابه ذلك، مع وضوح علاقتها بالأفعال والأسماء. ولن يمكننا تناول كل هذه المباحث، وإنما سنمعن النظر في موضوعات ثلاثة ذات أثر واضح في دراسة العربية دراسة مقارنة.

الموضوع الأول: الأصول اللغوية بين الثنائية والثلاثية:

الميزان الصرفي مفتاح فهم طبيعة بنية الكلمة في العربية وفي أخواتها من اللغات السامية الأخرى، ويرمز له بالحروف الأصول (ف، ع، ل) وما زاد عليها يعد من الزيادة على هذه الرموز الثلاثة، ولهذا قال النحاة العرب بثلاثية الأصول، وحين ينطق المرء بكلمة مكونة من حرفين وزنوها على أنها ثلاثية سقط منها حرف مثل: (سل) على وزن (فل) و(خذ) على وزن (عل)، و(اسع) على وزن (افع). وعرف هذا بمنهج النحاة العرب في تحديد الحروف الأصول، ومقابلة الزيادة والنقص في الميزان الصرفي.

كما افترض النحاة العرب أن «أب» و«أخ» و«دم» و«يد» كلمات ثلاثية في الأصول، حذف أحد أصولها، ثم أعيد في الجمع أو التصغير أو النسب. والعكس صحيح لدينا، فربما كانت هذه الكلمات ثنائية الأصل وألحقت بالثلاثي فيما بعد بإضافة صوت إليها تبعا لرأي بعض علماء الساميات.

فقد انتهى البحث السامي المقارن إلى أن اللغات السامية تعرف الأصل الثلاثي أساسًا لأكثر المفردات، ولكن عددًا منها قد تطور عن أصل ثنائي. وقد أبرز «نولدكه» في دراسة له عن الأسماء الثنائية في اللغات السامية أن أسماء مثل: «يد، ودم، وأم» من هذه الثنائيات المغرقة في القدم، والتي عاشت إلى يومنا هذا، وأن تلك الصيغ التي تبدو من هذه المواد، وكأنها ثلاثية، تفسر باعتبارها تمثل اتجاها في التطور نحو الثلاثية»[٥٠].

إن علم اللغة المقارن يحاول التعرف على الأصل من خلال قراءة الكلمات العربية في أخوات العربية للوقوف على الجذر الواحد الذي صدرت عنه هـذه الكلمات، وبخاصة الكلمات التي خرجت عن إطار الأصل الثلاثي كالـضمائر مثلا (أنا- هو- ذا- ذو) وكذلك مجموعة الأسماء الدالة علـى القرابـة مثـل: (أب- أم- أخ- ابن- حم... إلخ) ومجموعة الأسماء على أعضاء جسم الإنسان مثل: (يد، كف، شفه، رئة، لثة.. إلخ).

وإذا كان الأمر كذلك في البحوث السامية الحديثة فيمكننا معالجة إعـراب الأسماء الستة في ضوء هذا الفهم الجديد لمثل الكلمات (أب، أخ، حم). فمـنهج النحويين العرب أنها أسماء ثلاثية، والحروف الثالث منها هو حرف الإعـراب كالدال من زيد، وحين أقول: نجح أخوك في الأصل (أخوُك) فالضمة على الواو علامة الرفع، ثم سلبوا الحرف الذي قبل الواو حركته، فسكن، ثم ضموه اتباعا لحركة الواو، ثم حذفوا حركة الإعراب وهي الضمة استثقالا لها على الـواو، فصار اللفظ (أخوك).

أما البحث السامي المقارن فقد أكد على أن هذه كلمات ثنائية الأصل، وقد تطورت هذه الكلمات في اتجاه الثلاثي لإحداث ضرب من التوازن ولكي تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية وهي الكلمات الثلاثية. وحدث هذا التطور في عدة اتجاهات: أحدها يجعل حركة الإعراب طويلة فيكون الرفـع بـضمة طويلـة (أبوك)، والنصب بفتحة طويلة (أباك)، والجر بكسرة طويلة (أبيك). غيـر أن هذه الكلمات تحتفظ بثنائيتها عندما تضاف إلى ضمير المـتكلم (أبـي، حمـى، أخي). والاتجاه الثاني لجعل هذه الكلمات متوازنة مع الثلاثـي كـان بتـشديد الصامت الثاني في الكلمات (أب، أم، أخ، حم). ونجد هذا في لهجـات عربيـة كثيرة[٥١].

هذه الكلمات هي ثنائية في ضوء الدراسة المقارنة فكلمة (أب) مثلا هي في الحبشية **ab’** وفي العبرية אָב **āb’**. وفي السريانية **abbā’** وفي الأشورية **abu’** »[٥٢].

وقد رأى الدكتور «أحمد علم الدين الجندي» أحد علماء النحو في العصر الحديث أنه «على مذهب ثنائية الأسماء الستة فلا مشكلة في إعرابها، ويكون الإعراب على الحرف الثاني، وليست حروف العلة فيها سوى أثار لإشباع حركات الإعراب، فقولك: جاء أبوك- فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على الباء، والواو إشباع، وقس على ذلك حالة النصب والجر فيها، وهذا مذهب المازني بناه على (ثنائية) هذه الأسماء، وهذا يذكرنا بما ورد في النقوش النبطية من إشباع حركات الإعراب، وذلك مثل: إضافة الياء إلى المضاف إليه في الأسماء المركبة تركيب إضافة مثل (عبد الله). وهذا يشبه ما جاء عن أزد السراة من قولهم: جاء زيدو، ورأيت زيدا، ومررت بزيدي. فالواو والياء يمكن أن تكون دليل إعراب في تلك اللغة، وفعلوا ذلك لحرصهم على بيان الإعراب، ولاسيما عند الوقف»[٥٣].

وهذا الرأي محمود لدينا، لأنه يتفق مع تطور الإعراب الذي بدأ بالحركات أولا، ثم كان الإعراب بالحروف الذي يبدو أنه نتيجة إشباع الحركات. وظهر هذا واضحا مع الأسماء الثنائية (أب، حم، أخ) التي وجدت لها بعد إشباع الحركة لغات أخرى، منها إلزام الألف في لهجة، في مقابل إلزام الواو في لهجة أخرى، وثالثة ارتضت القصر فقط دون إشباع للحركة، حتى كانت اللهجات العربية الحديثة التي لزمت الواو (أبوك- أخوك) وصارت تسقط أصواتا منها في بعض الدول العربية (بومدين- بوتفليقة) (بافضل- باجودة- باكلا).

أما الاسم (فوك-فاك- فيك) والذي تزاد عليه الميم فصار (فم) هذا الاسم يعود إلى أصل أحادي، إذ إن المشترك السامي في اللغات السامية هو الفاء

وجئ بالحركات الإعرابية عليها، ثم حدث الإشباع، فوجدت أصوات المد، وربما زادت الميم حين لا تكون الإضافة، وهي تمثل ظاهرة التمييم في اللغات السامية الأخرى التي تقابل التنوين في العربية. وصارت الصيغة الميمية تعرب بالحركات الذي تظهر على الميم، في حين أن الصيغة الخالية منها عُدت من الأسماء الستة لملازمتها للإضافة لغير ياء المتكلم.

الموضوع الثاني: صيغ البناء للمجهول في اللغات السامية:

يقوم بناء الكلمة في اللغات السامية على أساسين متكاملين هما:

المادة اللغوية، والوزن. أما المادة اللغوية فهي مرتبطة بنظام الصوامت التي تكون كل مادة، وأكثرها ثلاثية، ويتحدد المعنى الخاص لكل كلمة عن طريق الحركات، ومن الصوامت والحركات نشأ الاختلاف الدلالي بين (كَتَبَ) و(كُتِبَ) على الرغم من اتحاد الصوامت، والحركات أسهمت في دلالة الفعل الأول على البناء للمعلوم، والثاني على البناء للمجهول.

إن صيغتي (فُعِل) و(يُفعَل) في الثلاثي الماضي والمضارع، للدلالة على البناء للمجهول، كانتا موجودتين في اللغة السامية الأولى وليستا من مستحدثات العربية الفصحى. يقول الدكتور «رمزي بعلبكي»: «لا شك أن فكرة بناء الفعل للمجهول بتعديل صوائت الفعل المبني للمعلوم ترجع إلى مرحلة السامية الأم، وذلك لوجوده في عدد من اللغات السامية إلا أن ما تتميز به العربية عن أخواتها في هذا الباب هو القدرة على استخدام صيغة المجهول في جميع مزيدات الفعل، في الماضي والمضارع على السواء، أي أن بناء الفعل للمجهول في العربية معمم لا مخصص، فهو بذلك ذو قياسية عالية»(٥٤).

ولا يتسع المقام لذكر جميع آراء علماء الساميات هنا، ولذلك نذكر رأي «موسكاتي» بما فيه من خلاصته المسألة، قال: «ويصاغ الـ**passive** المطاوع

أو ما يسمى المبني للمفعول، على نظام أصوات المد: ضمة- كسرة- فتحة في تصريف الأواخر، وهذا المستعمل في العربية (مثلا: كَتَبَ، كُتِب)، حيث إن لتصريف الصدور في المبني للمفعول الـ passive نظام مد خاصًا به أيضًا (مثلا: يَكْتُب يُكتَب). وهناك اتفاق شكلي محض مع صوت المد في الجذر المشتق مع (الهمزة) في الصدر. وبصرف النظر عن العربية يوجد في الأوجاريتية مبني للمفعول من الجذر البسيط وفي مسارئل العمارنة وفي العبرية.. وقد توجد بقايا المبني للمفعول في آرامية نقوش أربد، وفي آرامية الكتاب المقدس»[٥٥].

ويبدو أن الصيغة الأولى في البناء للمجهول من الثلاثي التي تقوم على التصريف الداخلي في الفعل عن طريق الصوائت قد انقرضت من اللغات السامية الأخرى، ولم تحتفظ بها سوى العربية الفصحى، حتى العربية العامية في العصر الحديث قد تخلصت من (فُعِل) و(يُفعل) وحل محلها صيغتا الانعكاس أو المطاوعة (انفعل- اتفعل).

كما تتميز اللغة العربية عن أخواتها بقدرتها على استخدام صيغة المجهول في جميع مزيدات الفعل، في الماضي والمضارع على السواء، أيضا نجد في العربية صيغ المطاوعة تؤدي معنى المبني للمجهول، ففتح الباب يمكن أن يعبر عنها بـ انفتح الباب. ومن الثابت أن سائر اللغات السامية ليس فيها ما تتمتع به العربية من صيغ خاصة بالبناء للمجهول، وإنما اعتمدت الأفعال الدالة على المطاوعة لتعبر بها عما يعبر عنه المبني للمجهول في العربية.

وتعدّ اللغة العبرية أكثر اللغات السامية استخداما لصيغ البناء للمجهول بعد العربية.

١- נִפְעַל انفعل- فَعِل المبني للمجهول من المجرد פָּעַל

http://kotob.has.it

٢- פִּעֵל فعّل من الوزن المضعف פִּעֵל

٣- הִפְעִל أُفعِل من الوزن المزيد بالهاء הִפְעִיל

٤- הִתְפַּעֵל افتعل، تفعّل، تفاعل. وتتفق هذه الصيغة مع صيغة (اتفعل) في العامية المصرية، فأصل المقطع الأول في اللغتين هو التاء، وليست الهاء أو الهمزة إلا وسيلة للبدء بنطق التاء الساكنة. وهذه الصيغة العبرية أصبحت تقابل تماما صيغة(تفعّل) المضعفة العين. ومازالت هذه الصيغة التائية من المضعف هي الشائعة في العبرية أما الصيغة التائية المشتقة من المجرد في العبرية، والتي تشبه لفظا ومعنى (اتفعل) في العربية العامية، والسريانية، فقد انقرضت من اللغة العبرية تمامًا.

وتعدّ اللغة الآرامية أقل اللغات السامية استعمالاً لصيغ البناء للمجهول، ففيها صيغة المطاوعة التي تدل على البناء للمجهول مثل: **etdekret’** فعل ماضي مبني للمجهول متصل بضمير الفاعل بمعنى تذكّر. أما الحبشية والأكدية فلا يكاد يكون فيها أي أثر لصيغ خاصة بالبناء للمجهول. هذا هو واقع اللغات السامية كما وصل إلينا، وهو واقع يؤكد لدينا أصالة اللغة العربية، وقدرتها على الاحتفاظ بعدد من الخصائص القديمة، كالبناء للمجهول هنا_ فهي التي نشأت وتطورت في الموطن الذي عاشت فيه اللغة الأم، وأنها لم تحل محل لغة أخرى، كما حدث لغيرها من اللغات المتفرغة عن اللغة الأصلية في هذا الوطن، إذ هاجرت واحتكت بلغات أخرى أبعدتها حينا عن الخصائص الأصلية التي حافظت عليها العربية.

إن بنية اللغة العربية تتغير في العصر الحديث، وأصبح انتشار الصيغة اللغوية يتأثر بعوامل كثيرة. ولعل من الملاحظ هنا أن التعديل الصائتي الدال على البناء للمجهول إنما هو من السامي المشترك، كما حافظت عليه العربية (فُعِل). إلا أن هذا القديم لم يعد أوسع انتشارًا في العربية المعاصرة، لكراهية

تعاقب حركتي الضم والكسر في هذه الصيغة، لذلك نراها اختفت تمامًا. وحلت محلها صيغتا (انفعل) و(اتفعل). يقال: فلان انسرق أو اتسرق. وهذا هو السبب في أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد اهتم بأوزان المطاوعة التي شاعت في الاستخدام العربي منذ قرون بدلا من صيغ المبني للمجهول التي قلّ استخدامها في الفصحى بعد أن انتهى من اللهجات. وما أشبه هذا التطور اللغوي في العربية بما حدث في أخواتها من اللغات السامية.

هذه الظاهرة اللغوية خير مثال على ما سبق أن قلناه من أن معرفة طرف ولو يسير عن اللغات السامية يساعد مساعدة أكيدة على معرفة التطور اللغوي في العربية، ويفسر لنا كثيرًا من المشكلات التي تصادفنا في الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة على السواء.

الموضوع الثالث: تحديد الأصل اللغوي في ضوء المقارنات السامية:

يراد بمصطلح (الأصل) هنا الأصل التاريخي الذي كانت عليه المفردات العربية مثلاً قبل أن تتطور أو تتحول عن هذا الأصل القديم. وهذا الضرب من التأصيل التاريخي يعود على دارس العربية بالفائدة؛ لذلك سيركز البحث على الألفاظ السامية المشتركة من جانب، والألفاظ الدخيلة من جانب آخر. وبذلك يمكن أن نصل إلى التغير الدلالي لهذا اللفظ أو ذاك.

ويركز منهج المقارنة على وجود عدد كبير من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية، وإذا ثبت أن الكلمة موجودة في الأكدية والأوجاريتية والعبرية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية والحبشية فهذا يعني أنها موروثة من اللغة السامية الأم، فالمادة اللغوية وما اشتق منها يدور حول معنى اتفقت فيه هذه اللغات أو تقاربت حول هذا المعنى. ولا يخفي على القارئ أننا من خلال منهج المقارنة نسعى إلى إيجاد أصول اشتقاقية لبعض الجوامد والأدوات أيضا حسب شيوعها في اللغات السامية الأخرى.

وليس بالإمكان أن نعتمد الشيوع، في كل الأحيان، أساسًا في معرفة الأصل التاريخي للكلمات، فكثيرًا ما كان الأصل التاريخي قليلاً أو مهجورًا كما في قولنا: (قَوَل) أصل: (قال) و(رَمَى) أصل: (مي). وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار- في بحث هذه المسألة- تداخل المواد اللغوية، فبعض المواد لها معنى قديم، حدث له تطور دلالي لسبب ما، مما جعل أمام القارئ معنيين متباينين أحيانا.

ولدينا جملة من الألفاظ ضاعت من العربية الفصحى، ولكنها بقيت مستعملة في اللهجات العامية، ومازالت بكيانها في بعض اللغات السامية الأخرى مثل العبرية والسريانية ولذلك نهتدى إلى معرفة أصل اشتقاقها من خلال البحث في أخوات العربية. ولا شك في أن الوقوف على الأصول المشتركة بين العربية وبعض اللغات السامية يساعد على تعميق البحث عن تطور العربية في مراحلها القديمة، كما يلقي الضوء على اللفظ العربي المستعمل، الذي دوّن حديثا، ولكن عمره اللغوي طويل يعود إلى قرون طويلة قبل الميلاد. يقول الدكتور جواد علي: «والعربية الفصحى تشتمل على ألفاظ وعناصر بعضها قديم جدًا، يعود عهده إلى أقدم اللهجات السامية، وبعضها متأخر يمثل التطور الذي مرّ على اللهجات في جزيرة العرب، وفي بادية الشام وأطراف العراق، وبلاد الشام منذ أقدم العصور. ومن هذا المتأخر ما يشير إلى ابتعاد معناه عن معنى الكلمة الأم، وورود في معان جديدة تولدت من ذلك التطور. ويمكن الوقوف عليه من أخذ نماذج منه، وتسجيل معناه لمطابقته بأمثاله في اللهجات السامية الأخرى، حيث يظهر ذلك التطور الذي مرّ على معاني تلك الألفاظ في العربية، ومقدار قرب معانيها أو بعدها عن أمثالها في بقية اللغات»[٥٦].

ومن الملاحظ وجود كلمات ذات أصول سامية قديمة ارتبطت بدلالات دينية وحضارية خاصة مما يوحي بشيوعها في إحدى اللغات السامية، وأحيتها العربية في فترة زمنية ما، مما يتطلب معرفتها في اللغة التي شاعت فيها، مثل لفظة חָכָם (حاخام) أي رجل الدين عند اليهود، وهو معنى ديني خاص وجد في العبرية. ونجد المقابل العربي له (حكيم). مثل هذه الكلمات تحتاج إلى من يعرف اللغات السامية لكي يتثبت من المدخل العربي الذي توضع فيه ضمن مواد المعجم العربي، مع التأكيد على معناها الديني أو الحضاري في اللغة السامية الأخرى. ولكن الذي حدث من صناع المعاجم العربية أنهم لم يكونوا على معرفة تامة باللغات السامية؛ لذلك اخترعوا جذورًا عربية غريبة لأغلب كلمات المشترك السامي القديم.

ومن المفيد أن نشير إشارات خفيفة إلى بعض الأمثلة التي تظهر حاجة دارس العربية إلى معرفة هذه اللغات السامية، للوقوف على الأصل اللغوي الصحيح لبعض الألفاظ التي حار فيها علماء العربية القدامى.

١- كلمة (مَلَكَ) وأصلها اللغوي:-

من المواد اللغوية العربية التي تثير انتباه القارئ حولها في معرفة أصولها اللغوية كلمة (مَلَكَ) و(مَلاَكَ)، فالكلمة لا ترجع إلى المادة الثلاثية (م ل ك) وإنما ذكرتها المعاجم العربية في الجذر (أ. ل. ك). يقول ابن فارس: (ألك): الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهو يحمّل الرسالة، قال الخليل: الألوك: الرسالة، وهي المألكه على مَفْعُلة... وإنما سميت الرسالة ألوكًا لأنها تؤلك في الفم، مشتق من قول العرب: الفرس يألك باللجام ويعلكه: إذا مضغ الحديدة»[٥٧].

وقد أثار كلام ابن فارس عدة ملاحظات لديّ، ألخصها فيما يلي:

١- نص على أن مادة (أ، ل، ك) أصل أصيل في جذور لغتنا العربية ولم ينص على مادة (ل، أ، ك) في مقاييسه، وهي الأصل السامي القديم.

٢ جاء في لسان العرب لابن منظور: «إن سيبويه قال: ليس في الكلام مفعُل وروى عن محمد بن يزيد أنه قال: مألك جمع مألكه». وهذا صحيح، فلم يسمع عن العرب ضم العين في وزن (مفعل) وإنما سمع منه فتح العين وكسرها في المشتقات الصرفية.

٣- خلط ابن فارس بين مادتين مستقلتين هما (ألك) و(علك). والذي يبدو لنا أن المثال المذكور هنا (الفرس يألك باللجام ويعلكه) إنما هو من قبيل الإبدال الصوتي لمادة واحدة هي (علك) ولا علاقة لها بتحمّل الرسالة[٥٨].

لقد تنبه ابن جني إلى أن أصل تركيب (ملَك) هو (لأك) حيث قال: «وينبغي أن يُعلم أن أصل تركيب (ملَك) على أن الفاء لام، والعين همزة، واللام كاف، لأن هذا هو الأكثر، وعليه تصرّف الفعل... وعلى هذه اللغة جاء (ملَك) وأصله (ملأك)، وعلى هذا جمعوه، فقالوا: ملائك وملائكة، لأن جمع (مَفْعل) مفاعل، ودخلت الهاء في ملائكة لتأنيث الجمع، وقد قدّموا الهمزة على اللام فقالوا: مألِكه ومألكة، للرسالة»[٥٩]. وقال في الخصائص: «ألا ترى أن أصل (ملَك) (ملْأك): مفعل، من تصريف ألكني إليها عَمْرك الله، وأصله: ألئكني، فخففت همزته فصار ألكني، كما صار (ملأك) بعد التخفيف إلى (ملَك) ووزن (ملَك) (مفل)»[٦٠].

وقد أورد ابن منظور في اللسان مادة: (لأك)، ونص على أنه قد جاء «في المحكم لابن سيده ترجمة (ألك) مقدمة على ترجمة (لأك)، وقال في كتابه ما نصه: إنما قدمت باب مألكه على باب ملأكة، لأن مألكة أصل وملأكة فرع-

مقلوب عنها، ألا ترى أن سيبويه قدّم مألكه على ملأكة فقال: وقالوا مألكة وملأكة؟ فلم يكن سيبويه على ما هو به من التقدّم والفضل ليبدأ بالفرع على الأصل»[٦١].

إن تعليل ابن سيده ليس مقبولا علميا حين يعتمد على التقديم والتأخير لوضع كلمات ذكرها سيبويه، ويبني عليها أحكامًا لغوية، مع أن الذي رآه الفرع هو الأصل السامي القديم، والذي شهد به ابن جني من قبل.

ولدينا شواهد شعرية فيها استعمال كلمة (مَلأك) التي هي الأصل القديم في اللغات السامية. قال الشاعر أبي وخزة في مدح عبد الله بن الزبير:

فلست لإنسيّ ولكن لمَلأك تنزّل من جوّ السماء يصوبُ

يقول ابن منظور عن البيت الشعري: «إنما مثاله (ملأك) على وزن (مفعل) والعين محذوفة ألزمت التخفيف (مَلَك) إلا في الشاذ»[٦٢]. يريد أن يقول لنا الشائع بحذف العين (ملك)، والشاذ لديهم على التمام (مَلأك).

ومن الطريف ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس: «لا نرى في الحقيقة مسوغًا لذلك الإصرار إلا فيما يظهر وقوفهم عند حد الاستعمال القرآني. ولا نتصور مع ذلك أن الأساليب القديمة في أدب ما قبل الإسلام قد خلت من شواهد استعملت فيها كلمة (ملاك)، وإن كنا نفتقد النص حتى الآن، أو ربما كان السر في إصرارهم على حذف الهمزة هو أن الصورة (ملاك) هي التي شاعت بين المسيحيين السريان من قديم، مما جعل أصحاب المعاجم يتجاهلونها ولا يشيرون إليها»[٦٣].

والفيصل في كل ما سبق الاستئناس باللغات السامية فإننا نجد كلمة (ملاك) في العبرية هي **מַלְאָךְ mal'ak**، ونراها واردة في سفر التكوين كثيرًا منها **וַיִּקְרָא אֵלָיו מַלְאַךְ יְהוָה מִן־ הַשָּׁמַיִם** فناداه ملاك الرب من السماء[٦٤]. وهو

الاستخدام الشائع في السريانية والحبشية «mal'ak»[٦٥]. ويتضح لنا من كل ما تقدم تمالك اللغات السامية الأخرى مع العربية في الأصل (ل أ ك)، والشائع في كلمة (ملأك) التي سهلت فيها الهمزة العربية فقيل (ملاك) فكثيرًا ما تقلب الساكنة إلى حرف مد جنس حركة ما قبلها.

٢- التأصيل اللغوي في باب المعرّبات:

إن تقدم اليهودية في تاريخ الدعوة يخيل إلى كثير من المفكرين بأن السابق في التاريخ أولى بالتأثير فيما يليه. ولذلك ذهب كثير من المستشرقين إلى أن الإسلام نسخة مفصحة من اليهودية، وزاد آخرون فقالوا: بل هو نسخةٌ مشوهة من اليهودية والمسيحية. وهذه أقوال عامة لا تستند إلى دليل علمي، فالسبق إلى النبوة عامة لم يثبت لليهود، بل إن أنبياءهم تلقوا العلم على غيرهم، ومنهم موسى عليه السلام- كما جاء في العهد القديم.. علمه يثرون التبليغ وإقامة الشريعة، وفي تاريخ العرب أنبياء سابقون عليه كهود وصالح وذو الكفل عليهم السلام. والمتأمل يجد أن اليهود تعلموا من المسلمين لغتهم وأدبهم وحكمتهم وضبط كتابهم المقدس في الأندلس.

ومن الحقائق الواضحة أمام الباحث المتأمل أن المستشرقين الذين بحثوا في القرن التاسع عشر عن وجود تشابه بين القرآن والكتب المقدسة، وتخصصوا في الدراسات العربية والإسلامية، لم تطأ أقدامهم البلاد الإسلامية، ولم يغادروا أوربا، ثم ادعوا أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حاكى العبرية، وليست عبرية التوراة بل عبرية المشنا إن الأمر هنا لا يعدو أن يكون مجرد توهمات من هؤلاء المستشرقين صنعها خيال تائه لديهم. وأكثر دراسات المستشرقين في مراحلها الأولى حاولت تسخير معارفها عن اللغات السامية لخدمة اللغة العبرية، وتجافي الحقيقة التي يعرفونها جيدًا.

وقد حاول كثير من علماء العربية القدامي تأصيل كثير من الألفاظ العربية، ومما يؤسف له أنهم أرجعوا كثيرًا من المفردات التي لا غبار على أصلها العربي إلى العبرية مثلا أو السريانية مثلا، لمجرد وجودها في هذه اللغة الأخرى، ومردهم في هذا إلى التشابه في اللفظ والمعنى وهو تشابه مرجعه إلى أن هذه اللغات تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة. وليس لدينا اقتراض لغة من أخرى.

ولا يسعنا في هذا الميدان من البحث إلا أن نستأنس بما فعله «جزينيوس» في معجمه؛ إذ يذكر غالبا الألفاظ المتشابهة في اللغات السامية جنبا إلى جنب دون أن يقطع بأن إحداها قد أخذت عن الأخرى، إلا قليلاً، وفي هذه الحالة يميل بوجه عام إلى القول بأن العبرية والسريانية والآرامية هي التي أخذت عن العربية، لما أسلفناه من احتفاظ اللغة العربية بأكثر وأعرق خصائص السامية الأم»(٦٦).

ومما يقطع بصحة ما ذهب إليه «جزينيوس»، وقد وافقناه أنا نظرنا في العربية فاخترنا المعرّب فيها بعض أسماء أنبياء بني إسرائيل للوقوف على أصولها اللغوية، ومدى صحة معالجة صناع المعاجم العربية لهذه الأسماء في ترتيب المعجم، وتداخل هذه الأسماء مع كثير من الجذور العربية ذات المعاني المختلفة مع هذه الأسماء.والأجدر بنا أن نتحدث عن كل اسم من هذه الأسماء حديثا يخصه في إيجاز غير مخل ولا به غموض.

١- (إبراهيم) الخليل:

لم يكن حديث القرآن عن (إبراهيم) مستمدًا من التوراة، وإلا لما كان أيسر من ذكر تسمية أبيه تارحًا كما جاء في التوراة، وكذلك تاريخ إبراهيم لم يؤخذ من المصادر الدينية اليهودية وإلا ذهب علماء العربية القدامى مذاهب متعددة في تفسير اسم (إبراهيم)، ويندر الاتفاق بينهم على دلالة واحدة.

وقد ورد لفظ (إبراهيم) في اللغة العربية بثلاث صيغ

(١) إبراهام- بكسر الهمزة- وهو الأقرب إلى الصيغة العبرية אַבְרָהָם ʼabrāhām . وفيها لغتان آخريان هما: إبراهيم بحذف الألف الثانية، وإبراهيم بحذف الألفين معًا. قال الجواليقي: «.. وإبراهام، وقد قرئ به، وإبراهيم، على حذف الياء، وإبراهم. ويروي أن عبد المطلب قال:

عذت بما عاذ به إبراهيم   مستقبل القبلة وهو قائم

ويروي لعبد المطلب أيضا:

نحن آل الله في كعبته   لم يزل ذاك على عهد إبراهيم(٦٧)

(٢) إبراهُوم- بالمد- وهناك لغة أخرى تقتصر الضمة الطويلة أي إبراهُم(٦٨).

(٣) إبراهيم- وهي أشهر الآراء- وفيها لغة أخرى بتقصير حركة الكسر فيقال: إبراهِم.

ومن الثابت لدينا أن السيوطي نقل كلام الجواليقي حول اسم (إبراهيم) وأضاف: «هو اسم سرياني معناه: أب رحيم، وقيل: مشتق من البرهمة، وهي شدة النظر، حكاه الكرماني في عجائبه»(٦٩).

وتناقل علماء العربية كلام السيوطي من بعده، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين أب رحيم، أو أب راحم، قاله: لسهيل وابن علمية»(٧٠).

والاسم العبري אַבְרָם (أبرام) (سفر التكوين ١١/ ٢٦/ ٢٧) ومعناه الأب الرفيع (العالي). ثم غيرّ الله اسمه إلى אַבְרָהָם (أبراهام) جاء في التوراة: (لن يُدعي اسمك بعد الآن أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم) (٧١)، وقد مس العلماء هاتين الكلمتين على النحو التالي:

אַבְרָם مكونة من אַב أب و רָם العالي أو الرفيع אַבְרָהָם مكونة من אַב أب و רָהָם تعني: الجمهور.

ومن العجيب أن كلمة רָהָם rāhām لا تذكرها المعاجم العبرية بهذا المعنى، وليس لها اشتقاقات مستخدمة قديما وحديثا منها، وإنما المعنى المذكور لـ(هامون) الصوت، الهمهمة، الدوى، الكثيرة. ويبدو أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو الجلبة والصوت، ثم أطلق على تجمع الناس الذي هو أحد مصادر الجلبة والضجيج.

وقد ذكر «جزينيوس» أن «دلمان» ذهب إلى تقسيم كلمة אַבְרָהָם إلى אַבִּיר التي تعني رئيس، وكلمة הָם التي تعني الجماهير. فيكون معنى الاسم: رئيس الجماهير»[٧٢]. وقد استفاد الشيخ الطاهر بن عاشور من المقارنات السامية حيث قال: «وفي التوراة أن اسم إبراهيم (إبرام) وأن الله لما أوحى إليه، وكلمه، أمره أن يسمى (إبراهيم) لأنه يجعله أبا لجمهور من الأمم، فمن إبراهيم على هذا أبو أمم كثيرة»[٧٣]. ويبدو أنه تأثر بالنطق العربي للكلمتين فكسر الهمزة في البداية مع أنها في الأصل العبري مفتوحة، وهذا شأن تقريب الأعلام المذكورة في العبرية لـ إسماعيل، إسحاق، إسرائيل.

٢- إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام:

لقد أدرك علماؤنا القدامى أن كلمة (إسحق) أعجمية، ولكنهم تكلفوا اشتقاقها من العربية، فكما يقول الجواليقي: «واسحاق أعجمي وإن وافق اللفظ العربيّ. ويقال: أسحقه الله يسحقه إسحاق»[٧٤].

فإذا ذهبنا للفظ العربي نجد أن له معنيين لا يتفقان مع اسم بني الله فكما يقول ابن فارس: «السين والحاء والكاف أصلان: أحدهما البُعد، والآخر: إنهاك الشيء حتى يبلغ به إلى حال البلي»[٧٥]. ومع ذلك نجد ابن منظور يضع كلمة

http://kotob.has.it

(إسحق) ضمن مادة (سحق) حيث قال: «... وإسحق: اسم أعجمي، قال سيبويه: ألحقوه ببناء إعصار. وإسحق: اسم رجل، فإن أردت به الاسم الأعجمي لم تصرفه في المعرفة، لأنه غير من جهته فوقع في كلام العرب غير معروف المذهب، وإن أردت المصدر من قولك أسحقه السفر إسحاقًا أي: أبعده، صرفته، لأنه لم يغيرّ»(٧٦).

أما رواية العهد القديم فهي: «فحبلت سارة وولدت لإبراهيم في شيخوخته ابنا، في الوقت الذي عينه الله له. فدعا إبراهيم ابنه الذي أنجبته له سارة «إسحق».. وقالت سارة: «لقد أضحكني الرب، كل من يسمع هذا الأمر يضحك معي»(٧٧). وهذا التعليل من سارة يتفق مع اشتقاق كلمة יִצְחָק **yeshak** العبرية، فالجذر اللغوي צחק **sāhak** بمعنى: ضحك، مزح، والمستقبل من יִצְחָק: يضحك، وهو المنقول إلى العلمية بمعنى الضاحك، أو الضحاك. وقد اقترن الاسم بالضحك في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ**﴾(٧٨). فقد ضحكت سارة حين عرفت أنها ستلد إكبارًا لأمر، انظر لكبر سنها هي وزوجها إبراهيم عليه السلام.

٣-إسماعيل أبو العرب:-

إن من أسباب اضطراب المعاجم العربية في تقعيد الدخيل بحثهم من وزن أو أصل للفظة العربية عن الوزن العربي. ومن ذلك كلمة (إسماعيل). وقد ذهب علماء الساميات على أن كلمة (إسماعيل) هي اسم مركب من مقطعين هما (يسمع + إيل)، وهما في العبرية יִשְׁמַע **yešma'** + אֵל **'ēl** التي تعني الله وهذا هو الرأي الراجح لدينا، إذ نراه موجودًا في العربية الجنوبية بالياء (يسمع إيل). وهذا يعني عروبة الكلمة، وأن اللغات السامية تستوي في الأخذ عن اللغة السامية الأم المفترضة، إن لم يكن بعض هذه اللغات قد أخذ عن العربية.

وتزيدنا رواية العهد القديم تفسيرًا لسبب التسمية وهو: «وأضاف ملاك الرب: «هو ذا أنت حامل»، وستلدين ابنا تدعينه إسماعيل، لأن الرب قد سمع صوت شقائك»[٧٩]. وهذا التعليل في تسمية الاسم مقبولة لغويا، فالاسم مكون من فعل مستقبل». יִשְׁמַע yisma' واسم إله אֵל 'ēl والمعنى (يسمع الله).

ويبدو لنا من هذا التركيب الاسمي أنه مغرق في القديم من الإرث السامي المشترك، وقد حافظت عليه العبرية.والعربية الجنوبية فنطقته بالياء المكسورة، في حين أن العربية الشمالية حولت هذه الياء إلى همزة مكسورة شأن أسماء الأعلام الأخرى، نحو إسرائيل، إسحاق. ولا يمكننا بدعوى منع الكلمة من الصرف أنها أجنبية عن اللغة العربية التي تستوي في هذه الأسماء مع العبرية وسائر اللغات السامية، وهي ألفاظ مأخوذة من السامية الأولى المفترضة.

وقد تحدث «الفيروزآبادي» عن كلمة (إسماعيل) فقال: «إسماعيل: اسم أعجمي كسائر أسماء الأعلام الأعجمية... وتكلف بعض الناس وجعل له اشتقاقا من (سمع)، وتركيبا منه ومن (إيل)، وهو اسم الله عز وجل، قال: فإن كان وزنه إفعاليل فمعناه: أسمعه الله أمره فقام به والذي قال: وزنه فُعاليل، لأن أصله سُماءِ قال: معناه: سمع من الله قوله فأطاعه»[٨٠].

أقول: لم أسمع بهذه الأوزان في العربية حتى لو أخذنا بالإبدال الصوتي للمنطوق العبري، والعجيب هنا أن الفيروز أبَادي رأى المركب الاسمي من التكلف، وهذا ليس فيه تكلف، فأغلب اللغات السامية، عرفت السماء المركبة وبخاصة أسماء الملائكة (جبريل- ميكائيل- إسرافيل- عزرائيل) وكذلك أسماء الأنبياء ومناه (إسماعيل) ومن الصعب جدًا موافقة الفيروز أبادي على تلكفه على إيجاد وزن صرفي عربي غير مألوف لمجرد إثبات عروبة الكلمة.

إن فيما سبق بيانه من تأصيل بعض أسماء الأنبياء يرجح لدينا أنها أصلية موروثة عن اللغة السامية الأم، وعند استقراء جميع أسماء الأنبياء وستتضح لنا

المسنّة. واللغة العربية حين دونت وجدت فيها هذا الأسماء حيّة في الواقع اللغوي، وعلى طريقة العرب في إيجاد وزن صرفي لها. وهذا الأمر جعل القدماء الذين ليسوا على دراية بشقيقات العربية أن يجتهدوا في بيان الأصل اللغوي، وظهر الخطأ أحيانا، لذلك نحتاج على إضاءة الدارسات المقارنة حتى نستجلي أسرار العربية. وإني لأرجو بهذا البحث وما سبقه من بحوث أن أكون قد لبيت بعض الحاجة، والله ولي التوفيق.

* *

الخاتمــة

والآن وقد انتهى بي المطاف إلى هذا الحد الذي اقتضاه المنهج، وارتضاه البحث، وفق الخطة التي ذكرتها المقدمة، وقد اقتصرت علــى تنــاول بعــض الفوائد التي تعود على دارس العربية للغة سامية في ضوء المقارنة بينهما. ولا أدعي الحصر أو الاستقصاء لهذه الفوائد العديدة، فما يمكن لبحــث صــغير أن يشمل هذا. ويجدر بي أن أذكر هنا أبرز ما ورد في بحثي من أفكار أو حقائق أو نتائج، وهي على النحو التالي:-

١- الحقيقة الناصعة أمامنا أن العربية التي ادعوا حداثتها هي قديمة كل القــدم متغلغلة في أعماق الماضي، فأفرع اللغات السامية بينها تشابه قوى في كثير من الأصوات وبنية الكلمات والدلالة. وهذا ما لا يرضاه التيار المتعــصب في علم الاستشراق المعاصر الذي لا يريحه احتفاظ العربيــة بكثيــر مــن الإرث المشترك في اللغات السامية.

٢- منهج المقارنة التي ترغب في الأخذ به في دراسة العربية إنما يقوم علــى أساس أن الظواهر اللغوية التي تتفق فيها اللغات السامية إنما تمثل الميراث السامي القديم، وأغلبه حافظت عليه العربية الفصحى مــع أقــدم اللغــات السامية كالأكدية والأوجريتية التي يعود زمنها إلى ٢٥٠٠ ق. م تقريبا.

٣- علماء العربية القدامى أسبق من علماء الغرب، واليهود، في اكتشاف علاقة القرابة بين اللغات السامية، وهم أول من أدرك أن جميع هذه اللغات مــن أصل واحد، ولذلك هم أول من مهّد الطريق للمنهج المقارن الذي وجد فــي القرن التاسع عشر الميلادي.

٤- المتخصصون في علم اللغات السامية المقارن اتفقوا على أن اللغة العربية أغنى اللغات السامية بالأصول السامية القديمة من مفردات وقواعد، فهــي اللغة الوحيدة التي لم تفارق شبه جزيرة العرب. وهذا يتطلب من كل باحث

في العربية أن يكون على معرفة، ولو يسيرة، بهذه اللغات السامية، التي تمكنه من الإسهام في حل معظم المشكلات.

٥- اتضح في إطار البحث الصوتي المقارن أن العربية احتفظت بأصوات دون تغير يذكر كأصوات الحلق وأصوات الإطباق والأصوات المتوسطة ومن الحقائق الصرفية التي يثمر حول دراستها المنهج المقارن أبنية الأفعال والمشتقات الصرفية، وصيغ جموع التكسير، ولا يمكن حصر هذه القضايا الصرفية التي يمكن من خلال دراستها على العناصر القديمة الموروثة عن اللغة السامية الأم.

٦- ليس من المنطق أن نسلب عربية أغلب الألفاظ المعربة فهي موجودة ضمن المحيط الحضاري العربي القديم، وربما حافظت العبرية على تدوين هذه الأسماء في مرحلة زمنية قديمة ساعدت على حفظ الصورة الأصلية القديمة. وحين دونت العربية وجدت فيها هذه الكلمة فتية وناضجة، مما يدل على استخدامها القديم.

٧- إسهامات علماء العربية القدامى في باب التأصيل اللغوي للمعربات تعدّ بدائية، ولا يعتمد عليها كحقائق علمية رصينة، فقد أرجعوا أغلب هذه الأسماء إلى أصول غير عربية، معتمدين في هذا الحكم على لغتنا العربية التي دونت مؤخرًا، مع أنها من أقدم اللغات السامية المتطورة عن اللغة السامية الأولى. وأغلب الأسماء التي قيل: إنها أعجمية نجد لها أصولا عربية قديمة من خلال المقارنات السامية.

٨- المسائل الصوتية والصرفية والنحوية المقارنة في اللغات السامية كثيرة ومتشعبة، وحاولت أن أذكر بعض هذه المسائل التي تكشف قيمة الدراسات السامية، وسنسعى مستقبلا إلى دراسة قدر أكبر من هذه المسائل. وحسبنا أنه يمكن الإفادة مما ذكرنا بعين الرضا التي تغمض الطرف عن كل كليلة وردت في هذا البحث.

ثبت الحواشي والمصادر

(1) fisher& Jastraw: Handbucn arab. Dialekte p.s: ١٥

واقتبسنا هذا النص من (الفصحى ولهجتها) د/ عبد الفتاح البركاوي ص ٩٣ القاهرة ١٩٨٤م.

(٢) كيس فرستيغ: اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها ص ٢٩ ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣) الخليل بن أحمد: كتاب العين ١/ ١٣٢، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي ود/ مهدي المخزومي، بغداد ١٩٨٢.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

(٥) المرجع السابق ٣/ ٤٠١.

(٦) المرجع السابق ٨/ ٣٥٧.

(٧) المرجع السابق ٦/ ١١٤.

(٨) انظر في ذلك كتاب العين ٢/ ٣٤٠، ٨/ ١١٢، ٨/ ٢٤٧.

(٩) أبو حاتم الرازي: الزينة في الكلمات الإسلامية ١/ ٢٤- ٢٥ تحقيق حسين الهمداني، القاهرة ١٩٥٧- ١٩٥٨.

(١٠) انظر: حاشية المرجع السابق ص ٢٥.

(١١) ابن دريد: جمهرة اللغة ٢/ ٧٢٤، تحقيق رمزي منير بلعكي بيروت ١٩٨٧م.

(١٢) ابن دريد: الاشتقاق ص ٣١٧، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف بمصر ١٩٥٤م.

(١٣) ابن منظور: لسان العرب ٦/ ٢١٠ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٢م.

(١٤) ابن دريد: الجمهرة ١/ ٢٨٧ مرجع سابق.

(١٥) ابن منظور: اللسان، مادة (بارخ) مرجع سابق.

(١٦) ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الإحكام ١/ ٣٠، القاهرة. د. ت.

(١٧) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط ٤/ ١٦٢- ١٦٣، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٠هـ.

(١٨) د/ عمر صابر عبد الجليل وزملاؤه: المدخل إلى تاريخ الحبشة واللغة الحبشية القديمة ص ١٩٧- ١٩٨، ودار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠١م.

(١٩) المرجع السابق ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢٠) المرجع السابق ص ٢١٨.

(٢١) **אבן גנח כתאב אללמע** ص ٧، تحقيق يوسف درينبورج، باريس ١٨٨٩م.

(٢٢) ابن بارون: كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية ص ٨٩ نقله إلى العربية د- أحمد هريدي، سلسلة الدراسات الأدبية واللغوية، العدد الرابع لسنة ١٩٩٩م، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة.

(٢٣) المرجع السابق ص ٤٩.

(٢٤) للمزيد حول هذا الموضوع انظر: د/ محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص ١٢ دار الثقافة العربية، مطبعة ثانية معدلة، القاهرة.

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٢- ٢٣.

(٢٦) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ١١٥، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦م.

(٢٧) د/ السيد يعقوب بكر: دراسات في فقه اللغة العربية، المقدمة، مكتبة رياض الصلح، لبنان ١٩٦٩م.

(٢٨) د/ محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص ٢٣، مرجع سابق.

(٢٩) مراد فرج المحامي: مقالات مراد ص ٢٥٥. القاهرة ١٩٣٦م.

(٣٠) كيس فرستيغ: اللغة العربية ص ٣٤، مرجع سابق.

(٣١) د/ أحمد نصيف الجنابي: ملامح من تاريخ العربية ص١٥، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق ١٩٨١م.

(٣٢) د/ محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون ص ٣٥، دا الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٨م.

(٣٣) د/ رمزي منير بلعبكي: فقه العربية المقارن ص ٤٢، دار العلوم للملايين بيروت ١٩٩٩م.

(٣٤) د/ صلاح حسنين: مدخل في علم الأصوات المقارن ص ١٣٩، مرجع سابق.

(٣٥) موسكاتي وزملاؤه: مدخل إلى علم اللغات السامية المقارن ص ٦١ ترجمة د/ مهدي المخزومي ود/ عبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣م.

(٣٦) د/ رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص ٢٢٦- ٢٢٧. مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٣٧) موسكاتي: مدخل ص ٥٩- ٦ مرجع سابق.

(٣٨) د/ حسام البهناوي: مقال: الجهود اللغوية للأستاذ الدكتور/ رمضان عبد التواب بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص ٧٧ من الكتاب التذكاري الأول، آداب عين شمس بعنوان (هؤلاء علمونا) القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣٩) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية ص ١٤، صححه د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٢م.

(٤٠) د/ كمال بشر: فن الكلام ص ٢١٦- ٢١٧، دار غريب القاهرة ٢٠٠٣م.

(٤١) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٤، تحقيق عمر فاروق الطباع مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م.

(٤٢) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ٤٩- ٥٠، ترجمة د/ رمضان عبد التواب مطبوعات جامعة الرياض، السعودية ١٩٧٧م.

(٤٣) د/ محمود فهمي حجازي:علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ص ٢٠٢، الكويت ١٩٧٣م.

(٤٤) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ١٨- ١٩، مرجع سابق.

(٤٥) د/ محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية مـ ٢٠٠- ٢٠١، مرجع سابق.

(٤٦) كيس فرستيغ: اللغة العربية ص ٣٠، مرجع سابق.

(٤٧) طه باقر: من تراثنا اللغوي القديم ص ٤٢- ٤٣، العراق ١٩٨٠م.

(٤٨) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ١١٨، مرجع سابق.

(٤٩) د/ محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص ٥٦، مرجع سابق.

(٥٠) د/محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون ص ٣١، مرجع سابق.

(٥١) المرجع السابق نفسه.

(52) W. Gesenius.A Hebrew and English Lexicon of The Lestament p. ٣.

(٥٣) د/ أحمد علم الدين الجندي: بين الحركات والحروف في الإعراب: دراسة تاريخية مقارنة ص ٨٤، مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٥٧، القاهرة ١٩٨٥م.

(٥٤) د/ رمزي بعلكي: فقه العربية المقارن ص ١٥٠- ١٥١، مرجع سابق.

(٥٥) موسكاتي: مدخل ص ٢١١، بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٥٦) د/ جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٧/ ٣٤١، مطبوعات المجمع العلمي العراق، بغداد.

(٥٧) ابن فارس: مقاييس اللغة ١/ ١٣٢، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٩م.

(٥٨) ابن منظور: لسان العرب ١/ ١٨٣، تنسيق وتعليق علي شيري، بيروت ١٩٩٢م.

(٥٩) ابن جني: المنصف ٢/ ١٠٣، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعلي أمين، القاهرة ١٩٥٤م.

(٦٠) ابن جني: الخصائص ٢/ ٨١،تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

(٦١) ابن منظور: اللسان ١٢/ ٢١٠ مرجع سابق.

(٦٢) السابق والصفحة.

(٦٣) انظر: د/ إبراهيم أنيس: مقال «ملَك، ملائك، ملائكة) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ٣١ سنة ١٩٧٣م.

(٦٤) سفر التكوين ٢٢/ ١١. وانظر أيضا: سفر التكوين ١٦، ١٧، ٢١/ ١٧، ٢٢/ ١١، وسفر الخروج ٢٣/ ٢، ٢٣/ ٢٠.

(65) W.Gesenius. P ٥٧٢.

(٦٦) د/ حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية ص ٥٨، دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.

(٦٧) أبو منصور الجواليقي: المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ص ١٤٠ تحقيق د. ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.

(٦٨) المرجع السابق والصفحة.

(٦٩)جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٣٨. دار الندوة، الجديدة، بيروت، د. ت.

(٧٠) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ١/ ٦٧٩، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٩م.

(٧١) سفر التكوين ١٧/ ٥.

(72) W. Gesenius. P.٤

(٧٣) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ١/ ٦٧٩، مرجع سابق.

(٧٤) أبو منصور الجواليقي: المعرب ص ١٠٦ مرجع سابق.

(٧٥) ابن فارس: مقاييس اللغة ٣/ ١٣٩.

(٧٦) ابن منظور: اللسان ٦/ ١٩٥.

(٧٧) سفر التكوين ٢١/ ٢- ٦.

(٧٨) سورة هود آية ٧١.

(٧٩) سفر التكوين ١٦/ ١١.

(٨٠) الفيروز أبادي: بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٦/ ٣٩، تحقيق عبد العليم الطحاوي، بيروت، د. ت.

* * *


http://kotob.has.it

الفصل الثانى

وزن «افتعل» بين القلب المكاني

وواقع الاستعمال

يتناول هذا البحث صيغة (افتعل) كما درسها القدماء لمراجعتها من خلال الوقوف الواضح على اختلاف الدرس بين علماء العربية القدامى والدارسين المحدثين. ويعود هذا الاختلاف إلى طبيعة المنهج، فالقدامى تناولوا هذه الصيغة في ضوء المنهج المعياري الذي يحتكم إلى قواعد صارمة تبين الصواب والخطأ، تبعا للطرق التعليمية. أما الدارسون المحدثون فيركزون على تناول البنية التي تمثلها الصيغة، ومكوناتها من مقاطع صوتية، وعناصر صوتية تبرز لنا معاني صرفية أو نحوية. وصار من الثابت لدى العلماء أن أية دراسة صرفية لا تقوم على أساس صوتي مصيرها الفشل.

ولذلك سننتهج منهجا يختلف عما نهجه علماء العربية القدامى، يقوم على وصف الظاهرة في كل لغة على حدة، ثم مقارنتها بين اللغات ذات الفصيلة الواحدة، وهي اللغات السامية، وسنركز فَي بيان ذلك بأمثلة عبرية وآرامية، وهي دراسة تأصيلية تحاول أن تقدم إجابة عن تساؤلات عديدة تجول في النفس، من مثل:

- هل تعدّ صيغة (افتعل) هي الصيغة الموروثة عن اللغة الأم فتكون صيغة (اتفعل) هي المستحدثة، أم العكس هو الصحيح؟
- لماذا جاءت صيغة (افتعل) هي أكثر الصيغ التباسًا وقلبا وإعلالا؟ وتستطيع أن تقول: أكثر الصيغ معاني في العربية.

- متى حدث الإدغام في «اذّكر» و«اصّبر» و«اضّرب»؟ هل حدث قبل عملية القلب المكاني في هذه الصيغة أم حدث بعدها؟

- هل التغير الصوتي في هذه الصيغة وراءه تصادم وضعها الأصلي (اتفعل) مع طبيعة النظام المقطعي في اللغة؟

إننا سوف نتخذ من النظام الصوتي للغة السامية المشتركة أساسًا للإجابة عن الأسئلة السابقة في ضوء المنهج المقارن، وسوف نبدأ بالحديث عن الظاهرة في اللغة العربية، وبمقدار ما يخدم هذه الغاية سيكون الحديث في أخوات العربية من عبرية، وآرامية، وحبشية وأكدية.. إلخ.

- من خلال النظرة المقارنة في ضوء علم الساميات سوف نكشف عن وجه الشبه بين ما هو موجود في العبرية والآرامية من تقديم التاء على فاء الصيغة وما ننطقه في العاميات المصرية من وزن (اتفعل)، ولربما استطعنا أن نؤكد الأصالة التاريخية لزيادة المقطع الصوتي (اتـ) في البداية من خلال المقارنة بين هذه اللغات.

ومن المسلم به في محيط الدراسات اللغوية العربية أن مشكلتها مشكلة «مصطلحات» وبخاصة المصطلحات الصوتية، ولذلك سنجعل المبحث الأول لدينا هو «المفاهيم والمصطلحات، ويدرس المبحث الثاني أصل صيغة (افتعل) لدى علماء الساميات، أما المبحث الثالث فقد خصصناه للحديث عن التحليل الداخلي للصيغة في العربية، واستعمالاتها في التراث العربي القديم. أما المبحث الأخير فقد خصصناه لدراسة صيغة «افتعل» في النصوص التي تمثل اللغات السامية في ضوء ما قاله علماء الساميات وعلماء اللغة المحدثون.

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل بفضله، وأن يكتبه لنا في سجل الحسنات والله الموفق، وبه نستعين.

المبحث الأول

المفاهيم والمصطلحات

١- مصطلح المطاوعة في وزن افتعل:

من معاني الجذر (ط و ع) في اللغة الإصحاب والانقياد، وموافقة الغير. قال ابن فارس: «الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه ومضى لأمره»[١].

والمراد بالمطاوعة في الاصطلاح: قبول أثر الفعل، وتكون بين فعلين متفقين في الاشتقاق (أي من أصل واحد) يدل أحدهما على تأثير، ويدل الثاني على قبول فاعله لذلك التأثير، فإذا قيل: عدّلت الأمر فاعتدل، فإننا نجد أن الفعل الثاني (اعتدل) يدل على أن القيد تأثر بالاعتدال واستجاب له، وحقق معنى الفعل الأول (عدّل)، ولذا سمي الثاني (مطاوعا). ويلاحظ أن الفعل (عدّل) متعد لمفعول واحد، ومطاوعه (اعتدل) صار لازما، وفاعله هو مفعول الفعل الأول، لا على أنه قام بالفعل، ولكن على أنه اتصف به؛ ولذلك نستطيع أن نقول: الفعل المطاوِع- بكسر الواو- ينقص مفعولا عن الفعل المطاوَع- بفتح الواو-.

ولدينا مجموعة من الأوزان الفعلية التي تدل على معنى المطاوعة في اللغات السامية. من ذلك في العربية:

١- انفعل مثل: كسرت الزجاج فانكسر.

٢- افتعل مثل: عدّلت الإشارة فاعتدلت.

٣- تفعّل مثل: كلمته فتكلّم.

٤- تفاعل مثل: راجعته فتراجع.

٥- استفعل مثل: أقمته فاستقام.

وللفعل المطاوع في اللغة العبرية ثلاثة أبنية هي:

١- **נִפְעַל**: مزيد بالنون للدلالة على البناء للمجهول من الثلاثي، والدلالة على المطاوعة، مثل **שָׁבַר וְנִשְׁבַּר** كسر فاكسر.

٢- **הִתְפַּעֵל**: مزيد بالمقطع المغلق في البداية **הִת** في أول الفعل مع تضعيف عينه، ويدل على المطاوعة مثل **הִרְחַקְתִּיו וְהִתְרַחֵק** = أبعدته فتباعد. ويقابله في العربية أحد الأوزان (افتعل- تفعّل- تفاعل).

٣- **הִתְפַּלְפֵּל**: هذا البناء من مزيد الرباعي، ويصاغ بزيادة المقطع المطلق **הִת** في أول الفعل الرباعي المجرد **פִּלְפֵּל**، ويطلق عليه أحيانا المضعف الرباعي.

وهناك ثلاثة أوزان مطاوعة في آرامية العهد القديم هي على النحو التالي

הִתְפַּעַל	من المعلوم	**פַּעֵל**	المضعف العين
הִתְפְּעֵל	من المعلوم	**פְּעַל**	المجرد الثلاثي
הִשְׁתַּפְעַל	من المعلوم	**שַׁפְעֵל**	

وهذه الأوزان الثلاثة هي أبنية تائية مبنية للمجهول وتدل على المطاوعة.

٢- مصطلح (القلب المكاني) ووزن افتعل.

من معاني الجذر (ق. ل. ب) في اللغة: تحويل الشيء عن وجهه كما جاء في المعجم الوسيط: «قلب الشيء قلبا: جعل أعلاه أسفله، أو يمينه شماله، أو باطنه ظاهره»(٢) وفي الاصطلاح: يدور القلب المكاني داخل الكلمة في فلك تقديم حرف وتأخير حرف آخر، كما في: (طمأن) بدلا من (طأمن).

وقد أطلق هذا النوع من القلب اسم «القلب المكاني» تمييزًا له عن القلب الصرفي الذي يراد به تبادل حروف العلة، ويتضح هذا من قول ابن يعيش:

«والبدل على ضربين: بدل هو إقامة حرف مقام حرف غيره نحو تـاء تخمـة وتكأة، وبدل: وهو قلب الحرف نفسه إلى حرف غيره على معنى إحالته إليـه، وهذا إنما يكون في حروف العلة التي هي الواو الياء والألف، وفي الهمزة أيضا لمقاربتها إياها وكثرة تغيرها[٣].

ويفهم من نص ابن يعيش أن مصطلح «القلب» من أكثر المصطلحات التي استعملت مرادفة للإبدال، وشاع لدى ابن جني استعمال لفظ (القلـب) كثيـرًا بمعنى الإبدال، ومما قاله «فإن فاء افتعل إذا كانت زايـا قلبـت التـاء دالا»[٤] وقال: «فإن فاء افتعل إذا كانت فاؤه ضادًا أو طاء أو ظاء يقلب طاء ألبتة لابد من ذلك»[٥].

كما يفهم منه أيضا أن «القلب المكاني» قصره اللغويون على ما يقع بـين حرفين صحيحين، كما أن القلب المكاني في مثل هذه الحالات يمكن تفسيره في إطار قانون «السهولة والتيسير» حتى يبدو لنا عند وجود الـصورتين (اتفعـل وافتعل) في لغة واحدة كالعربية يفسر لنا أن أسهل الصورتين في الاستعمال هي المقلوبة، فالإنسان بطبعه يميل إلى كل ما فيه يسر وبذل أقل مجهود عـضلي، ومن ثم شاعت الصورة المتطورة وهي صيغة (افتعل)، ونجد هذا فـي كلمـة (معلقة) التي حلت محل (ملعقة) في كثير من اللهجات العربية المعاصرة. ومن الواضح أن (ملعقة) هي الأصل، فالفعل الذي اشتقت منه (لعق) وليس (علـق). يقول الدكتور د/ ود عبده: «والقلب المكاني في وزن (اتفعـل) شـمل جميـع اللهجات العربية، ومنها المصرية، ولعلـه حـدث فـي العربيـة الأم (**proto Arabic**) أي التي تفرعت منها اللهجات العربية المختلفة»[٦]. وأغلب الظن أن ما نجده من أمثلة القلب المكاني يمكن رده إلى اختلاف اللهجات، وغالبا ما نجد الصورة الأصلية من الاستعمال تسير جنبا إلى جنب مـع المتطـورة عنهـا، فأصبحنا نستخدم (اطمأن) وهي الصورة المتطورة علـى حـساب الـصورة

الأصلية التي مانتها (طأمن)، فقد مات اللفظ الأصلي ولم يعد يشتق منه، بل يشتق من الفرع، كما في: يطمئن فهو مطمئن واطمئنان.

وما يسميه اللغويون العرب إبدالاً أو قلبا مكانيا في وزن «افتعل» يحصل في كثير من اللغات السامية، وقد تناوله علماء اللغة المحدثون تحت عنوان «المماثلة» والتي قسموها باعتبار درجة التغير إلى مماثلة جزئية حين يكتفي بإبدال حرف التاء، ومماثلة كلية حين يحدث إدغام المبدل من التاء فيما بعده نحو «اطرّد» «اضّرب» «اصّبر». ومن علماء اللغة المحدثين من اختار مصطلحا آخر هو «الانتقال المكاني» بدلا من «القلب المكاني»[٧].

٣- مصطلح (المماثلة) ووزن افتعل:-

ظاهرة المماثلة (**Assimilation**) هي التعديلات التكييفية للصوت اللغوي بسبب مجاورته لأصوات أخرى. وعرفها بعض علماء اللغة المحدثين بأنها: تحول الفونيمات (**phonems**) المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلا جزئيا أو كليا»[٨].

والمماثلة نوعان: تقدّمية (**progressive**) ورجعية (**regressive**). ففي الأول يتأثر الصوت الثاني بالأول، وهذا التأثر شائع في الإنجليزية، وموجود بقلة في العربية، والمماثلة الرجعية يتأثر فيها الصوت الأول بالثاني، وهذا التأثر شائع في الفرنسية والعربية.

والمماثلة ظاهرة صوتية شائعة في كل اللغات بصفة عامة، وكما تحدث بين الأصوات الصامتة تحدث كذلك بين الحركات، كما تحدث أيضا بين الأصوات الصامتة والحركات. وقد أفاض في الحديث عن المماثلة كل من علماء العربية القدامى والمحدثين، واعترفوا بأثرهما في التطور الصوتي، وهذا التطور هو إحدى نتائج نظرية السهولة التي نادى بها كثير من علماء اللغة المحدثين، ومن هؤلاء الدكتور إبراهيم أنيس الذي ذهب إلى أن «الأصوات في

تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها، ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج، ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة. وهذه الظاهرة شائعة في كل اللغات بصفة عامة، غير أن اللغات تختلف في نسبة التأثر وفي نوعه»[٩]. وقال أيضا: «تناول سيبويه في أكثر من موضع من كتابه ما يحدث من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض، وسمي هذه الظاهرة بالمضارعة كما سماها أيضا بالتقريب، وتناول كذلك ما سميناه بأقصى درجات التأثر بين المتجاورين، أي: الإدغام»[١٠].

وبعبارة مختصرة: قد يجتمع في الكلمة صوتان يتصف كل منهما بصفة تناقض صفة الآخر، كالجهر والهمس، والإطباق والانفتاح، وكان في تحقيق الصفتين للصوتين المتجاورين مشقة وعسر، مما يجعل المتكلم يميل إلى خلع صفة أحدهما على الآخر توفيرًا للجهد وتحقيقًا للانسجام، وإذا حدث هذا استطعنا أن نقول: يوجد تماثل بين الصوتين.

يقول أستاذنا الدكتور صلاح حسنين: «قد يتوالى الصوتان المتجانسان ويتحولان بسبب المماثلة إلى صوتين مثلين، ويتركز هذا التحويل في الأصوات الأسنانية واللثوية:

في الأكدية: تتماثل تاء صيغة الافتعال مع الصاد فينتج صادان (ص ص) نحو: **’astabat** ←——— **’assabat** = أخذ....

وفي كل اللغات السامية تدغم تاء الافتعال في أصوات الصفير والأصوات الأسنانية إذا كانت فاءً للكلمة، وقد حدث ذلك أولا في صيغة المضارع حيث تسقط فاء الكلمة: في العبرية:

mitdabber ←——— **middabber**: متعلم[١١].

وأخيرًا لابد من الإشارة إلى أن التطور الصوتي في باب المماثلة لو كان

يجري في اتجاه السهولة لوجب أن تكون أصوات اللغات اليوم كلها من نوع الميم والنون والفاء فقط، لأنها أسهل الأصوات. وسوف نسجل بالأمثلة وجود تطور صوتي من الأحيان في اتجاه الصعوبة لا السهولة. ولهذا ذهب «ديفيد ابر كرومبي» إلى أن «المماثلات ليست قهرية في كثير من اللغات، بما في ذلك الإنجليزية، فقد يتجنب المتكلم القيام بها، إذا ما رغب في ذلك. لكن عندما تتحقق تولد قدرًا من الاقتصاد في الجهد المتعلق بنطق سلسلة من الكلمات، سواء أكانت تقدمية أم رجعية»(١٢).

٤- التاء وتغيّراتها في صيغة «افتعل»:

تعدّ التاء أسهل الأصوات الأسنانية اللثوية، ولا يصعب على ناطق التلفظ بها، ونراها موجودة في سائر لغات البشر، ونعتقد أنها من المقاطع الأولى التي يتمكن الطفل من نطقها في مراحله الأولى.

فالتاء صوت أسناني لثوي مهموس شديد «انفجاري» منفتح هو نظير الدال المهموس. أي أنه ينطق بنفس الطريقة التي يتم بها نطق الدال، مع فارق واحد هو عدم إعمال الأوتار الصوتية في التاء، وتركها تهتز وتتذبذب مع صوت الدال. ولذلك يكثر في صيغة (افتعل) إبدال تاء الافتعال دالا حين تكون الفاء أحد الأحرف الثلاثة (الدال، الذال، الزاي).

كما أن «التاء» هي صوت مرقق، فهو نظير الطاء المفخمة، وكلاهما صوت شديد مهموس، ولا فرق بينهما إلا في مؤخرة اللسان، ترتفع نحو الطبق عند نطق الطاء، ولا ترتفع نحوه في نطق التاء. ولذلك يسهل إبدال تاء الافتعال طاء حين تكون الفاء أحد حروف الإطباق وهي (الصاد والضاد والطاء والظاء).

ومن الواضح أن «الطاء» التي تنطق بها اليوم هي التي تقابل التاء في

الترقيق والتفخيم، أما الطاء عند القدماء فهي صوت شديد مجهور مفخم عدّها سيبويه من الأصوات المجهورة، كما قال عنها: «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا» أي: أنها نظير الدال المفخم عند سيبويه، في حين أنها في نطقنا اليوم نظير التاء المفخم(١٣).

وواقع المقارنة بين اللغات السامية يثبت أن الطاء كما وصفها العلماء العرب من الأصوات المجهورة، ولكن الطاء العبرية تنطق كما تنطق الطاء في العربية المعاصرة، فهي صوت مهموس، ومازالت الطاء العبرية هي النظير للتاء المرققة، ويتضح ذلك في إبدال التاء طاء حين يتلوها أحد صوتي الإطباق وهما الصاد والطاء.

وقد ذهب بعض الباحثين في مجال المقارنات السامية إلى وجود فارق بين الطاء العربية والطاء العبرية في المخرج، معتمدًا على أن مخرج كل من التاء والدال والطاء واحد في العربية، أما العبرية فقد جعلت الطاء تخرج من ظهر اللسان عند التقائه باللثة، وذلك على عكس التاء التي تخرج من طرف اللسان عند التقائه باللثة(١٤).

ومن الواضح أن تاء الافتعال تظهر في صور صوتية مختلفة، فأحيانا تتغير فيها صفة واحدة كأن تصير مجهورة فتبدل دالا كما في (ازدهر)، وقد تصبح مطبقة فتتحول إلى طاء كما في (اضطراب). وقد يأتيها التغير الصوتي في صفتين كما في (اذّكر) فالتاء المهموسة الشديدة صارت ذاك مجهورة رخوة. وقد يصيب التغير المخرج والصفات معًا فيتجرد الحرف عن طبيعته تماما كما في: (اتصل) فقد تحولت الواو إلى تاء وكلاهما مختلف في المخرج والصفة.

ونخلص من ذلك إلى أن مورفيم المطاوعة المتمثل في تاء الافتعال يتشكل في ستة أشكال يحددها الصوت المجاور له كما يلي:

١- التاء	في مثل: افتتح	والثلاثي: فتح.
٢- الثاء	في مثل: اثّأر	والثلاثي: ثأر.
٣- الصاد	في مثل: اصبّر	والثلاثي: صبر.
٤- الطاء	في مثل: اطّلع	والثلاثي: طلع.
٥- الدال	في مثل: ازداد	والثلاثي: زاد.
٦- الظاء	في مثل: اظّلم	والثلاثي: ظلم.

ويبدو لنا هنا السبب الرئيسي وراء تنوع صوت «التاء» من خلال موقعه في الصيغة، والذي نرجح أنه في صدارة الصيغة التي أصلها (اتفعل) ولتجنب صعوبة نطق التاء مع ما يليها من أصوات مجهورة أو مطبقة حدث الإبدال الصوتي والقلب المكاني رعاية لأصوات الصفير أولا، ثم جعل التقديم والتأخير مطردًا في كل أصوات العربية. ولعلّ ما يعزز ذلك ما نجده في العامية المصرية من ألفاظ واردة في باب (افتعل)، ولكنها تنطق على الأصل القديم نحو: اتلوى، اتعمى، اتكوى، اتهرى.. إلخ.

المبحث الثاني

أصل صيغة (افتعل) لدى علماء الساميات

سنحاول هنا إلقاء الضوء على فكر علماء الساميات إزاء صيغة (افتعـل) وهل هي نتيجة القلب المكاني، فأصلها (اتفعل)، ولماذا وردت التاء حشوًا في العربية في جميع الأمثلة التي صيغت على وزن (افتعل) مع أن سائر صيغ المطاوعة التائية بدأت بالتاء، وهي (تفعّل، تفاعل، تفعلل). ويهمنا هنا أن نذكر في إيجاز ثلاثة احتمالات حول أصل صيغة (افتعل) قبل أن نعرض ما قاله علماء الساميات.

الاحتمال الأول: وجود الصيغتين (اتفعل) و(افتعل) من زمن قديم، وحدث أن الصيغة الأولى انقرضت، وشاعت الصيغة الثانية المستخدمة في العربية الفصحى، وما نجده في اللهجات العربية الحديثة من استخدام للصيغة المنقرضة (اتفعل) إنما هو من الركام اللغوي الذي بقي ليعين على معرفة الأصل القديم.

الاحتمال الثاني: صيغة (اتفعل) وافدة من الآرامية إلى العربية ويدعم هذا الاحتمال عدم وجود نصوص عربية فصيحة ورد فيها استخدام هذه الصيغة.

الاحتمال الثالث: الأصل القديم هو «اتْفَعَل» وهو من المشترك السامي القديم، الموجود في أخوات العربية، وحدث فيه قلب مكاني فصار (افتعل) بفعل قانون نطلق عليه قانون الأصوات الصفيرية الذي بدأ مع أصوات الصفير والتفشي، ثم تمّ تعميمه في جميع أمثلة هذه الصيغة في العربية.

ومن وسائل التوصل إلى الحقيقة اللغوية التاريخية في هذه الصيغة طريقة المقارنة بين العربية وأخواتها، وكما يقول الدكتور رمضان عبد التواب: «.. سر تقدّم المستشرقين في دراستهم للغة العربية، ووصولهم فيها إلى أحكام لم

د- أما الصيغة المضعفة الدالة على المطاوعة على نحو دخول ta على فعّل فهي تظهر في صورتها الأصلية في العربية والحبشية، كما في «تقتّل»العربية وفي الحبشية **takattala**. ولم توجد هذه الصورة الأصلية في العبرية والآرامية وإنما اشتقا ماضيا جديدًا من المضارع كما نجد ذلك في العبرية في مثل: הִתְקַטֵּל، ومثل: **etpakkad**' في الآرامية.

٢- ذهب المستشرق الألماني «برجشتراسر» إلى أن بناء الافتعال دخله التقديم والتأخير بسبب تجنب صعوبة النطق الناشئة من تجاور بعض الأصوات، قال: «والافتعال تاؤه في العربية دائمًا تالية لفاء الفعل، وكانت في الأصل سابقة لها، كما هي في الآرامية نحو: **etkri**' أي: اقترأ، يعني: قُرِئ، لكنها كانت تؤخر بعد فاء الفعل، إذا كانت هي واحدًا من حروف الصفير، نحو: **eštma**'' أي: استُمع، يعني: سُمع. وعلى هذا القياس أخرت العرب التاء في سائر الأفعال أيضا»[١٩].

ومما قاله أيضا في هذا الشأن: «ومن أبنية الفعل ما يتبدئ ماضيه وأمره بهمزة الوصل، وبعدها حرف ساكن، وهي: افتعل، واستفعل، وانفعل، وافعلّ، ونظائرها. فالعربية في ذلك متوسطة بين الحبشة وبين سائر اللغات السامية، فإنا نرى أن الحبشية لا يوجد فيها حرف ساكن ابتداء، إلا في الاستفعال، نحو: **astar'aya**' أي: استرأي يعني أرى، أو أظهر. وافتعل يقابلها فيها مثلا: **tawalda** أي: اتلد، يعني: وُلد. واللغات السامية الشمالية على ضد ذلك، فيماثل التفعل فيها الافتعال في وجود الساكن فيها ابتداء، مثلا: **hitkaddēš** بالعبرية، والهاء تنوب عن همزة الوصل، **etkaddaš**' في الآرامية، أي: تقدّس»[٢٠].

ولا بأس هنا أن نعقب تعقيبًا سريعًا على ما قاله «برجشتراسر»

أ- إن تبرير «برجشتراسر» للأصل القديم «اتفعل» بوجوده في الآرامية ليس مقنعا من عدة وجوه:

- إن التاء سبقت فاء الفعل في ثلاث لغات هي العبرية، والسريانية والحبشية، في حين أنها جاءت بعد فاء الفعل في أربع لغات من أقدم اللغات تاريخا وهي: العبرية، والأكادية، والأوجريتية والمؤابية.

ب- ومما هو جدير بالذكر أن اللغة الآرامية على الرغم من قدمها التاريخي تبدو وكأنها أكثر حداثة من اللغة العربية التي احتفظت بخصائص اللغة الأم، على الرغم من حداثتها في التاريخ، وهذا ما اتفق عليه المحققون من علماء الساميات، ومنهم «برجشتراسر» نفسه في كتابه «التطور النحوي للغة العربية»[٢١].

ج- إن الذي دفع «برجشتراسر» إلى أن يتعصب للآرامية فيما يقول ما ذكره عن حروف الصفير حين قال: «إن تبادل بعض حروف الصفير في اللغة العربية وقع في طور تعريب الكلمات الآرامية الموجودة في اللغة العربية، منذ أقدم زمان، وأما نفس هذا التعريب فهو أيضا لا يمكن أن يؤرخ إلا تأريخا نسبيا، وذلك أنا نعلم أن العرب جاورت الآراميين وخالطتهم، منذ حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، فهذا وقت ابتداء لاستعارة الكلمات الآرامية»[٢٢].

د- أضاف «برجشتراسر» أن صيغتي التفعل والافتعال يتماثلان في وجود الساكن ابتداء، كما أن الصيغة العبرية وكذلك الآرامية ركزّ في بيانها بدلالتها على البناء للمجهول، وهذا لا يقارن بصيغة (افتعل) العربية التي تدل على معاني متعددة تضاف إلى المطاوعة منها الاتخاذ مثل: اختتدم أي: اتخذ له خادمًا، والمشاركة مثل: اختصم محمد وعمرو.

٣- أما «موسكاتي» وزملاؤه- شبتالر، ولندورف، فون زودن- فقد بدأ حديثه عن الصيغة العربية بالكلام عن اللغة الآرامية فالحبشية وختم بالعربية، قال: «تزاد التاء في الجذر البسيط في اللغات الآرامية (مثلا: السريانية **’etqitel**

قتل، الجذر qtl)، وفي الأثيوبية (نحـو: ta'asra «أيـسر»، الجـذر st').
وتتبادل التاء الموضع مع الحرف الأصلي الأول، فتكون حشوًا في اللغـات الأخرى التي ثبت وجودها: في الأكدية (نحو: mithuru «التقـاء، الجـذر mnr)، وفي الأوغاريتية (نحو: yrths «يرتحص» الجذر rhs)، وفي الفينقية (نحو thtpk ت هـ ت ب ك «مسقطة»، الجذر: hpk هـ ب ك)، وفـي المؤابية (lthm' التحم، الجذر lhm كالعربية «التحتم»)، وفي العربية (نحو: اقتتل، الجذر قتل»[٢٣].

ونراه تحدث عن الجذر المضعف الثاني فقال: «وفـي الجـذر الأصـلي المضعف الثاني تتبادل التاء والساكن الأول موضعيهما فـي الأكديـة فقط: (نحو: uštallamu «يَسلّمون» الجذرšlm). وفي العبرية، وفـي آراميـة الكتاب المقدس تزاد على التاء هاء قبلها في تصريف اللواحق، ربما على قياس السببي مع الهاء في الصدر: العبرية hitqaddeš «قدّس نفـسه» الجـذر qdš، وآرامية الكتاب المقدس hitnaddabū «انتدبوا»، والجذر ndd. وأمثلة في لغات أخرى في السريانية 'ethassan «تحصّن» وفي العربية: تكـسّر takassara، وفي الأثيوبية: taqaddasa تقدّس، تطهّر. والظاهرة الملحوظة فـي العبريـة والآرامية هي القلب المكاني للتاء المزيدة في الصدر قبل احتكائي أسـناني أو احتكاكي شجري لثوي.. والتاء المزيدة في الصدر ينتج عنها جذر جديد فـي العربية والأثيوبية حينما توصل بالجذر مع تطويل صوت المدّ الأول، مثلا في العربية: تقاتلوا، والجذر: قتل. وفي الأثيوبية tamasalū والجذر: msl»[٢٤].

وليس يخفي على القارئ العربي انطلاق موسكاتي وزملائه في حـديثهم عن الصيغة من اللغة الآرامية فالحبشية، ولكنهم للإنصاف العلمي ركزوا على وجود التاء حشوا في لغات عديدة هـي الأكديـة، والأوغاريتيـة، والفينقيـة والمؤابية، وأخيرًا العربية.

٤- لقد تحدث المستشرق الفرنسي «هنري فليش» عن صيغة (افتعل) وذكر فيها أن «الصيغة الثامنة: افتعل يفتعل، وهي في صورتها الأولى كانت تحتوي تاء «t» على الوجه الآتي:

يَتَفَعل ←—— يَتْفَعِل > yatfa'ila   yatafa'ilu

فإذا حدث أن كان الصامت الأول من الجذر الأول صوت صفير أو صوتا (متفشيا) هو الشين، نتج من ذلك تتابع ثقيل في العربية، وذلك كأن تأخذ من الصيغة الأولى للفعل: سند (وفيه صوت صفيري) صيغة يتسند، وقد قلبت اللغة صوامته هكذا: يستند إلى. ومن هذه الأفعال الكثيرة انتقلت ظاهرة القلب المكاني إلى الأفعال الأخرى التي تحتوي هذا النوع من الأصوات في صوامتها الأولى الأصلية»(٢٥).

لقد أكد «هنري فليش» أن الأصل القديم «اتفعل» بتركيزه على جانب مهم في الدراسات الصوتية، وهو تتابع الأصوات في الكلمة الواحدة، والذي تحدده البنية المقطعية، فقد أشار إلى أن الصيغة الأولى هي (يتفعل)، وهذه مكونة من مقاطع قصيرة مفتوحة، وهذا أمر لم تألفه اللغات السامية، لذلك لجأت إلى تسكين التاء، لتكوّن مقطعا مع ألف الوصل (اتْفعل)، وهي الطريقة التي تم بها بناء صيغة (انفعل).

ثم حدث القلب المكاني في البداية مع أصوات الصفير والتفشي

يَتْسَنِد ←—— يَسْتَند ←—— سْتَند ←—— استند

يَتْفعل ←—— يفْتعل ←—— فْتعل ←—— افتعل

ثم عمم هذا القلب مع جميع الأصوات في بناء صيغة (افتعل) في العربية.

٥- أثبتت بحوث المستشرقين في القرن العشريين تمسكهم بالأصل القديم (اتفعل) في العربية، ومن هؤلاء المستشرق الألماني «أوجست برتش» وفيما ذكره في كتابه «موجز قواعد اللغة العبرية» عام ١٩٨٨م، قال فيه: «إن تاء الافتعال تتأخر لتتقدم فاء الفعل- التي هي من أصوات الصفير- عن طريق القلب المكاني הִשְׁתַּמֵּר «احترس» (من שָׁמַר) הִסְתַּתֵּר «استتر» (من סָתַר). وجليّ أن العربية قد عممت هذا القلب المكاني، إذ هو موجود مع أصوات الصفير وغيرها: اقتتل»[٢٦].

٦- تحدث الدكتور رمضان عبد التواب عن القلب المكاني في صيغة (اتفعل) وتبنى رأي «بروكلمان»، وشرح كلامه في كتابه (المدخل إلى علم اللغة) وانتهى إلى أن «القاعدة السامية العامة تقول بالقلب المكاني بين تاء الافتعال وفاء الفعل إذا كانت هذه الفاء من أصوات الصفير... هذه هي القاعدة العامة في اللغات السامية. وقد قاست العربية والأشورية الأفعال التي فاؤها ليست صوت صفير، على تلك التي فاؤها كذلك، فيقال في العربية «اقتتل» و«اعتزم»، كما يقال في الأشورية **ibtana** "ابتنى"»[٢٧].

٧- وممن تحمسّ إلى مسألة «القلب المكاني» في وزن «افتعل» الدكتور داود عبده في كتابه «دراسات في علم أصوات العربية» قال: «... لو لم يكن الأصل في صيغة (افتعل) (اتفعل) لأصبحت (ازتهر) مثلا: (استهر) أي لتغيرت الزاي في مماثلة للتاء فأصبحت سينا (زايا غير مجهورة) كما في (فزتم)، وبقيت التاء على حالها، ولأصبحت (ادتعى): (اتّعى) إلخ. ولكن ما حدث هو العكس، كما هو معروف، مما يشير إلى أن أصل الفعلين السابقين هو (اتزهر) و(اتدعى)، وأن المماثلة حدثت قبل أن يحدث القلب المكاني بين التاء في وزن افتعل وفاء الفعل

١- اتزهر ←—— ادزهر

٢- اذزهر ←—— ازدهر

والقلب المكاني في وزن (اتفعل) شمل جميع اللهجات العربية، ومنها المصرية، ولعله حدث في العربية الأم (proto Arabic)، أي: اللغة التي تفرعت منها اللهجات العربية المختلفة»[٢٨].

وأكد رأيه في كتابه «أبحاث في اللغة العربية فقال: «إن وزن (افتعل) قد نتج عن (اتفعل) بحدوث قلب مكاني بين التاء وفاء الفعل، من هذه الأسباب ما يعتمد على المقارنة باللغات السامية، ومنها ما يعتمد على التحليل اللغوي الداخلي، وقد ذكرنا من الأخيرة سببا يتعلق بقانون المماثلة... وهكذا نستنتج أن أصل «افتعل» هو «اتفعل» وأن المماثلة حدثت أولا، ثم حدث القلب المكاني:

«اتزهر» ←—— «ادزهر» ←—— «ازدهر»

وإلا كانت هذه الكلمة «استهر» وكانت «ادّعى» مثلا: «اتّعي»[٢٩].

٨- أستاذنا الدكتور صلاح حسنين تبني فكرة القلب المكاني في وزن (افتعل) وظهر ذلك واضحًا في أمثلته التي توضح ظاهرة المماثلة في اللغات السامية، ومما قاله: «في العربية والعبرية والآرامية تتأثر تاء الافتعال بأصوات الصفير المفخمة التي تبادلت معها الأمكنة فتقلب تاء:

ات صبغ ←—— ا ص تَ بَ غ ←—— اصطبغ

ات ضجع ←—— ا ض ت ج ع ←—— اضطجع»[٣٠].

وقال أيضا: «تبادل تاء الافتعال مع فاء الفعل عندما يكون صوتا من أصوات الصفير. أمثلة:

ز ←—— زهر ←—— ا ت زهر ←—— ادزهر ←—— ازدهر

س ←—— سلم ←—— ا ت سلم ←—— استلم

ص ←— صبر ←—— ا ت صبر ←—— اطصبر ←—— اصطبر

ش ←— شجر ←—— ا ت شجر ←—— اشتجر»[٣١].

ومهما يكن من أمر فإن المحققين من علماء الساميات قد أجمعوا على أن الأصل التاريخي للصيغة هو (اتفعل) وحدث في مرحلة زمنية قبل تكوين العربية الفصحى القلب المكاني بسبب القاعدة الصفيرية فصارت (افتعل) التي هي مستخدمة في العربية الفصحى وبها نزل القرآن الكريم.

* *

المبحث الثالث

التحليل اللغوي الداخلي لصيغة (افتعل) في العربية

نظام الصرف العربي لا يخلو من مسائل خاصة تتصل بصيغة (افتعل) لأن بعض صورها المكتوبة لا تتفق مع ميزانها الصرفي، وبخاصة حين تبدل التاء طاءً أو تبدل دالاً، وتزداد المسألة صعوبة حين يتم الإدغام كما في «اصبّر» «اطّهر»، ففكرة الميزان الصرفي تقوم على أساس التمييز بين الحروف الأصول الممثلة في الميزان الصرفي بالفاء والعين واللام، وبين ما يطرأ على الكلمة من إضافة أو حذف. وبناء على ذلك ما يزاد على الحروف الأصول ينزل كما هو في الميزان، ولكن في هذه الصيغة (افتعل) لا تظهر الطاء، أو الظاء، أو الدال، أو الذال، أو الضاد أحيانا.

والمسألة **الثانية** التي يجب أن نتوقف عندها وهي ان الصرفيين العرب يصرّون في تحليلاتهم الصرفية لهذه الصيغة على أن التاء تدغم فيما قبلها، وهذا عكس ما تقرره القاعدة، وهي أن الأصل في الإدغام أن يجعل الأول من جنس الآخر.

أما **المسألة الثالثة** فهي أن معظم الدراسات القديمة والحديثة لم تركز في تناول صيغة (افتعل) على الصوائت، بقدر حرصها على إظهار أثر تجاور الأصوات، لذلك لا نجد التنافر الصوتي يحدث من سكون التاء وبعدها فاء الفعل (اتفعل) دون فاصل بينها بحركة مثلا، وبسبب ثقل النطق تبدل الدال حرفا يناسب فاء الكلمة.

ومن أجل التخلص من ثقل النطق الذي يحدث نتيجة تجاور التاء مع ما يناقضها في الصفات أنه يحدث كثيرًا الإدغام بإدماج حرفين في بعضها وفي الحقيقة لا يحصل الإدغام مباشرة وإنما تأتي عقب الإبدال للتاء وبالتالي يظهر

ـت الإدغام في اختصار كتابي للكلمة، في حين أن النطق للصوت المدغم يوزع على مقطعين أولهما يقفل مقطعـا، والآخـر يبتـدئ مقطعـا جديـدًا. يقـول «بروكلمان»: «ومثل هذا التضعيف في اللغات السامية هو وسيلة لبناء الكلمات، أو نتيجة للماثلة الصوتية»(٣٢).

ونحن بدورنا سنركز على صوت «التاء» في هذه الـصيغة فهـي أكثـر أصواتها تعرضًا للتطور الصوتي، كما أنها تمثل القاسـم المـشترك بالنـسبة لظاهرة القلب المكاني مع الفاء، والمماثلة بنوعيها مع الصوت المجاور لها.

وسنركز هنا في حديثنا عن أمور ثلاثة:

١- التاء المزيدة في صدر الجذر الثلاثي.

٢- التاء المزيدة في حشو الجذر الثلاثي.

٣- بناء (افتعل) والمماثلة.

أولاً: التاء المزيدة في صدر الجذر الثلاثي:

أصل صيغة (افتعل) كما نص على ذلك المحققون من علماء الساميات هو «اتفعل»، ثم حدث القلب المكاني في مرحلة زمنية متأخرة بسبب سياق صوتي معين، وعمم هذا القلب مع جميع الأصوات بعد أن كان قاصرًا من قبل علـى الأصوات الصفيرية، طردًا للباب على وتيرة واحدة، فصارت الصيغة (افتعـل) لها قوة القانون الذي لا ينكسر ولا يتخلف في العربية.

وإذا صحّ هذا التفسير الصوتي فإن الميل نحو سهولة اللفظ قد يكون أحـد العوامل التي تؤدي إلى القلب المكاني في صيغة (افتعل) التي كانت (اتفعـل). ولكن سيبقى السؤال: لماذا عدلت العاميات المصرية من (افتعل) فـي العربيـة الفصحى إلى (اتفعل)؟ مع أن العرب إذا تركت صيغة لم تعد إليها مرة أخـرى

على هذا النحو من الشيوع، كاللجوء مثلا إلى الإعلال في (قال) و(باع) فقد عدل عن أصلها (قَوَل) و(بَيَع) لطلب الخفة، ولم يعد هذا الأصل يستعمل لثقله[٣٣].

السبب الذي يمكن أن نقبله هنا هو أن اللسان تعوّد على ذكر أحرف الزيادة في الأفعال المزيدة قبل فاء الفعل كما في الصيغ الصرفية (أفعل) على طريقة الزيادة أولا، ووراء ذلك أيضا ما نجده من سهولة في نطق التاء، ومن السهل التلفظ به أولا حتى بالنسبة للأطفال.

يقول الدكتور داود عبده:«والقلب المكاني في وزن (اتفعل) شمل جميع اللهجات العربية، ومنها المصرية، ولعله حدث في العربية الأم، أي: اللغة التي تفرعت منها اللهجات العربية المختلفة. »واللغة العربية حين تعود إلى أصل قديم لديها هنا ليست بدعا بين اللغات التي تتطور وتتغير بفعل الزمن على ألسنة المتكلمين بها. ومثل هذا التطور الذي نجده في صيغة (افتعل) نلمحه في كثير من الظواهر اللغوية القديمة التي نطقت بها العاميات في وقتنا الحاضر، منها اسم الموصول العام (اللي)، ولغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) التي عادت في العاميات بعد أن ظهرت في العربية الفصحى في صورة بقايا قديمة.

وقد افترض الدكتور عبد الرحمن أيوب تفسيرًا آخر لوزن (اتفعل) في العامية المصرية، بعيدًا عن التفسير السابق القائم على التطور الصوتي التاريخي الذي اعتمدناه، فقد ذهب إلى أن وزن (اتفعل) حل محل وزن آخر يدل على البناء للمجهول وهو وزن (انفعل)، وقد أدى ذلك إلى إحلال الوزن المزيد بالتاء محل الوزن المزيد بالنون. قال: «حدث في المصرية بالنسبة للوزن الأخير- افتعل- قلب مكاني، فأصبح حرف التاء الزائد سابقا على الأصل الأول الكلمة، بينما هو في العربية الفصحى غير سابق عليه ومثال ما يحدث في المصرية:

اتفأع	في العربية	افتقع
اتشهر	في العربية	اشتهر
اتجضع	في العربية	اضطجع
اتعدل	في العربية	اعتدل
اتمنع	في العربية	امتنع

أما السبب في تقدم التاء الزائدة على الأصل الأول من أصول الكلمة فإننا نوضحه كما يلي:-

هناك تناظر بين وزن (اتفعل) ووزن (افتعل) فكلاهما يدل على معنى ووزن مبني للمجهول، وقد أثر هذا التناظر الدلالي في حلول الوزن ذي التاء الزائدة محل الوزن ذي النون الزائدة في بعض الأمثلة المصرية. ومثال ذلك انكسر واتكسر، وانعدل واتعدل. وقد يفضي هذا في النهاية إلى الاكتفاء بأحد الوزنين من الآخر. ومن أجل هذا التشابه الدلالي قيس وزن (افتعل) على (انفعل) فتقدمت التاء الزائدة كما تتقدم النون على الأصل الأول»[٣٤].

استبان لنا فيما سبق أننا نرجح اتفاق العاميات مع أصل قديم هو (اتفعل)، وليس المبرر أو المسوغ لعودة (اتفعل) واستخدامها هو التناظر أو التشابه الدلالي بين (انفعل) و(اتفعل) فمازالت كلمات عديدة ننطقها في العاميات لم يحدث لها هذا التناظر من ذلك (اعتمد) لم نقل فيها (اتعمد) ولا (اتنخب) بدلا من: (انتخب). ولكننا نستطيع أن نقول: هناك أفعال هي من وزن (انفعل) نطقتها بعض اللهجات العربية بالتاء بدلا من النون كما في قولنا: (اتكسر) فهو تحريف لـ(انكسر) وليس إبدالا لـ(اكتسر) التي ليس لها استعمال في العربية

الفصحى بمعنى المطاوعة. ويبدو أن النطق اتجه إلى استعمال (افتعل) التي حلت محل (انفعل) في بعض اللهجات العربية، وأصبح سائدًا فيها.

ثانيًا : التاء المزيدة في حشو الجذر الثلاثي:

لم يخل الدرس الصوتي العربي من إشارات ذكية نضعها في إطار ما يسمى في علم اللغة الحديث بالدرس الفونولوجي، ولعل من أبرز هذه الإشارات:

- العلاقات الصوتية بين الأصوات المتجاورة فيما عرف بالانسجام الصوتي من تأثير الأصوات بعضها ببعض في صيغة (افتعل) بزيادة التاء بعد فاء الفعل في اللغة العربية، في مثل: ابتكر، ابتسم، اجتمع، احترم، اخترق، اعتمد، اغتمّ، اقتتل، افتتح، التحم، امتنع، انتصر، اهتز، اكتسب، استند.

فمن الواضح في الأمثلة السابقة أن الحروف التي مثلت فاء الفعل هنا ليست من مخرج وصفات التاء، فلذلك لم يحدث تنافر بينها وبين التاء. فالتنافر الصوتي عند البلاغيين واللغويين وراءه قرب مخارج الحروف، كالحاء والعين مثلا فلم يأتلفا في كلمة واحدة، وكذلك القاف والكاف إلا بحواجز بينها. من ثم صارت الكلمات التي يجتمع فيها حرفان متقاربان في المخرج، وهما متتاليان، أصولاً مستثقلة، يعدل عنها غالبا إلى فروع ينتفي فيها الاستثقال، وهذا ما سنجده في كلمات مثل: (ادتان) من (دان) و(اطتلب) من طلب). وأدى الاستثقال هنا إلى إبدال التاء دالا فقيل: (ادّان) وإبدال التاء طاء فقيل: اطّلب. وهذا يؤكده الإدغام الصوتي التي يعقب الإبدال، وجميع الأصوات التي تدغم فيها التاء إما من درجتها مثل الذال والتاء، وإما أعلى من درجتها مثل: الطاء والظاء والدال والزاي والصاد والضاد، وكلها أصوات متقاربة مع التاء في المخرج أو متحدة معها.

وقد توصل الدكتور «محمد حماد» إلى أن «أصول الأفعال في العربية الجنوبية هي أصول الأفعال في العربية الباقية، الأمر الذي يؤكد أنهما مجرد مرحلتين للغة واحدة. ويمكن التمثيل للأوزان أو الصيغ التالية:

- (تْفَعَل): تْقَدَم (قدم) تْصَوَر (صور).

وقد حدث لهذا الوزن تطور، وذلك بتقديم فاء الفعل على التاء الزائدة فصار: (فْتَعَل)، ومثاله: (قْتَدَم). وننبه إلى أن هذا الوزن هو الذي بقي في العربية الفصحى بعد زيادة همزة الوصل للتخلص من الابتداء فصار الوزن (افتعل)»[٣٥].

لقد عالج الصرفيون صيغة (افتعل) في دراستهم للإعلال والإبدال والواقع أن منهج الصرفيين العرب في هذه المعالجة يتفق مع أحدث مناهج البحث اللغوي المعاصر، وهو المنهج التحويلي- التوليدي، الذي يؤمن بأن للبحث اللغوي وجهين: تفسيري ووصفي، واستطاعوا من خلال هذه الدراسة الوقوف على أصول الصيغ المتعددة لوزن (افتعل). ولذلك انصرفوا عن البحث عن أصل (افتعل)، لأنهم لم يجدوا فيما يفسرون ويصفون صيغا بدأت بالمقطع الصوتي (ات)، وإنما وقفوا على التاء الزائدة بعد فاء الفعل في صور متعددة، منها التي لم يدخلها المماثلة ولا الإدغام نحو: اشتعل، استلم، ابتسم، احترم.. إلخ.

ثالثًا : بناء (افتعل) والمماثلة:

تعني «المماثلة» عملية إحلال صوت محل صوت آخر تحت تأثير صوت مجاور له في الكلمة. ويحدث هذا كثيرًا في صيغة (افتعل)؛ إذ إن الفاء ساكنة وبعدها التاء الزائدة ليس بينهما فاصل كحركة أو غيرها. وحين تكون الفاء في صفاتها تناقض التاء ثقل النطق الدقيق لفاء الكلمة والتاء معًا، فيتخلصون من هذا الثقل بإبدال التاء حرفا يناسب فاء الكلمة. وقد يتبع الإبدال إدغام الحرف

الأول في الذي يليه كأن يكونا مثلين أو متقاربين، فيكون بذلك الإدغام هدفه التخفيف لا الثقل في النطق فكما يقول سيبويه: «... وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد، ثم يعودوا له، فلما صار تعبا عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة، كرهوه وأدغموا، لتكون رفعة واحدة، وكان أخفّ على ألسنتهم مما ذكرت لك»(٣٦).

يشير نص سيبويه على أن اللغة العربية تلجأ إلى الإدغام لتخفيف نطق المثلين أو المتقاربين، ففيهما استعمال اللسان من موضع واحد مرتين من خلال تتابع نطق الحرفين، وهذا مكروه لدى العرب لذلك لجأوا إلى الإدغام الذي يرتفع معه اللسان مرة واحدة، فيكن الإدغام هنا للتخفيف.

ويكون ذلك الإدغام بإدخال الحرف الأول في الآخر، وهذا هو الأصل في باب الإدغام. هذه الصورة من الإدغام تتمشى مع اتجاه المماثلة في الفونولوجيا العربية، فالمماثلة رجعية أساسًا لا تقدمية. ومن النادر وجود ما يسمى بالمماثلة التقدمية بأن يتحول الصوت الثاني إلى مماثل للأول بتأثيره ثم يدغم فيه. وسوف في نحسم هذه المسألة إذا اعتمدنا في حديثنا هنا أن الأصل (اتفعل) بتقديم التاء التي تتعرض للمماثلة والإدغام فيما بعدها.

١- تاء (افتعل) مع التاء:

يجب إدغام التاء المزيدة في فاء الفعل، وحينئذ يتطلب الإدغام سكون الحرف الأول منه؛ لذلك جئ بألف الوصل فقيل: اتّبع، وهو إدغام واجب لسكون أول المثلين وتحرك الثاني، وأصله: اتْتَبَع.

٢- تاء (افتعل) مع الثاء:

تجتمع التاء والثاء، وهما مهموسان، في الأصل المرفوض استعمالا، وهو(اتثأر) والتاء تقتضي الشدة أو الانفجار، والنطق بالثاء يقتضي الصفير، فكان لابد من اتحاد الصوتين بالإدغام من باب اليسر والاقتصاد في المجهود

العضلي فقيل: اثّار. وهذا هو الاستخدام الشائع في العربية الفصحى، فكما يقول سيبويه: «وقال ناس كثير: (مُثَّرِد) في (مثترد) إذ كانا من حيز واحد، وفي حرف واحد»[٣٧].

وذكر سيبويه أوجها أخرى في إدغام الصيغة، قال: «من ذلك قولهم في (مثترد): (مُثَّرد) لأنها متقاربان مهموسان. والبيان حسن. وبعضهم يقول: (مُثَّرِد)، وهي عربية جيدة، والقياس: (متّرِد)؛ لأن أصل الإدغام أن يدغم الأول في الآخر»[٣٨].

نحن إذن أمام ثلاث حالات لنطق تاء افتعل مع الثاء التي وقعت فاء الفعل، هي:

١- (مثترد): وهي عربية جيدة.

٢- (مُثَّرد): وبيانه أن التاء أدغمت في الثاء التي هي بدل من التاء بعدها، وهذا مطابق للمماثلة الرجعية، ولأصل الإدغام.

٣- (مُتَّرد) وهذا هو القياس، ورآه ابن جني المشهور في الاستعمال قال: «قولهم في (افتعل) من الثأر: (اثّأر)، وفي (افتعل) من (ثني): (اتّنى). هذا هو المشهور في الاستعمال، وهو أيضا القياس»[٣٩].

هذا الوجه الثالث يتفق مع الصيغة العربية على وزن (افتعل)
ثأر ← اثتأر ← اثتأر ← اتتأر ← اتّأر.

ولابد أن يكون هذا التطور الصوتي حسب قاعدة الإدغام أن يدخل الأول في الثاني بأن أبدلت الثاء تاء وأدغمت التاء في التاء. ويبدو أن هذا الوجه هو القديم المنسوب إلى بعض القبائل البدوية التي تؤثر صوت التاء الذي فيه عنصر الانفجار الذي يتسق مع سرعة الأداء والاقتصاد في الجهد العضلي يقول الفراء: «وسمعت بعض بني أسد يقول: (قدا تّغر)»[٤٠].

٣- تاء (افتعل) مع الدال:

يهتز الوتران الصوتيان بشدة عند نطق الدال، ولا يستقيم هذا مع نطق التاء التي هي مهموسة، لا يهتز معها الوتران الصوتيان، ولذلك نجد صعوبة بين الصوتين، فتكون المماثلة بإبدال التاء دالا، وإدغام الدال في الدال، مثل: ادّعى، ادّرك، ادّهن.

قال سيبويه: «وكذلك الدال، وذلك قولك ادّانوا من الدين لأنه قد يجوز فيه البيان في الانفصال على ما ذكرنا من الثقل، وهو بعد حرف مجهور، فلما صار ههنا لم يكن له سبيل أن يفرد من التاء كما يفرد في الانفصال فيكون بعد الدال غيرها، كما كرهوا أن يكون بعد الطاء غير الطاء من الحروف فكرهوا أن يذهب جهر الدال، كما كرهوا ذلك في الذال»[٤١].

ولقد ظهرت هنا مخالفة الإدغام لقاعدته الأصلية التي تتطلب فناء الحرف الأول في الثاني، والقياس على النحو التالي

دعا ← ادتعي ← اتّعي بفناء الدال في التاء. يقول الدكتور تمام حسان عن نظام الإدغام: «إن النظام قد يصادف مشاكل في تطبيقه حين يتعارض مع مطالب السياق، فالتعارض بين قواعد النظام ومطالب السياق أمر مألوف في اللغات جميعا، وهو مألوف في اللغة العربية أيضًا، ولقد مثلنا من قبل بالتقاء الدال الساكنة والتاء بعدها، فالنظام يقول: إن الدال الساكنة مجهورة وينبغي أن تظل كذلك باطراء، ولكن السياق الذي جاء بعدها بالتاء له مطالب في هذا الموقع تتعارض مع قاعدة النظام، فالسياق هنا يتطلب الإدغام الذي يصيّر الدال الساكنة وبعدها التاء على صورة تاء مشدّدة»[٤٢].

وهكذا يكون القلب المكاني في صيغة (افتعل) إلى (اتفعل) هو الذي يستقيم مع قاعدة الإدغام هنا على النحو التالي:

دعا ⟵ اتدعي ⟵ اددعي ⟵ ادّعى

٤- تاء (افتعل) مع الذال:

تتأثر تاء افتعل بالذال المجاورة لها، ونطقها العرب بطرق ثلاثة:

- الإظهار مع القلب اتذكر ⟵ اتنكر
- المماثلة الرجعية اتذكر ⟵ اذذكر ⟵ اذّكر
- المماثلة التقدمية اتذكر ⟵ ادذكر ⟵ ادكّر

ويبدو لنا سيبويه لم يجز الوجه الأول، وهو إبدال التاء دالاً مع بقاء الذال على طبيعتها، قال سيبويه: «وكذلك تبدل الذال من مكان التاء، أشبه الحروف بها، لأنهما إذا كانتا في حرف واحد لزم ألا يُبَيَّنا، إذ كانا يدغمان منفصلين، فكرهوا هذا الإجحاف وليكون الإدغام في حرف مثله في الجهر، وذلك قولك (مدّكر) كقولك (مطّلم). ومن قال (مظّعن) قال (مذّكر)، وقد سمعناهم يقولون ذلك والأخرى في القرآن، في قوله: (فهل من مدّكر). وإنما منهم من أن يقولوا: (مُذدكر)، كما قالوا: (مزدان)»[٤٣].

ويفهم مما سبق وجود وجهين واردين على ألسنة العرب، وانعدم الوجه الثالث المحتمل (اذتكر) الذي فيه بيان التاء وعدم إدغامها وإنما المستعمل (اذّكر) و(ادّكر)، وقد أشار «رابين» فأظهر الراجح منها فقال: «عند اشتقاق فعل على وزن افتعل من المادة التي تبدأ بالذال تدغم هذه الذال في تاء الوزن، وتظهران في لهجة الحجاز دالاً مشدّدة/ دد/ من/ ذ- ت/. وقد ورد في القرآن في لفظ (مدّكر) من الآية ١٥ سورة القمر، وفي شعر عمر بن أبي ربيعة.

وفي لهجة أسد نجد صيغة الفعل (اذّكر) بالذال المشددة (تفسير الطبري حـ٢٧، ص ٥٦)، وفي النسخة المطبوعة من الطبري نجد أنه قد نسب إلى ابن

مسعود قوله بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قرأ (اذّكر)، وهذا خطأ مطبعي. وقد وردت القراءة الصحيحة (ادّكر) بالدال في اللسان (ج٥ ص ٣٧٦). وفي لهجة ربيعة، وهم الجيران الشماليون لأسد، يوجد لفظ (دكر) بالدال المكسورة لا بالذال. إننا نرى أن المادة بالدال تمثل استعمالا أقدم، في لهجة ما، قد عاش في أفواه أبنائها الذين كانوا مختلطين بجماعات تتكلم الآرامية»[٤٤].

إننا حين نطبق قواعد الإدغام في أمثلة المتقاربية نجد أن العرب ليسوا في حاجة إلى التأثر بالآرامية، وإنما هذا من لغتهم:

١- حسن الإدغام يتمثل في ضعف الصوت الأول وقوة الثاني، مما يتطلب فناء الأول في الثاني، ويتحقق هذا بالدال المشددة من خلال القلب المكاني ذكر

اتذكر ← ادذكر ← اذكر ←

٢- في صيغة (الافتعال) في صورتها الأخيرة تتحول التاء إلى دال مع الذال على النحو التالي:

اذتكر ← اذدكر ← اذذكر ← اذّكر

أثّر الصوت الرخو المجهور، وهو (الذال) في التاء الانفجارية المهموسة، فتحولت إلى دال مجهورة، ثم أثر (الذال) في الدال تبعا القاعدة الإدغام، فأبدلت الدال ذالاً، وتم الإدغام.

٥- تاء (افتعل) مع الزاي:

تتأثر التاء المجاورة للزاي في صيغة (افتعل)؛ لأن الزاي صوت صفيري مجهور، يتحقق معه الثقل في النطق بسبب التاء المهموسة، ومن أجل التيسير وتحقيق الانسجام الصوتي تبدل التاء دالا على النحو التالي:

زهر ← اتزهر ← ادزهر ← ازّهر.

وقد ذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى «أن القاعدة يمكن أن تطرد في كل فعل فاؤه صوت مجهور، فلو أمكن أن نصوغ (افتعل) من (فعل) مثل «بعث» الذي يبدأ بصوت مجهور، لكان من الجائز المقبول أن نرى نفس هذه الظاهرة، ولهذا ذكر النحاة في كتبهم أنه قد سمع في «اجتمع» و«اجتز»: «اجدمع» و«اجدزّ»، لأن الجيم صوت مجهور يناسبه مجهور مثله، فقلب التاء دالاً من أجل هذا في هذه الرواية، رغم قلة شيوعها، وقد اشتملت اللغة العربية على بعض كلمات صيغتها (افتعل) وفاء الفعل صوت مجهور، ومع هذا لم يتم فيها هذا التغير الصوتي مثل (اغتصب، امتنع). وهذا النوع من الأفعال قد أصابه في بعض لهجات الكلام نفس التطور الذي نحن بصدده»[٤٥].

إن من قواعد الإدغام التي ذكرها سيبويه هو أن حروف الصفير (ز س ص) لا تدغم في الحروف (ت ث د ذ ط ظ) وإن أدغمت هي فيها، وذكر أيضا أن الأصل في الإدغام أن يجعل الأول من جنس الآخر، هاتان القاعدتان تجعلنا نقول ونحن مطمئنون: إن التطور الصوتي التاريخي لما جاء على طريقة (افتعل) وفاؤه ذال على النحو التالي:

زجر ← اتزجر ← ادزجر ← ازّجر

فقد أبدلت التاء دالا ثم أدغمت الدال في الزاي، وليس العكس المرفوض لدى سيبويه وغيره.

٦- تاء (افتعل) مع السين:

تتأثر التاء بالسين المجاورة لها فتصبح سينا، إذ إن التاء هي الصوت الضعيف؛ لذلك تبدل سينا، وتدغم السين في السين على النحو التالي:

سمع ← اتسمع ← اسّمع.

قال سيبويه: «وتقول في (مُستمع) (مُسَّمع) فتدغم، لأنهما مهموسان ولا سبيل إلى أن تدغم السين في التاء، فإن أدغمت قلت: (مسَّمِع) كما قلت: (مُصَّبِر) حيث لم يجز إدخال الصاد في الطاء»(٤٦). ولا سبيل إلى عكس ذلك بإدغام السين في التاء اتباعًا لمبدأ عام صوتي خاص بأصوات الصفير.

٧- تاء (افتعل) مع الصاد:

التاء حرف مهموس مرقق لا يتجانس صوتيا مع صوت الصاد الذي هو أحد حروف الإطباق، لذلك تبدل التاء طاءً لتوافق ما في الصاد من إطباق لتجانس الصوت. ويبدو لنا التطور الصوتي هكذا.

صبر ← اتصبر ← اطصبر ← اصّبر

ويبدو أن المرحلة الأخيرة (اصّبر) حدث فيها تأثر الطاء بالصاد فأبدلت صادًا، وأدغمت الصاد في الصاد فقيل: (اصّبر) و(اصّلح) وضّح ذلك سيبويه بقوله: «وقالوا في (مفتعل) من (صبر): (مصطبر) أرادوا التخفيف حين تقاربا، ولم يكن بينهما إلا ما ذكرت لك، يعني قرب الحرف، وصارا في حرف واحد، ولم يجز بإدخال الصاد فيها، لما ذكرنا من المنفصلين، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالصاد وهي الطاء، ليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد من الحروف، وليكون عملهم من وجه واحد إذ لم يصلوا إلى الإدغام»(٤٧).

كما أشار سيبويه إلى وجود الإدغام فيقال: (اصّبر) قال: «وأراد بعضهم الإدغام، حيث اجتمعت الصاد والطاء، فلما امتنعت الصاد أن تدخل في الطاء، قلبوا الطاء صادًا فقالوا: (مصّبر). وحدثنا هارون: أن بعضهم قرأ **﴿فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾**»(٤٨).

إن تفسير مثال عدم الإدغام (اصطبر) ومثال الإدغام (اصّبر) وهما لمادة لغوية واحدة يشير إلى أن صيغة (اصطبر) هي المتطورة بإبدال التاء طاءً،

http://kotob.has.it

والأخرى نشأت منها من خلال صيغة القلب المكاني التي هي الأصل القديم (اتصبر) (اطصبر) فأبدلت الطاء صادًا وأدغمت الصاد في الصاد، ولا يجوز العكس، لذلك قيل: (اصّبر) وليس (اطّبر). قال ابن جني: «لا يجوز في (اصطبر) (اطّبر) على أن تدغم الصاد في الطاء لأن في الصاد صفيرًا، وتمام صوت، فلو أدغمتها لسلبتها ذلك، ومتى كان الإدغام ينقص الأول شيئًا لم يجز»[٤٩].

ووجدت نصا لابن يعيش فهمت منه أن التاء أبدلت مباشرة إلى الصاد، وليست الطاء، حيث قال: «ومن العرب من يبدل التاء إلى ما قبلها فيقول: (اصّبر) (يصّبر)... لما أرادوا تجانس الصوت وتشاكله قلبوا الحرف الثاني إلى لفظ الأول فأدغموه فيه، لأنه أبلغ في الموافقة»[٥٠] وهذا يتفق لدينا في أن الصوت الذي يلفظ أولا هو الذي يتغير مماثلة للصوت الذي يليه. فالمماثلة بين الحروف الصحاح في اللغة العربية هي بشكل عام مماثلة رجعية يفني فيها الصوت الأول في الصوت الثاني.

٨- تاء (افتعل) مع الضاد:

تختلف الضاد القديمة عن الضاد التي ننطقها الآن في أمرين هما:

- الضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة، بل حافة اللسان أو جانبه.
- الضاد القديمة من الأصوات الاحتكاكية كما وصفها القدماء، وليست الانفجارية كما ننطقها الآن.

ويمكننا أن نقول: إن الضاد القديمة تخالف الضاد المعاصرة في أن الأخيرة لها نظير منفتح هو الدال، كما أن الطاء القديمة التي وصفها سيبويه تتفق مع الضاد المعاصرة، فقد جعل سيبويه نظير (الطاء) هو (الدال) لا (التاء) التي نراه النظير المنفتح للطاء المعاصرة. وهذا التطور الصوتي سيفسر لنا مجيء الإدغام في صيغة (افتعل) من (ضرب) فنقول: (اضّرب).

ومن القواعد الصوتية ما يعرف بالانسجام الصوتي بتعديل حرف لا يتناسب مع حرف مجاور له بسبب اختلاف الصفات كاستعلاء الضاد وإطباقها في مقابل همس التاء وضعفها، مما يؤدي إلى إبدال التاء طاء.

وإذا طبقنا القاعدة العامة للإدغام التي تذهب إلى فناء الصوت الضعيف في الصوت القويّ (الأول في الثاني) سنجد أن هذا سيتحقق في صيغة القلب المكاني (اتفعل) هكذا.

ضرب ← اتضرب ← اطضرب ← اضّرب

يؤكد ذلك ما قاله ابن جني: «لا يجوز في (اصطلح): (اتّلح) ولا في (اضطرب): (اتّرب)، لأن الصاد والضاد لا يدغمان في التاء»[٥١].

وهذا يعني أن تقديم التاء يتيح لنا تطبيق قاعدة الإدغام فيها بعد إبدالها طاء ثم إبدال الطاء ضادًا، وهذا له مسوغ قديم إذا عرفنا أن نظير الطاء لدى سيبويه هو الدال، التي صارت مستقبلا النظير المنفتح للضاد.

ويندرج كل هذا تحت قول ابن يعيش: «اعلم أن الحروف المتقاربة تجري مجرى الحروف المتماثلة في الإدغام، لأن المتقاربين كالمتماثلين، لأنهما من حيز واحد.... فإذا التقى حرفان متقاربان أُدغم الأول منهما في الثاني»[٥٢].

وقد ذكر سيبويه الوجهين حين قال: «وقالوا في (اضطجر): (اضّجر) كقولهم: (مُصّبر)»[٥٣]. ويبدو من نص سيبويه هنا أن قبيلة بدوية ما لزمت الإدغام، وهي التي قالت: (مُصّبر) بإدغام الطاء في الصاد، فكذلك قالت: (مضّجر) بإدغام الطاء في الضاد أيضا.

٩- تاء (افتعل) مع الطاء:

النطق بالطاء مجاورًا للتاء فيه ثقل، لما بينهما من التباين في الصفة فالتاء حرف مهموس غير مستعل، أما حروف الإطباق، ومنها الطاء، فهي مستعلية

ولذا يجب إبدال التاء طاء، وتدغم الطاء في الطاء، وهو إدغام واجب؛ إذ إن الأول ساكن والثاني متحرك، وهما مثلان. قال سيبويه: «وإذا كانت الطاء معها- يعني مع التاء- فهو أجدر أن تقلب التاء طاء»(٥٤).

ولا شك في أن الإدغام هنا أيسر، ويحقق الاقتصاد في المجهود العضلي، من خلال اتحاد الصوتين في المخرج والهمس والإطباق، ومثال ذلك:

طلب ← اتطلب ← اطّلب.

طلع ← اتطلع ← اطّلع.

طرب ← اتطرب ← اطّرب.

طهر ← اتطهر ← اطّهر.

وحين نقول بأن صيغة (اتفعل) هي التي دخلها إبدال التاء طاء، فهذا يبعدنا عن الكره الذي ذكره سيبويه في (اطعنوا) حين قال: «لا تدغم الطاء في التاء فتُخلّ بالحروف، لأنهما في الانفصال أثقل من جميع ما ذكرناه. ولم يدغموها في التاء، لأنهم لم يريدوا إلا أن يبقى الإطباق، إذ كان يذهب في الانفصال، فكرهوا أن يلزموه ذلك في حرف ليس من حروف الإطباق. وذلك قولك (اطعنوا)»(٥٥).

ليس من المغالاة أن نقول: إن امتناع إدغام الطاء في التاء بعدها في صيغة (افتعل) يؤكد لدينا أن حدوث الإدغام في الأمثلة السابقة جاء من صيغة (اتفعل)، ويتحقق فيها الإبدال للتاء طاء، ثم الإدغام الواجب في المتماثلين، وبالتالي يفني الحرف الأول في الثاني طبقا لقاعدة الإدغام.

أضيف هنا سببا آخر، هو أن صيغة (اتفعل) تعطينا تاءً ضعيفة في نهاية مقطع (اتْ) وطاء قوية تشكل بداية مقطع في (اتطلع) فكان لابد أن يتأثر

الضعيف بالقوي بعده، ويصبح مثله فكانت الصيغة المتطورة (اطّلـع). وكما يقول الثمانيني: «إذا التقى مثلان في كلمة واحدة، وكان الأول ساكنا، والثاني متحركًا وجب إدغام الأول في الثاني، فقلت: (اطّرد) (يطّرد) (اطّرادًا) وفي اسم الفاعل (مطّرِد) وفي اسم المفعول (مطّرَد)»(٥٦).

١٠- تاء (افتعل) مع الظاء:

إذا وقعت الظاء مجاورة للتاء خلعت عليها صفة الإطباق، وهي إحدى صفات الظاء، حتى يشعر المتكلم بعدم الثقل على اللسان وإمكانية نطق الصوتين إما دفعة واحدة من اللسان عن طريق الإدغام أو بسهولة ويسر عن طريق تجانس الصوتين في صفة الإطباق. وهو ما عرف لدى سيبويه بالبيان في مقابل الإدغام، قال: «وكذلك الظاء، لأنهما إذا كانا منفصلين، يعني الظاء وبعدها التاء، جاز البيان، ويترك الإطباق على حاله إن أدغمت، فلما صارا في حرف واحد ازدادا ثقلاً، إذ كانا يستثقلان منفصلين، فألزموها ما ألزموا الصاد والتاء، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالظاء وهي الطاء، ليكون العمل من وجه واحد»(٥٧).

وقد ناقش «الثمانيني» مجاورة التاء للظاء في صيغة (افتعل) وبعد أن عرض لإبدال التاء طاء قال: «وإن أردت الإدغام فإدغام الأول في الثاني هو الوجه، فلك أن تقلب من الظاء وتدغم الأول في الثاني، فتقول: (اطّلم يطّلم اطّلاما) وفي اسم الفاعل (مطّلم) وفي اسم المفعول (مطّلم). ولك أن تبدل من الطاء ظاء، وتدغم الظاء الأول فيها، فتقول: (اظلم ويظّلم اظلاما). وفي اسم الفاعل (مظّلم) وفي اسم المفعول (مظلم). وإنما جاز هذا،لأن الظاء والطاء من حروف طرف اللسان، وهما متفقتان في الإطباق والاستعلاء، فجاز إدغام كل واحد منهما في صاحبه»(٥٨).

وقد أثبت النصوص العربية ثلاثة أوجه هنا

١- إبدال التاء طاء، نحو: اظطلم، اظطعن، وفيها تحولت التاء إلى نظيرها المفخم طاء تحت تأثير الظاء المفخمة، والأصل: اظتلم، اظتعن.

٢- بعض العرب يقول: (اظّلم، اظّعن)، ولتفسير هذا التطور الصوتي نرى أنه مرّ بخطوات على النحو التالي:

ظلم ⟵ اتظلم ⟵ اظظلم ⟵ اظّلم

وهذا هو الذي يرتضيه القياس تبعا لقاعدة الإدغام، وحفاظا على عدم إدغام صوت الظاء فيما بعده، وحدث أن الطاء هي التي أبدلت ظاء وأدغمت في الذي يليها بعد اتفاقهما في الإطباق والاستعلاء.

٣- وجاز أن يقال (اطّلم، اطّعن)، واجتنابا للتكرار نقول: ما قيل في (اتّكر) يقال في (اطلم) في أن هذا النطق خاص بقبائل موغلة في البداوة لما في الطاء من انفجار يتفق وما يميل إليه البدو من سرعة في الأداء، واقتصاد في الجهد العضليّ لا يتطلب إخراج اللسان مع صوت الظاء.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأوجه الثلاثة أدركنا أن النطق بالظاء المعجمة هو الراجح تبعا لقاعدة الإدغام

ظعن ⟵ اتظعن ⟵ اظظعن ⟵ اظّعن

وهذا كثير في العربية، فكما يقول ابن يعيش: «فيظّلم» على حدّ (اصّبر)... وهو شاذ في القياس وإن كان كثيرًا في الاستعمال»(٥٩).

أقول تعقيبا على كلام ابن يعيش: ليس لدينا شذوذ في قولنا (اظّلم، اظّعن، اظهر) فهذا النطق يتفق مع صنيع العرب من إبدال التاء المرققة حرفًا مستعليا، ثم إدغامه فيما بعده، والأصل في هذا الصيغ:

اتظهر ⟵ اططهر ⟵ اظهّر

إن تغير التاء إلى طاء جاء نتيجة قانون صوتي معروف هو قانون (المماثلة) وتغير الطاء إلى ظاء جاء نتيجة قانون صوتي آخر هو (إدغام الأول في الثاني) ونحن لو أخذنا برأي الذين يرفضون أن يكون مثل (اضطعن) أصله (اظتعن) نستريح إلى الأصل المفترض الذي فيه القلب المكاني (اتفعل)، الذي دخله الإبدال ثم التأثر الرجعي الشائع في لغة العرب.

١١- تاء (افتعل) مع الواو الياء:

تبدل التاء من الواو والياء إذا وقعت الواو أو الياء فاء في الافتعال وفروعه، ولم تكن مبدلة من همزة، نقول في افتعل من (وعظ) (اتعظ) والأصل: (اوتعظ) فأبدلت الواو تاء ثم أدغمت في تاء الافتعال، ووراء هذا التنافر الصوتي بين الواو والتاء في الصفات، فالواو مجهورة والتاء مهموسة.

ونقول في افتعل من (يسر) (اتسر) والأصل: (ايتسر) فأبدلت الياء تاء، وأدغمت التاء في التاء، دفعًا للتنافر بين صفتى الياء والتاء، كما قال سيبويه: «... فأبدلوا حرفًا أجلد منها – أي الياء أو الواو – ليزول – وهو التاء – وهذا كان أخفّ عليهم »[٦٠].

إن مسألة إبدال فاء الافتعال تاء هنا – وهي الواو والياء – مسألة فرعية بالنسبة لموضوعنا هنا، فلا نراها في العبرية والآرامية وإنما هي قاصرة على العربية والأشورية، كما لوحظ أن بعض أهل الحجاز ليس لديهم هذا الإبدال، يقول "بروكلمان" : « وتدغم الواو في تاء الانعكاسية من الوزن الأصلي، في كل من العربية والأشورية...كما في العربية **yattasilu** يَتّصل وفي الأشورية **ittašib** [٦١].

ومن المسلم به عند اللغويين العرب أن تاء (احترم- اجتمع- امتلك- اخترق) نطق بها الناطقون بعد فاء الفعل في وزن (افتعل) في حين أن الأفعال (اصطبر- اضطرب- ازدان- ادّان) هي من نفس فئة الأفعال السابقة وزنها (افتعل) ولكن التاء المزيدة نطقت طاء أو دالاً حسب قانون المماثلة.

ولا نوافق هؤلاء اللغويين العرب في أن الأصل المفترض لهذه الأفعال ليس له وجود، فالتعليلات العلمية والصوتية تؤكد وجوده، وأن التاء المرققة أو المهموسة تحولت إلى الطاء المفخمة أو الدال المجهورة. وليس ما نقوله من قبيل التأويلات الغيبية، بل هو من صميم قوانين التبدل الصوتي.

كما أوكد هنا أن المماثلة بين (التاء) والأصوات الأسنانية اللثوية هي بشكل عام مماثلة رجعية، أي: أن الصوت الأول الذي يلفظ أولا – وهو التاء غالبا – هو الذي يعتبر مماثلة للصوت الذي يليه. وجميع الأصوات التي أدغمت فيها التاء هي أصوات في درجتها أو أقوى منها. ونادرًا ما تظهر التاء مع أخواتها في المخرج، وإنما حدث الإظهار مع أصوات الحلق الستة وصوتي الطبق واللهاة نظرًا لتباعد مخرجها بالنسبة لمخرج التاء.

كما ثبت لنا من خلال الدراسة التطبيقية لصيغة (افتعل) العربية وجود أصل تاريخي لها هو (اتفعل) وحدث تقديم الفاء على التاء في مرحلة زمنية بسبب سياق صوتي معين مع الأصوات الصفيرية والتفشي، ثم عمم هذا التقديم والتأخير مع جميع الأصوات طردًا للباب على وتيرة واحدة. والذي حدث في العربية ليس خالصًا بها، بل هو شائع في أغلب اللغات السامية، كالعربية والآرامية والحبشية تسبق فيها التاء فاء الفعل، كما أن أحرف الزيادة جاءت معظمها في صدر الأفعال (أفعل- انفعل- استفعل- تفاعل).

وختامًا وجدنا أن الأصل التاريخي لهذه الصيغة (اتفعل) هو الذي يفسّر لنا الخلط في إبدال تاء الافتعال في العربية وإدغامها فيما بعدها، إذ إن (التاء) في

الأصل التاريخي هو صوت ضعيف، يدغم في الصوت الذي يليه، وغالبًا هـو من الأصوات الأسنانية اللثوية القوية، والاعتداد بهذا الأصل التاريخي في باب الإدغام هو الذي يتفق مع المماثلة الرجعية التي تعنى فناء الصوت الأول في الصوت الثاني الأقوى.

* *

المبحث الرابع

المطاوعة بالتاء في اللغات السامية

أوزان الفعل في العبرية مرتبطة من الناحية الدلالية بمعنى الوزن الثلاثي المجرد **פָּעַל**، وحين نلصق المقطع الصوتي (**הִת**) بالوزن المضعّف للدلالة على المطاوعة؛ يصبح الوزن العبري **הִתְפַּעֵל** يدل على المطاوعة في مثل: **הִתְרַחֵץ** = اغتسل. وقد يدل هذا الوزن على معاني أخرى، هي:

١- الصيرورة: **הִתְיַתֵּם** **hityattēm** أي: صاريتيمًا

٢- المشاركة: **הִשְׁתַּתֵּף** **hištattēf**= تشارك.

٣- بمعنى المجرد: **הִתְעַלָּה** hitʿalā = تعالى، ترفّع، وهي تؤدي معنى المجرد الثلاثي **עָלָה** علا.

يقول «أوجست برتش»: « **הִתְפַּעֵל** افتعل أو تفعّل. يبني هذا الوزن بزيادة المقطع **הִת** على صور المضعف، فأصبح **הִתְקַטֵּל**، أو: **הִתְקַטֵּל**. وغني عن البيان أن اللغة العربية تزيد على صدر المضعف تاء الافتعال فقط: (تقتّل). غير أنه تم في العربية (مثل العبرية) اشتقاق جديد من المضارع في بعض الأفعال، ونزل القرآن الكريم بذلك، مثال ذلك: اطّهّر، واذّكّر وازّيّن، وأصل ازّيّن: (تزينّ)، ومضارعه يتزيّن، ثم اشتق من هذا المضارع ماضيا جديدًا بعد سكون تاء الافتعال، ثم اجتلبت همزة الوصل (ينظر في العامية: اتنصف، اتنفّس... إلخ)، فما حدث في العبرية سببه اشتقاق ماض جديد من المضارع، مع مراعاة أن الهاء هنا بمنزلة همزة الوصل في العربية»[٦٢].

ولهذا يترجح لدينا أن المقطع الصوتي (ات) في العربية، و(**הִת**) في العبرية هو المورفيم الدال على المطاوعة، والذي دل على انحصار الفعل في

نفس الفاعل، وهو في درجة المقطع الصوتي الآخر (ان) الموجود في (انفعل) للدلالة على المطاوعة. ويبدو أن صوت التاء صار أسهل نطقا في العامية المصرية مما جعل صيغة (اتفعل) تسود في الدلالة على البناء للمجهول والمطاوعة بدلا من صيغتين أخريين عرفتا في الفصحى وهما «افتعل» و«اتفعل».

تحدث «ابن بارون» عن أبنية الأفعال البسيطة والمركبة، فقال: «ومنها الافتعال، وهو ما لحقته عندنا الهاء، وبعدها التاء في أول الفعل نحو **התפאר** ، **התגדל**. وعند العرب الألف أولا، والتاء بعد فاء الفعل نحو: ارتفع، ابتدع، انتبه، وهذا هو الافتعال على الحقيقة... أقول إن تسمية هذا البناء عندنا تفعلا أشبه من تسميته افتعالا»(٦٣).

وقد تناول صيغة المطاوعة ابن جناح في كتابة «اللمع» فقال: وتزاد التاء للافتعال في مثل: **והתגדלתי והתקדשתי** (٦٤). وهكذا شاع المصطلح العربي (الافتعال) واكتفي به للتعبير عن المطاوعة.

ويبدو أن الكنعانية الأقدم من العبرية تعرض فيها وزن (افتعل) أيضا للقلب المكاني، قبل أن يصل إلى صورته الأخيرة بفعل قانون الأصوات الصفيرية الذي تم تعميمه في جميع أمثلة هذه الصيغة. يقول الدكتور «يحيى عبابنة»: «لقد رصدنا بعض الاستعمالات التي يمكن القول إنها من وزن (افتعل) في صورته التي نراها في العربية، سوى أن الكنعانية لم تجتلب همزة الوصل، أو أن الحكم على هذه الهمزة غير ممكن؛ لأن الصور الاستعمالية التي رصدناها كانت على صورة المضارع، ومنها: **thtsp** أي: تزيل من الفعل الثلاثي **hsp** أي: حركة أو أزال. **Thtpk** أي: تتساقط من الفعل الثلاثي **hpk** بمعنى قلب أو سقط»(٦٥).

وقد تنبه بعض علماء الساميات إلى أن الأوجريتية تتفق مع العبرية في التمييز بين البناء للمجهول والمطاوعة، وتعبر الأوجريتية عن البناء للمجهول بواسطة صيغة **nfa'ala**. وتعبر عن المطاوعة بواسطة التاء، وتتفق مع العربية في الثلاثي المزيد بداخله التاء (**אפתעל**) ونظيره في العربية (افتعل)، كما وجدت أمثلة بها التاء سابقة على الوزن المشدد، وهو **הִתְפַּעֵל**، ويتفق هذا مع صيغة المطاوعة التائية في العبرية، في حين أن المقابل العربي لها هو (تفعّل)(٦٦).

ومن الثابت تاريخيا أن النقوش الأوجريتية تلي الأكدية من الناحية الزمنية، فالأكدية أول لغة سامية دونت سنة ٢٥٠٠ ق.م، وبعدها دونت الأوجريتية سنة ١٤٠٠ ق.م، وهذا يفسر لنا وجود ظواهر لغوية قديمة فيها تختلف عما في العبرية والآرامية، وتقترب في ظواهرها من الأكدية والعربية، ولذا تعدّ الأوجريتية أقدم لغة وصلت إلينا من المجموعة الكنعانية.

أما اللغة الآرامية فقد وجدت فيها صيغتان للمطاوعة من الوزن المشدد هما: **הִתְפַּעַל**، **אִתְפַּעַל**، ومن أمثلة: **הִתְחַבַּל** = تفسّد **אִתְיָעַט** = تشاور. ولم يرد من الوزن المعلوم المجرد وزن مجهول في نصوص آرامية العهد القديم.

هذه الوحدة الصرفية (المورفيم) التي تفيد المطاوعة، جاءت في الحبشية سابقة الفعل المضعف للدلالة على المطاوعة، وعلى البناء للمجهول، يقول الدكتور عمر صابر عبد الجليل وزملاؤه: «يستعمل وزن (اتفعل) كفعل مبني للمجهول وفعل مطاوع (انعكاسي) على حد سواء. ومعظم صيغ الأفعال المتعدية المبنية للعلوم من أوزان المجرد الثلاثي والمزيد بالألف (فاعل)، والمضعف (فعّل) تتحول إلى البناء للمجهول بإضافة التاء في صدر الفعل»(٦٧).

أما اللغة الأكدية فالصيغ الفعلية التائية تعبر عن المطاوعة حينا،

والمشاركة حينا آخر، وتتفق مع العربية في اشتمالها على الصيغ التالية:

١- مزيد التاء من الثلاثي المجرد، ويطلق عليه gt- stamm، ويقابله في العربية بناء (افتعل).

٢- مزيد التاء من الثلاثي المضعف بالعين، ويطلق عليه dt- stamm ويقابله في العربية بناء (تفعّل)، وفي العبرية بناء (הִתְפַּעֵל).

وصفوة القول: لا يمكن فهم التطور الذي حصل في العربية هنا إلا بالنظر على ما في اللغات السامية الأخرى. ويظهر هنا أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي فيها القدرة على استخدام صيغة المجهول، فغي جميع مزيدات الفعل في الماضي والمضارع على السواء. وتليها اللغة العبرية التي بها ثلاث صيغ للبناء للمجهول وهي נִפְעַל، פֻּעַל فُعّل הָפְעַל أفعل بالإضافة إلى صيغة المطاوعة הִתְפַּעֵל (افتعل- تفعّل- تفاعل) وتقل صيغ المبني للمجهول في الآرامية. أما الحبشية والأكادية فلا يكاد يكون فيهما أي أثر لصيغ خاصة بالبناء للمجهول.

أما مطاوع الفعل الثلاثي المجرد المشتق بالتاء هو (افتعل) في العربية والأوجريتية والأكدية، وهو في الحبشية (تفعّل) وهو مزيد بالألف والتاء في الآرامية (اتفعل) وفي العبرية (הִתְפַּעֵל). ومعنى هذا أن التاء جاءت سابقة لفاء الفعل في الحبشية والآرامية والعبرية في حين أن اللغات القديمة كالأكدية والأوجريتية والعربية جاءت التاء حشوًا بعد فاء الفعل.

والسؤال الذي يطرح نفسه. هل تعد صيغة (افتعل) هي الصيغة الأقدم الموروثة عن اللغة الأم؟ خاصة وأنها مستعملة في لغات أقدم زمنا هي العربية والأكدية والأوجريتية، وما الموقف مع صيغة (اتفعل) الواردة في الحبشية والآرامية والعبرية؟ وهل هي الأقدم خاصة وأننا نراها تعود بشدة في اللهجات

العربية المعاصرة؟ أوجل الإجابة حتى نفهم قانون التطور الصوتي الذي عُرف بقانون الأصوات الصفيرية.

ولا يتسع المقام هنا لذكر ما كتبه علماء العبرية عن التحول الصوتي في صيغة (הִתְפַּעֵל) بسبب قانون الصفير، ومن ثم سنكتفي بذكر الأمثلة التوضيحية على النحو التالي:

١- تاء الافتعال تتبادل المكان مع الأصوات (שׂ ، שׁ، ס، ז) أي: تقع قبلها فيصير الوزن הִפְתַּעֵל بدلا من הִתְפַּעֵל. مثال ذلك:

שָׁמַר ← הִשְׁתַּמֵּר بدلا من הִתְשַׁמֵּר احترس.

סָתַר ← הִסְתַּתֵּר بدلا من הִתְסַתֵּר اختبأ.

שָׂכַר ← הִשְׂתַּכֵּר بدلا من הִתְשַׂכֵּר اشتغل.

٢- تتماثل تاء الافتعال مع الصاد التي تقدمت عليها، فتتحول إلى طاء مفخمة لتناسب تفخيم الصاد قبلها، ومن ذلك:

צָדַק ← הִצְטַדֵּק بدلا من הִתְצַדֵּק تبرّأ، اعتذر

צָחַק ← הִצְטַחֵק بدلا من הִתְצַחֵק ابتسم

צָרַר ← הִצְטָרֵר بدلا من הִתְצָרֵר اشتدّ

٣- تتماثل تاء الافتعال مع الزاي التي تقدمت عليها، فتتحول إلى دال مجهورة، لتناسب جهر الزاي قبلها، ومن ذلك:

זָקַק ← הִזְדַּקֵּק بدلا من הִתְזַקֵּק احتاج

זָמַן ← הִזְדַּמֵּן بدلا من הִתְזַמֵּן استعدّ

זָכָה ← הִזְדַּכָּה بدلا من הִתְזַכָּה تبرّأ

ومن الواضح هنا أن وجود حرف الصغير الزاي (ז) قد ترتب عليه أمران

الأول : تقديم الزاي على التاء.

الآخر: إبدال التاء دالاً.

٤- تتماثل تاء الافتعال مع الطاء المفخمة التي تأتي بعدها فتبدل التاء طاء وتدغم في الطاء بعدها، من ذلك:

טָהַר ←—— **הִטַּהֵר** بدلا من **הִתְטַהֵר** تطهّر

טָמֵא ←—— **הִטַּמֵּא** بدلا من **הִתְטַמֵּא** تلوّث

טָפַשׁ ←—— **הִטַּפֵּשׁ** بدلا من **הִתְטַפֵּשׁ** تغابى

حدث هنا أن تغيرت التاء المرققة إلى طاء مفخمة نتيجة لقانون المماثلة ثم أدغمت الطاء في الطاء تبعا لقاعدة الإدغام الذي يفني الحرف الأول في الحرف الذي يليه وهو مماثل له أو مقارب.

٥- تتماثل تاء الافتعال مع الدال التي بعدها تحت تأثير الصوت المجهور فتبدل التاء المهموسة دالا مجهورة، ثم تدغم الدال في الدال، ومن ذلك:

דָּבַר ←—— **הִדַּבֵּר** بدلا من **הִתְדַּבֵּר** تكلّم

דָּבַק ←—— **הִדַּבֵּק** بدلا من **הִתְדַּבֵּק** التصق

דָּפַק ←—— **הִדַּפֵּק** بدلا من **הִתְדַּפֵּק** اقترع

وهنا تتفق اللغتان العربية والعبرية في إبدال تاء الافتعال دالاً ثم إدغام الدال في الدال حتى ينسجم الصوتان المتناقضان في همس التاء وجهر الدال، فكان حتما إبدال التاء دالا ثم إدغام المثلين طبقا لقاعدة الإدغام.

يقول الأستاذ مراد فرج المحامي: «(افتعل) هو عبريا (اتفعل) بتقديم التاء

نحو הִתְכַּתֵּב اكتتب و הִתְאַזֵּר ائتزر. وإذا كانت الفاء من هذا البناء حــرف ז نحو הִתְזַמֵּן استعدّ، تأهب، تحضرّ من معنى الزمن، قلت: הִזְדַּמֵּן بتقديم الزاي وإبدال التاء دالاً. وإذا كانت حرف צ نحو: הִתְצַדֵּק تصدّق بمعنى تبرر قلــت: הִצְטַדֵּק بتقديم الصاد وإبدال التاء طاء، أشبه باضطرد واضطرب، تدغم الضاد في الطاء. وإذا كانت حرف שׁ، أو שׂ أو ס قدمتها على التاء، فتقول: הִשְׁתַּמֵּר احترس، و הִשְׂתַּכֵּר أوجر، و הִסְתַּבֵּהִתְשַׁבֵּك. وتقول: מִטַּהֵר متطهر بدلا مــن מִתְטַהֵר و אֶדָּמֶה اتشبه بدل אֶתְדַּמֶּה »(٦٨).

وقد أشار «موسكاتي» إلى أن «إبدال التاء واسع الانتــشار فــي اللغــات السامية مع الصوت الأول من أصوات الفعل الأصلية حينما يكون هذا احتكاكيا أسنانيا أو احتكاكيا لثويا حنكيا، كما في العبرية **hitšammer** «كان حذرًا» فإنها تصير **hištammer**»(٦٩).

وقد وضح ذلك «ابن بارون» حين رأى أن صيغة (הִתְפַּעֵל) يطلق عليها (التفعل) أما (الافتعال) على حقيقته في اللغة العبرية يكون في الأفعــال التــي فاؤها ש ، ס، צ، قال: «جاءنا الافتعال على حقيقته في الأفعال التي فاؤها شين أو سين أو صاد، مثل: ישתמר ، יסתבל، נצטדק فإن فاء الفعــل فــي هــذه المقدمة للتاء على حقيقته في الافتعال»(٧٠).

ويحدث مثل هذا القلب المكاني في اللغة الآرامية عندما يكــون الحــرف الأول، للفعل المزيد بالتاء، احتكاكيا أسنانيا أو لثويا حنكيا، ومن صــيغ الفعــل المزيد المطاوع في الآرامية הִשְׁתַּפְעַל، نحو: יִשְׁתַּכְלְלוּן يكتملون [عــزرا ٤: ١٣، ١٦]. ولم يحدث إدغام هنا لتوافق الشين والتاء في الهمس. ومن ثم بقيت التاء كما هي دون إدغام.

وأحيانا تتبادل التاء والفاء مكانيها، مع قلب التاء طاء إذا كانت فاء الكلمة صادًا، نحو: **estlv**’ أي: (اصطلب) بمعنى: صلب. كما تقلب التاء دالا إذا كانت فاء الافتعال زايا نحو: **ezd‘ef**’ أي: غضب، تغيّظ.

يقول أستاذنا الدكتور صلاح حسنين: «في الآرامية تتحول تاء الافتعال إلى طاء أو على دال تحت تأثير أصوات الصفير المفخمة أو المجهورة نحو ezdi’ etti’، وإذا كانت عينا لكلمة فاؤها قاف، فالأصل السامي **qtr** تحول إلى **qtr**»(٧١).

ويفهم من اتفاق الآرامية مع العبرية في تأثير أصوات الصفير المفحمة أو المجهورة، ويحدث هذا حين تجتمع التاء المهموسة المرققة مع الطاء المفخمة أو الزاي المجهورة، لذلك يميل المتكلم إلى خلع الصفة القوية (المفخمة أو المجهورة) على صوت التاء توفيرًا وتحقيقًا للانسجام الصوتي..

وإذا ما استقرأنا بعض النقوش الأكدية فإننا نجد أنه قد يتوالى فيها صوتان متجانسان ويتحولان بسبب المماثلة إلى صوتين مثلين وبخاصة الأصوات الأسنانية واللثوية، نحو: **astabat**’ ← **assabat**’= أخذ ومن الثابت في مجال المقارنات اللغوية أن اللغة الأكدية احتفظت بالحروف الأسنانية اللثوية وبخاصة (ز، س، ص، ش). وكذلك الحروف النطعية (د، ت، ط). وقد تحدث أحد المختصين في دراسة اللغة الأكدية، فقال: «تتبادل التاء الداخلة على الفعل في الصيغ الخالية من الضمائر المتصلة مع الحرف الأول من جذر الفعل إذا كان أحد الحروف الآتية: د، ط، ز، س، ص:

صتبت **sitbutu** > تصبُت **tisbuta** (يتصارعون)

زتكر **zitkar** > تزكر **tizkar** (تكلم)(٧٢).

كما تحدث «موسكاتي» عن صيغ المطاوعة التائية في الأكاديـة، فقـال: «وفي الأكدية تتعرض الصيغ الفعلية التي ليس فيها زيادة في أولها لقلب مكاني في الاتجاه المعاكس، أي: تصير التاء سابقة نحو:

(صتبت) **sitbutu** أي: يمسك، يقبض علـى، فإنهـا تـصير: (تـصبت) **tissbutuK**، و(صتمر) **sitmur**: يرغب، تصير: (تصمر) **tismur**»[٧٣].

ويبدو لنا أن الصيغة الأكدية التي تتقدم فيها التاء على فـاء الفعـل هـي الصيغة المتطورة في الأكدية كما يتضح ذلك من كلام موسكاتي. ومازالت اللغة الأكدية تتفق مع العربية في كثير من الظواهر اللغوية، ومنها صـيغ الأفعـال الكدية التي هي أقرب إلي الصيغ العربية. وهناك صيغة في الأكديـة لا تـزال تحفظها العربية، وهي صيغة المطاوعة والبناء للمجهول (انفعل)، وفي الصيغة الأكادية قد تقلب النون واوًا وتدغم الواو في الواو، فيقال: (اوّلـد) بـدلا مـن (انولد).

وإلى هنا أكون قد وصلت إلى نهاية البحث، وأملي أن أكون قد وقفت في إضاءة جوانب الموضوع، ولو بنور بسيط، من خـلال المقارنـات الـسامية، محاولا بذلك الإجابة عن تساؤلات عديدة حول الإبدال والقلـب المكـاني فـي صيغة (افتعل). ومن الواضح أن العربية والأكدية والأجريتية قد اختطت لنفسها استعمالا لهذه الصيغة بتقديم الفاء على التاء، مع وجود الصيغة الأخرى التـي دخلها القلب المكاني (اتفعل)، وشاعت في الحبشية والعبرية والآرامية وكـذلك اللهجات العربية الحديثة، والتي هي امتداد للنطق السامي القديم والـذي تغيـرّ بفعل الزمن على ألسنة النـاطقين بـه. ومازلنـا نـرى الـصيغتين القـدمى وهي (افتعل) والمتطورة وهي (اتفعل) في العربية المعاصرة، وذلك يؤكد لنـا أن التطور في الصيغ لم يحدث فجأة، ولا يقضي علـى القـديم بـين عـشية وضحاها.

كما اتضح من الدراسة المقارنة وجود نزعة في اللغات السامية تجاه أصوات الصفير (ز، س، ص) وصوت التفشى (ش) وذلك بمعاملتها معاملة خاصة فاللغات (الحبشية والآرامية والعبرية) تتحول بسببها من صيغة (اتفعل) إلى (افتعل)، كما أن اللغة العربية تنزع إلى عدم إدغام هذه الأصوات فيما بعدها، وهذه معاملة خاصة أزال الغموض فيها علم اللغات السامية المقارن، ولا يمكن فهم وجود صيغة (اتفعل) في اللهجات العربية الحديثة إلا بالنظر إلى ما في اللغات السامية الأخرى.

* *

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة بحمد الله إلى نتائج متنوعة،نذكر أهمها فيما يلي:

١- لدينا ظواهر لغوية عديدة في باب الصرف نحتاج إلى معالجتها على أساس صوتي بدلا من العلاج التقليدي الذي طبقه العرب عليها ومنها إبدال تاء الافتعال، وإدغام المتماثلين في هذه الصيغة.

٢- إدغام الأصوات في اللغة العربية وسيلة من وسائل تيسير النطق والاقتصاد في المجهود العضلي. ومن اللافت للنظر كثرة وقوع الإدغام بين الأصوات الأسنانية اللثوية. ويمكن عزو هذا إلى اعتدال أصوات هذه المجموعة، وتوسطها بين مخارج الحروف.

٣- أصوات الصفير لها معاملة خاصة في اللغات السامية، تدغم فيها الأصوات الأسنانية اللثوية، وليس العكس، ولذلك أخذنا بالقلب المكاني (اتفعل) قبل المماثلة المرجعية التي يحدث فيها إفناء الصوت الأول في الثاني، وفي ذلك تحقيق مطلب علمائنا القدامى من عدم ضياع صفة الصفير والاستطالة إن حدث الإدغام لها فيما بعدها، ولهذا ضعّفوا ما جاء على لسان العرب من (اصّبر، اذّكر، اذّخر، اضّرب.. إلخ).

٤- أثبتت هذه الدراسة وجود صيغتين فعلتين قديمتين في اللغات السامية هما (افتعل) و(اتفعل) والصيغة الأولى واردة لدى اللغات الأقدم زمنا كالعربية والأكدية والأوجريتية، في حين أن الصيغة الثانية (اتفعل) جاءت قياسية على سائر الصيغ المزيدة بالتاء في بدايتها (تفعّل- تفاعل- استفعل)، وهي التي سادت في الحبشية والآرامية والعبرية.

٥- يبدو أن القلب المكاني في هذا الوزن كان مقصورًا على أصوات الصفير أولا كما حدث في العبرية والآرامية، أما الأصوات الأخرى فلم يتغير

موقعها، وصارت العبرية مثلا تستخدم مصطلحين، أحدهما (التفعّل) على الصيغ التي لم يتغير موقعها، ومصطلح (الافتعال) على الصيغ التي بها حرف الصفير أو التفشي وصارت تشبه الوزن العربي (افتعل).

٦- مورفيم (التاء) أعم وأشمل من مورفيم النون الوارد في صيغة (انفعل)، كما أن الصيغ التائية تشتق بين الثلاثي المجرد (افتعل)، ومن المضعف (تفعّل)، ومن المزيد بالألف (تفاعل)، ومن المزيد بالألف والسين والتاء (استفعل). أما الصيغة النونية فتشتق من الثلاثي المجردفقط (انفعل)، ولهذا حلت صيغة (اتفعل) محل (انفعل) في اللهجات العربية الحديثة للدلالة على البناء للمجهول والمطاوعة ولا يمكن فهم وجود هذا التطور اللغوي إلا بالنظر إلى ما في اللغات السامية الأخرى.

ثبت الهوامش والمراجع

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٣١، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٦٩.

(٢) انظر في ذلك: المعجم الوسيط، مادة (ق ل ب) ص ٧٥٣، إخراج مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٣.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ٧، القاهرة، بدون تاريخ.

(٤) ابن حني: سر صناعة الإعراب ١/ ٢٠٠ تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق ١٩٩٣م.

(٥) المرجع السابق ١/ ٢٢٣.

(٦) د/ داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية ص ٩٣، نشر وتوزيع مؤسسة الصباح بالكويت د.ت.

(٧) د/ محمد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللغة ص ٢٨٤.

(٨) د/ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص ٣٧٨، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩١م.

(٩) د/ إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص ١٧٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٠م.

(١٠) المرجع السابق ص ٢٠٣.

(١١) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ١٢٩، دار الثقافة العربية القاهرة ٢٠٠٦م.

(١٢) ديفيد كرومبي: مبادئ علم الأصوات العام ص ١٩٦، ترجمة وتعليق الدكتور محمد فتيح، القاهرة ١٩٨٨م.

(١٣) د/ رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص ٧٥، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٢م.

(١٤) د/ حامد بن أحمد الشنبري: النظام الصوتي في اللغتين العربية والعبرية ص ٣٢،العدد ١٥، ضمن سلسلة الدراسات الأدبية اللغوية لمركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ٢٠٠٤م.

(١٥) انظر في ذلك مقدمة الدكتور رمضان عبد التواب في مترجمه «فقه اللغات السامية» لبروكلمان ص٣، مطبوعات جامعة الرياض بالسعودية ١٩٧٧م.

(١٦) انظر: المدخل إلى علم اللغة ص ٢٠٥، مرجع سابق.

(١٧) فقه اللغات السامية ص ١١٠، مرجع سابق.

(١٨) المرجع السابق والصفحة.

(١٩) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية ص٩٢، تحقيق ومراجعة د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجى بالقاهرة ٢٠٠٣م.

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٣- ٩٤.

(٢١) المرجع السابق ص٢٥.

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٥- ٢٦.

(٢٣) موسكاتي وزملاؤه: مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ص ٢١٧، ترجمة د/ مهدي الخزومي ود/ عبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣م.

(٢٤) المرجع السابق ص ٢١٧- ٢١٨.

(٢٥) هنري فليش: العربية الفصحى ص ١٩٤، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين مكتبة الشباب، القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢٦) أوجست برتش: موجز قواعد اللغة العبرية ص ٨٥، ترجمة الدكتور مناع عبد المحسن، القاهرة ١٩٩٨م.

(٢٧) د/ رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص ٢٣٥- ٢٣٦ مرجع سابق.

(٢٨) د/ داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية ص ٩٥- ٩٦. مرجع سابق.

(٢٩) د/ داود عبده: أبحاث في اللغة العربية ص ١٥٢- ١٥٣، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٣م.

(٣٠) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الاصوات المَقارن ص ١٣٤- ١٣٥مرجع سابق.

(٣١) د/ صلاح حسنين: القوانين الفونولوجية في اللغات السامية، مقال بمجلة الدراسات الشرقية، العدد ١٤، يناير ١٩٩٥م.

(٣٢) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ٤٤، مرجع سابق.

(٣٣) د/ داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية ص ٩٦، مرجع سابق.

(٣٤) د/ عبد الرحمن أيوب: محاضرات في اللغة ص ١٧٦، مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٦م.

(٣٥) د/ محمد حماد: دراسات في فقه العربية ص ٦٣، دار الثقافة العربية القاهرة ٢٠٠٤م.

(٣٦) سيبويه: الكتاب ٤/ ٤١٧، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجبل بيروت ١٩٩١م.

(٣٧) السابق ٤/ ٤٦٨.

(٣٨) السابق ٤/ ٤٦٧.

(٣٩) ابن جني: سر صناعة الإعراب ١/ ١٧٢، مرجع سابق.

(٤٠) الفراء: معاني القرآن ١/ ٢١٥ تحقيق د. عبد الفتاح شلبي، مراجعة على النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة د.ت.

(٤١) كتاب سيبويه ٤/ ٤٧١.

(٤٢) د/ تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

(٤٣) كتاب سيبويه ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠.

(٤٤) حاييم رابين: اللهجات العربية الغربية ص ٢٦٤، ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب، جامعة الكويت ١٩٨٦م.

(٤٥) د/ إبراهيم أنيس من أسرار اللغة ص ١٨٣. مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٧٥.

(٤٦) كتاب سيبويه ٤/ ٤٦٨.

(٤٧) السابق ٤/ ٤٦٧.

(٤٨) السابق والصفحة.

(٤٩) ابن جني: المنصف ٢/ ٣٣٠، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، القاهرة ١٩٥٤م.

(٥٠) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ٤٧، مرجع سابق.

(٥١) ابن جني: المنصف ٢/ ٣٣٠ مرجع سابق.

(٥٢) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ١٣٢.

(٥٣) سيبويه ٤/ ٤٦٩ مرجع سابق.

(٥٤) السابق ٤/ ٤٧٠.

(٥٥) السابق والصفحة.

(٥٦) الثمانيني: شرح التصريف ص ٣٦١. تحقيق د/ إبراهيم بن سليمان النعيمي، مكتبة الرشد، الرياض ١٩٩٩م.

(٥٧) سيبويه ٤/ ٤٦٨. مرجع سابق.

(٥٨) الثمانيني: شرح التصريف ص ٣٦٠- ٣٦١ مرجع سابق.

(٥٩) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ١٤٩ مرجع سابق.

(٦٠) سيبويه ٤/ ٣٣٤ مرجع سابق.

(٦١) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ١٣٩ وما بعدها، مرجع سابق.

(٦٢) أوجست برتش: موجز قواعد اللغة العبرية ص ٨٤، مرجع سابق.

(٦٣) ابن بارون: الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية ص ٦٨، نقله إلى العربية د/ أحمد محمود هويدي، ضمن سلسلة الدراسات الأدبية واللغوية، نشر مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ١٩٩٩م.

(٦٤) **אבן גנאח כתאב אללמע עמ׳ 66.**

(٦٥) د/ يحيى عبانة: اللغة الكنعانية ص ٢٣٠، عمان، الأردن ٢٠٠٣م.

(66)Gordon: vgaritic text book 9: 33, 9:39

نقلا من مقال: (أفعال المطاوعة في العربية والعبرية: دراسة مقارنة) ص ٤٩٦ للدكتور سعد عبد الرحيم، ضمن كتاب (فولفد يترش فيشر: دراسات عربية وسامية) القاهرة ١٩٩٤م.

(٦٧) د/ عمر صابر عبد الجليل وزملاؤه: المدخل إلى تاريخ الحبشة واللغة الحبشية القديمة ص ٢٢٢، دار الثقافة العربية ٢٠٠١م.

(٦٨) مراد فرج المحامي: أستاذ العبرية ص ١٥٠- ١٥١، مصر ١٩٢٥م.

(٦٩) موسكاتي: مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارنص ١١، مرجع سابق.

(٧٠) ابن بارون الموازنة بين العبرانية والعربية ص ٦٨- ٦٩، مرجع سابق.

(٧١) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ١٧٥ مرجع سابق.

(٧٢) د/ عامر سليمان: اللغة الأكدية (البابلية- الأشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها) جامعة الموصل بالعراق ١٩٩١م.

(٧٣) موسكاتي: مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ص ١١١، مرجع سابق.



الفصل الثالث

أصالة اللسان العربي

دراسة في ضوء المنهج المقارن

لغتنا العربية لم تحظ باهتمام يذكر لدى علمائنا الأوائل، ظنا منهم أن هذا التاريخ لا يعود عليهم بغاية علمية أو يحقق لهم فائدة تعليمية. كما انصرف علماؤنا المحدثون عن التأريخ للعربية لعدم وجود وثائق مكتوبة أو منقوشة تمهد لهم البحث عن العمق التاريخي لهذه اللغة التي يجب أن يبدأ تاريخها من بداية وجود أول مجموعة بشرية أقامت في جزيرة العرب ونطقت بلغة عربية. ولهذا السبب أصبح تأريخ اللغة العربية ينحصر في مدى لا يزيد عن قرن واحد قبل الإسلام.

التاريخ للغتنا العربية يتطلب منا العودة إلى جذورها الموغلة في القدم والمرتبطة ارتباطًا وثيقاً بلغاتٍ وحضارات شبه جزيرة العرب، ممثلة في اللغة الأكدية واللغة الكنعانية واللغة الآرامية وسائر اللغات أخوات العربية. ولدينا حقيقة علمية نبرزها أمام القارئ وهي أن تاريخ الأدب العربي لا يغنينا عن تاريخ اللغة، كما أن تاريخ النحو والنحاة لا يفي بالغرض من تاريخ اللغة، إذ إن تاريخ العربية يعتني بماضيها السحيق، ويتتبع جميع أطوار نشأة هذه اللغة ونحوها إلى أن يصل بها إلى لغة العصر الحاضر.

ومن الخطأ التاريخي حصر الجنس العربي قبل الإسلام في شبه جزيرة العرب فحسب، فلم يكن هذا موطنهم الوحيد، وإنما كان للعرب منذ آلاف السنين حتى ظهور الإسلام هجرات صادرة عن مهدهم وافقتها حضارات اندثرت قبل

العصر الجاهلي، ولكنها تركت في بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها بقايا كثيرة من العرب ومن لغتهم.

ولقد رأيت أن يكون هذا البحث في أربعة مباحث:

المبحث الأول: عروبة الشعوب المسماة بـ (السامية).

المبحث الثاني: اللغات المسماة بـ (السامية) تراث عربي قديم.

المبحث الثالث: تفرّد العربية بالأصالة.

المبحث الرابع: عروبة النبي «أيوب» في صياغة يهودية.

وبعد، فأسأل الله أن يكون هذا البحث مرجعاً مفيداً في هذا المجال، قد يفتح بعض الآفاق، فإن حققت غايتي منه فذلك بتوفيق من الله العلي القدير، وإلا فإنني أسأل ربي أن يمنحني أجري على وفق نيتي التي انتويتها، والله الموفق.

* *

المبحث الأول

عروبة الشعوب المسماة بـ (السامية)

يبدو من كلام علماء الساميات أن هذه الشعوب في أصلها قوم من البدو الرّحل انطلقوا بداية من شبه جزيرة العرب، وأول قبيلة قد هاجرت من الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل الميلاد، واستقرت فيما بين النهرين، وعرف هؤلاء القوم المهاجرين بـ (الأكديين). ثم هاجرت بعدهم قبائل في الألف الثالث قبل الميلاد، واتجهت إلى الشمال الغربي من شبه الجزيرة، وعرفوا آنذاك بـ (الكنعانيين) كما هاجرت في الألف الثاني قبائل إلى شمال الجزيرة، وأطلق عليهم اسم (الآرميين)، ومن بقي في الجزيرة احترف الزراعة حيناً، والتجارة حيناً آخر، واحتفظ بالخصائص اللغوية كما كانت في اللغة الأم.

إن هذا التحديد الجغرافي لهذه الشعوب عبرّ عنه الدكتور محمد خليفة حسن بقوله: «إن الجزيرة العربية هي المهد الأول للحضارات السامية. وهي الأصل الذي خرجت منه الشعوب العربية السامية، ومنه أيضاً تطورت اللغات السامية التي تعدّ حسب هذا الرأي لهجات متفرعة عن اللغة العربية تطورت إلى أن حققت لنفسها الاستقلال، وأصبحت لغات قائمة بذاتها، وإن لم ينفصل كلية عن أصلها الأول»[1].

وأقول: لا توجد في الحقيقة أمة تسمى (السامية) أو (الساميون) فهذا مصطلح أطلقه المستشرق النمساوي «شولتزرschlozer» على الشعوب التي زعم أنها تنحدر من صلب سام بن نوح، وكان ذلك في عام ١٧٨١م وهو مصطلح غير علمي من جهة الوضع، ولكنه صار كذلك من جهة الشيوع.

هذا المصطلح يعود فضل إيجاده إلى شجرة أنساب الأمم الواردة في التوراة، والتي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث

«سفر التكوين الإصحاح العاشر»، وقد ذكرت هذه الشجرة أمماً ليست لغاتها سامية كالعيلاميين واللوديين (١٠:٢٢) ضمن نسل سام وأخرجت شعوباً سامية مثل الكنعايين، وذلك لاعتبارات سياسية واجتماعية. وقد علق على ذلك الدكتور جلاء إدريس بأن «ثمة تناقض بين المدلول اللغوي للمصطلح والأصل التوراتي له، فبينما تعتبر الكنعانية – لغة كنعان حفيد نوح – فرعاً مهماً من اللغات السامية، تستثني التوراة نسل كنعان من الانتماء السياسي «وحام هو أبو كنعان» تكوين ١٧/٩، «فأبصر حام أبو كنعان» تكوين ٢٣/٩، «وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان» تكوين ٦/١١، في الوقت الذي تدخل فيه – بلا سند– شعوباً أخرى كعيلام ولود، الأمر الذي يشير إلى أن هذا التقسيم التوراتي إنما يعتمد على العلاقات والروابط السياسية والجغرافية أكثر من اعتماده على صلات وأواصر القربى، والروابط الشعبية. ومن ثم فهو مصطلح يعكس وجهة نظر واضعيه أكثر مما يعكس واقع المنتمين إليه.»[٢]

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا أخرجت التوراة الكنعانيين من ولد سام، وجعلتهم في ولد حام؟ في الوقت الذي تكلمت فيه عن أن الرب خاطب إبراهيم، وأمره بالرحيل إلى أرض كنعان، واستقر فيها ومعه ابن عمه (لوط)، وعاش في (حاران) آنذاك[٣]. والجواب هو أن الأساطير التوراتية لم تستطع إثبات حق لهم في هذه الأرض الكنعانية، واعترفت بأنها ارض غربة، عاش فيها إبراهيم وأحفاده (تكوين ١/٣٧).وكان الجزاء لأصحاب الأرض، أن كرهوهم وأخرجوهم من نسل ولد سام، كما أخرجوا قوم لوط من الكنعانيين، وجعلوا العيلاميين من نسل ولد سام، وذلك للتقرب منهم لوجود أصول مشتركة معهم.

وما يثير الانتباه هنا أن المستشرقين كانوا أبعد نظراً من النص التوراتي، فجعلوا هذه المجموعة اللغوية تشمل (الكنعانية والأشورية والأرامية والعربية والحبشية)، فهذا «بروكلمان» يعلق على موقف وجود أبناء «عيلام» و «لود»

ضمن الساميين، قال: «... لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية، كما أنه ليست بينهما وبين الأشوريين قرابة من ناحية أخرى. هذا إلى أنه – طبقا لجداول الشعوب في التوراة – يعد من أبناء حام – على العكس من ذلك – الفينيقيين الذين هم أقرب الشعوب إلى الشعب العبري، الذي يعد فرعاً منهم وذلك بسبب صلاتهم السياسية والثقافية الشديدة بمصر»[٤].

ولقد رفض الخليل بن أحمد ما ذكرته التوراة قبل أن يتنبه المستشرقون إلى خطأ ما في هذه المقولة، فقد صرح الخليل بأن كنعان هو ابن سام، بقوله:«وكنعان بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية»[٥] وكأني بالخليل بن أحمد قد وقف على العداء المستحكم بين الكنعانيين واليهود، وعرف مقصد التوراة من نفي نسبة الكنعانيين إلى أبناء سام آنذاك؛ لأن الاعتراف بالكنعانيين في نسبتهم إلى سام يعني أن جماعة بني إسرائيل ليس لهم وجود حقيقي في أرض كنعان، مع أن العهد مع موسى ينص على إعطاء بني إسرائيل أرض كنعان، أرض غربتهم التي تغربوا فيها (سفر الخروج الإصحاح الرابع).

ونتج عن هذا التزييف التاريخي أن معظم مؤرخي أوربا في دراساتهم الخاصة سعوا إلى تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين (كنعان القديمة) باستبعاد كل الشعوب الأخرى التي شاركت العبريين في هذه الأرض أو حلت محلهم في فترات كثيرة من التاريخ القديم، وبخاصة الكنعانيون العرب الذين هاجروا إلى هذه الأرض من شبه جزيرة العرب حوالي ٣٠٠٠ق.م. وقد ورد اسم «أرض كنعان» كثيراً في العهد القديم (سفر يشوع ٤/١٣). وهذا لا يعني وجود اليهود قديماً في هذه الأرض قبل العرب، فلم يكونوا قد هاجروا من شبه جزيرة العرب آنذاك، وحين هاجروا ظلوا سنيناً في ترحال حتى دخل يشوع أرض كنعان بعد وفاة موسى عليه السلام. وأيضاً لا يفهم من هذا أن هذه الأرض كانت خالية من

الساميين (العرب) بل كان فيها دون شك أقـوام سـاميون اختلطـوا بـسكانها الأصليين الذين كانت لهم ديانات غير سامية الأصل، وسرعان ما طغت السامية على غيرها آنذاك بعد هجرة القبائل العربية إلى هناك.

ولدينا في المقابل بعض المستشرقين المنصفين تاريخيـاً ولغويـاً، الـذين اعترفوا بالوجود العربي قديماً في أرض الرافدين وبلاد الشام بعد أن هـاجروا من شبه جزيرة العرب، نذكر منهم:

- المستشرق «أولمستد» الذي اهتدى إلى قدم العرب والعربية، فقال: «إن البدو العرب كانوا أول من تكلم باللغة السامية»(٦).

- المستشرق «فيليبي» يقول: «اللغة العربية أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية......وهي على الأغلب أقدم لغة في العالم ما زالت حيـة حتى يومنا هذا»(٧).

- المستشرق «نولدكه» صرح بأن «العربية احتفظت أكثر من أخواتها بكثيـر من الصور الصادقة لعناصر اللغة الأولى»(٨).

- المستـشرق «بروكلمـان» بعـد أن طـرح سـؤاله: أيـن كـان يعـيش الشعب السامي الأول؟ قال: «إن الجزيرة العربية هي المكان الأول الذي يصلح لأن يكون مهد الساميين الأول ذلك المهد الذي يرجح أن الشعب السامي الذي يقطن الحبشة قد خرج منه كذلك»(٩) .

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بعض أراء علماء العربية المحدثين هنا لنرى كيف كشفوا لنا عن الهدف الذي يطلبه علمـاء اليهـود مـن وراء مـصطلح (السامية) أو (الساميون):

١- يقول الأستاذ العقاد: «اللغة العربية هي لغة الأقوام التي كانت تعيش فـي شبه الجزيرة العربية، وتهاجر منها، وإليها في تلك الحقبة، وقد كانت لغـة

واحدة من اليمن إلى مشارف العراق وتخوم فلسطين وسيناء.»[١٠]

٢- أكد الدكتور محمد سالم الجرج ما قاله أستاذه العقاد فقال: «العرب والعربية أصل الشعوب واللغات السامية، بل إننا لنستطيع أن نسمي الشعوب السامية كلها بالشعوب العربية، واللغات السامية كذلك باللغات العربية، فنحن نمثل الجذع الذي تفرعوا منه جميعاً.»[١١]

٣- ذكر المؤرخ العراقي الدكتور/ جواد علي أنه: «إذا أردنا أن يكون كلامنا علمياً أو قريباً من العلم وجب علينا إهمال كلمة «الشعوب السامية» و «الساميين» وتبديلها بكلمة «الشعوب العربية» و «العرب» لأن هذه التسمية ملموسة المفهوم بينما تلك اصطلاح مبهم»[١٢]

٤- الأستاذ «طه باقر» من الباحثين في العراق رأى أن «الاسم الصحيح من الناحية التاريخية والقومية والجغرافية هو أن نطلق عليهم «أقوام الجزيرة» أو «الأقوام العربية القديمة»»[١٣]

٥- الدكتور علي العناني في مقدمة كتابه (الأساس في الأمم السامية ولغاتها) ذهب إلى «أن الساميين جميعاً هم من الأصل العربي وأن لغاتهم ترجع إلى لغة عربية قديمة هي اللغة السامية الأولى، وأن منزلة اللهجات السامية من اللغة العربية هي منزلة الفروع الدانية من الأصل»[١٤].

٦- الدكتور صلاح حسنين ذكر لنا أصح الآراء وأكثرها اتفاقاً مع حقائق التاريخ وأيد كلامه بآراء المستشرقين، ما نصه: «يقول سايس **sayce** في كتابه النحو الأشوري.**assurian gr** الذي أصدره في لندن عام ١٨٧٢ «تشير كل المأثورات السامية إلى أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للساميين.والحقيقة أن الجزيرة العربية هي الجزء الوحيد من العالم التي تضم الشعب السامي الأول، وذلك أن خصائص هذا الشعب مثل التمسك

بالعقيدة والقوة والشمولية والتخيل، خصائص ترجع إلى أثر الصحراء على الإنسان.» ويقول شبرنجر springer في بحثه عن الخصائص الجغرافية القديمة للجزيرة العربية Alte Geograrabiens الذي نشره في عام ١٨٧٥ «إني مقتنع تماماً ان كل الساميين ليسوا سوى طبقات متتالية من العرب»[١٥].

ولكي تتم الحقيقة لدينا أري لزاماً عليّ التعرف على كلمة (عرب) واستعمالها القديم، ذاكرًا بعض الأدلة العلمية على ما أقول، حتى لا يكون ما نتوصل إليه مجرد ظنون أو أوهام.

تعدّدت آراء العلماء قديماً وحديثاً حول معنى كلمة «عرب» ونوجز آراءهم على النحو التالي:

الرأي الأول :

«العرب» يلفظ به للدلالة على الفصاحة والإعراب والبيان. والظاهر أن لفظ «عرب» هو مصدر للفعل: عرب يعرب، ثم نقل إلى معنى الصفة المشبهة للمبالغة، للدلالة على فصاحة اللسان، ومنه قولهم في الحديث: «الثيب تعرب عن نفسها والبكر رضاها صمتها»[١٦].

قال ابن فارس: «العين والراء والباء أصول ثلاثة: أحدها الإنابة والإفصاح، والآخر النشاط وطيب النفس، والثالث فساد في جسم أو عضو. فالأول قولهم: أعرب الرجل عن نفسه، إذا بيّن وأوضح...... فأما الأمة التي تسمى العرب فليس ببعيد أن يكون سميت عرباً من هذا القياس، لأن لسانها أعرب الألسنة وبيانها أجود البيان.....واعرب الرجل إذا أفصح القول، وهو عرباني اللسان: فصيح وأعرب الفرس: خلصت عربيته»[١٧].

وهذا التفسير اللغوي سمى به العرب الذين وجدوا في العصر الجاهلي وبعده، لأنهم أتقنوا التعبير الفصيح المبين، وجودوا صياغته وأداءه على أحسن ما يكون.

الراي الثاني :

لفظ «العرب» مأخوذ من «يعرب بن قحطان»

جاء في لسان العرب لابن منظور أن «أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرُب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم فتكلم بلسانهم، فهم وأولاده، العرب المستعربة.»[١٨] ويفهم من هذا أن الأمة العربية ضاربة في القدم، تشمل أبناء عاد وثمود وغيرهما من العرب العاربة في الأحقاف ووادي القرى بالجزيرة العربية.

الرأي الثالث :

إن لفظ (عرب) مأخوذ من (عربة) وهي مكة على الأرجح يراد بها أولاد إسماعيل، نسبة إلى بلدهم. يقول ابن منظور: «إن أولاد إسماعيل نشأوا بعربة، وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم..... قال الأزهري: والأقرب عندي أنهم سمعوا عربا باسم بلدهم العربات، وأقامت قريش بعربة فتنّخت بها، وانتشر سائر العرب في جزيرتها، فنسبوا كلهم إلى عربة لأن أباهم إسماعيل صلى الله عليه وسلم بها نشأ، وربل أولاده فيها فكثروا، فلما لم تحتملهم البلاد انتشروا وأقامت قريش بها»[١٩].

الرأي الرابع:

لفظ (عرب) يرادف لفظ (البدو) أو (البادية) أي بمعنى لفظ (الأعراب) عند علماء الدراسات اللغوية المقارنة. ومن المعلوم أن الاسم (عرب) لم يوظف من

قبل سكانه للتعريف بأنفسهم على الرغم من وروده لدى الأشوريين والإغريق للدلالة على سكان جزيرة العرب الرُّحَّل. وقد أوجد هذا الأمر مجموعة من المستشرقين المعاصرين يذهبون إلى أن العرب استحدثت نسبها إلى إبراهيم بعد الإسلام في مواجهة يهود الجزيرة الذين كان لهم كتاب يحفظون فيه أنسابهم، وهو اتهام يفتقر لحد معقول من البرهان العلمي والتماسك المنطقي.

وقد أشار جورجي زيدان إلى وجود العرب قبل الإسلام، فقال: «أما في التاريخ القديم – على عهد الفراعنة والأشوريين والفينيقيين – فكانوا يريدون بالعرب اهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي النيل، في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب، ويدخل فيها بادية العراق والشام وشبه جزيرة سينا وما يتصل بها من شرقي الدلتا والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر»[٢٠].

وذهب الدكتور مراد كامل إلى أن «الرأي الراجح عند العلماء الآن في ان العرب بمعنى (الغرب) اسم أطلقه سكان العراق من الساميين على قبائل الصحراء غربي العراق»[٢١]. وهذا ما قاله المستشرق «فانديك» وطرحه جورجى زيدان: «وسموا عرباً من «عِرِب» بالعبرية أي: أرض الظلام أو الغروب، والعبرانيون لا يميزون بالصورة بين العين والغين، ومن هذه اللفظة أيضاً أوربا وعروبا(أوربا) »[٢٢].

ما سبق ذكره يؤكد لنا أن شبه الجزيرة والمنطقة المتاخمة جنوب الهلال الخصيب، يطلق عليها كلمة (عرب)، وليس الشعب الذي استقر في شبه الجزيرة ولم يفارقها بسبب الهجرات الكبرى، ونراهم قد اضطروا نتيجة بقائهم في الصحراء ممتهنين تربية الجمال واحتراف الزراعة، فحافظوا على لغتهم، بصرف النظر عن اللهجات التي كانت موجودة بجانب اللغة العربية وقد تحولت هذه اللهجات العربية مع متكلميها الذين هجروا الجزيرة إلى لغات مستقلة.

وقد استدل بعض العلماء على خصب بلاد العرب في عصور ما قبل التاريخ ووجود ثلاثة أنهر بها في ذاك العصر، ولهذا ذهبوا إلى أن الموطن الأصلي للساميين كان في شبه الجزيرة العربية، ولكن مما لا شك فيه أن موطن الساميين في العصر التاريخي هو شبه الجزيرة العربية، وأن الموجات السامية التي عرفناها في التاريخ خرجت من الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي أو الشمال الغربي أو الجنوب.

الأولى: الأكدية بدأت من الألف الرابعة قبل الميلاد نحو العراق.

الثانية: الكنعانية بدأت حوالي سنة ألفين قبل الميلاد نحو الشمال الغربي.

الثالثة: الآرامية بدأت حوالي سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد نحو الشمال.

الرابعة: اليمنية والحبشية بدأت حوالي سنة ألف قبل الميلاد نحو الجنوب.

الخامسة: العربية بدأت في القرن السادس الميلادي نحو الشمال.(٢٣)

والآن يمكننا القول بأن كلمة (العرب) الأصلية في مادتها كانت تعني الماء الكثير، واشتقت منها كلمة (أعراب) التي تعني القوم الذين لا ماء لهم فيعربون إلى الماء، ويرتادون الكلأ، ويتتبعون مساقط الغيث ومكان المياه. ويبدو أن كلمة (أعراب) استمر استعمالها على هذا المعنى حتى نزول قول الله تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**﴾ إذ تطور معناها فصارت تعني السب والشتيمة بين العرب أنفسهم، فاستعيض عنها بكلمة (عرب)، وماتت كلمة (أعرابيّ). وأصبحت الكلمة الشائعة (عرب) تدل على من حافظ على حياته البدوية، ويظهر ذلك في استخدامه في لغته أسماء الحيوانات والنباتات والصحراء في صورة أنقى حسب النموذج اللغوي العربي القديم.

يقول الدكتور «فيليب حتى»: «لفظة (العرب) من ناحية الاشتقاق سامية معناها (البادية) أو (ساكن البادية)، وهي لا تعين قومية صاحبها، وهذا هو المعنى الذي أدته في العبرية. وفي القرآن (الأعراب) هم البدو. وفي سفر المكابيين الثاني جاءت كلمة (العرب) بمعنى (البدو). وأول نص صريح لمعنى هذه اللفظة في التوراة إنما هو في (أرميا ٢٥/٢٤) - (ملوك العرب). وغالب الظن أن (الملوك) المشار إليهم هم مشايخ الشمال وبادية الشام، وما أقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صار هذا اللفظ يطلق على سكان الجزيرة كائنا من كان»[٢٤].

وقد نحا هذا النحو الدكتور «جواد على» فقال: «وخلاصة ما تقدم أن لفظة (ع ر ب) ي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغات السامية، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا وهي النصوص الأشورية. وقد عنت بها البدو عامة مهما كان سيدهم أو رئيسهم. وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم. ولما توسعت مدارك الأعجام وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب توسعوا في استعمال اللفظة حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية وأن حياتهم حياة أعراب. ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم فصارت علمية عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها»[٢٥].

ولا يتسع المقام لبسط كل الأقوال السامية حول كلمة (عرب) ويكفي أن نذكر ما أثبته «جزينيوس **Gesenius**» في معجمه، إذ ذكر ستة معان مختلفة، وهذه المعاني هي:

١- المزج والخلط، وهذا المعنى موجود في السريانية والعبرية. وقريب من هذا المعنى «غربل» (اللام زائدة) بإبدال العين غيناً.

٢- التعهّد والوعد. ومن هذا الجذر كلمة (عُربون) الذي هو في العبرية **עֵרָבוֹן**

eravon'. ومن هذا المعنى اشتقت الكلمة السريانية «العـرّاب» ومعناهـا الرجل الذي يتعهد الطفل وقت العماد، ويتولى تربيته الدينية.

٣- الحُسْن والجمال. ومن استعمالها (امرأة عروب) أي: حسناء- وجـاء فـي العبرية עָרֵב ārev' اللطيف، العذب، المليح.

٤- الجفاف والنـشف. وجـاء فـي العبريـة עָרוֹב ārōv' بمعنـى الجفـاف الصحراوي، أسراب الوحوش.

٥- الغَروب أو الغرب، أو المغرب، ومن ذلك المعنى في العبرية كلمـة עֶרֶב مساء، كل مساء، قبيل الغروب.

٦- شجر الحور، وهو في العربية: «الغَرَب» ضرب من شجر الصفصاف يزرع حول الجداول. ويقابله في العبرية עֲרָב ērav' (٢٦)

وورد لفظ «عروبة» مراراً في الشعر العربي للدلالة على يوم الجمعـة، اليوم السادس في الأسبوع، قال عنه ابن فارس: «فأما يوم الجمعة فإنه يـدعو العَرُوبة» وهو اسم عندنا موضوع على غير ما ذكرناه من القياس ويقولون: إنه كان يسمى في الزمن القديم العروبة. وكتاب الله وحديث رسـول الله (ﷺ) لـم يجيء إلا بذكر الجمعة، على أنهم قد أنشدوا:

.... يوم العروبة أوراداً بـأوراد (٢٧)

وأنشدوا أيضاً:

يا حسنة عند العزيـز إذا بـدا   يوم العروبة واستقرّ المنبر (٢٨)

وكل هذا عندنا مما لا يعوّل على صحته. (٢٩)

إن كلمة (عروبة) بمعنى الجمعة هو استخدام صحيح، ونفصل القول فيـه هنا لنؤكد قدم اللغة العربية، والعرب الأوائل هم الذين اسـتخدموا هـذا اللفـظ

السامي المشترك في اللغة العربية وفروعها. فكلمة (عروبة) هي تسمية عربية قديمة، نجدها في الأرامية اليهودية עֲרוּבָה arūvā' وفي الأمهريـــة (عَــرْب)، ويظهر علاقتها الاشتقاقية بكلمة (غرب) و (عرب) وهذا يتفق مع يوم الجمعـــة الذي هو اليوم الأخير من الأسبوع مما يدل على الانتهاء والأفول الـــذي يـــدل عليه الغروب.

ويبدو أن هذه اللفظة (عروبة) قد انتقلت من اللغات العربية إلـــى اللغـــات الأوربية، يقول الدكتور «إسماعيل عما يره»: «وتسمية الجمعة بالعروبـــة أي يوم «الغروب» يذكر بما حصل في بعض اللغات الأخـــرى غيـــر الـــسامية، فالألمانية مثلاً سمت يوم السبت **Abendsag** أي يوم الغروب [٣٠].

ومن الحقائق التاريخية المهمة التي كشفت عنها البحوث العلمية أنـــه قـــد «جاءت أسماء عدد من قبائل جنوب الجزيزة في بيان الأمـــم الـــذي ورد فـــي الإصحاح العاشر من سفر التكوين، من سلالة «سام» مثل حضرموت وشـــيبا وأوفير. بل إن كلمة (عرب) قد جاءت في سفر الخروج للدلالة علـــى بعـــض الأقوام الذين كانوا مع موسى في القرن الرابع عشر قبل للميلاد، فقد جاء فـــي الإصحاح الثاني عشر : «فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس إلى ســـكوت .... وصعد مهم عرب (لفيف) كثير أيضاً» .

وبينما الكلمة العبرية هنا هي بكل تأكيد «عرب» فإنه نظراً لأن المترجمين كانوا لا يعترفون بوجود العرب في مصر في تلك الحقبة من الزمان، فهم قـــد ترجموها على انها تعني «لفيف».

ونحن نجد العديد من الإشارات التي تؤكد أن المديانيين الذين سكنوا سيناء منذ بداية التاريخ كانوا من العرب [٣١].

إن ذكر العرب كشعب ورد في المخطوط الأشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، حيث اشتبكت قبائل عربية تحالفت مع ملوك وأمراء سورية (الأراميين) في صد هجوم شديد للجيش الأشوري الظاهر تحت قيادة سلمنصر الثاني عام ٨٥٣ ق. م في موقع قرقر جنوب جسر الشغور. وكانت مدينة هامة في الطريق بين حمص ودمشق.

وعرف قائد الجيش باسم «جندب» ونسب ذلك القائد في النقوش الأشورية إلى أربايا **Arbaya**، وهي صيغة أكادية من **Arab**.

* *

المبحث الثاني

اللغات المسماة بـ(السامية) تراث عربي قديم

اللغة العربية هي لغة العرب، وبهم سميت وعرفت، وقد أخذت تسميتها من اسمهم، كما ذكرنا سابقاً من أن لفظ (عرب) يعني البدو من بدو وحضر.

وقد تبين لنا من دراسة اللغة العربية، ومقابلتها بغيرها من اللغات الأشورية والكنعانية والعبرية والآرمية أن جميع هذه اللغات يكثر بينها التشابه، فهي مشتقة أو متفرعة عن دوحة واحدة وأن تلك اللغة الأصلية لجميع هذه اللغات كانت في شبه جزيرة العرب ثم نجمت منها لهجات مختلفة، هاجر بها بعض المتكلمين إلى بلاد شتى فكونت لنا ما عرف باللغات بعد أن بدأت المخافة للأصل العربي تبرز وتنمو[٣٢].

وحدث أن العرب قديماً وحديثاً لم يهتموا بالتأريخ للغة العربية ولم يتركوا لنا وثائق مكتوبة محددة تدل على أول مجموعة بشرية عاشت في جزيرة العرب، لذا صار البحث في تأريخ اللغة العربية من أشق فروع البحث اللغوي، بما يتطلبه من معرفة باللغات المسماة بالسامية التي حظيت بالتدوين قبل الميلاد، ومنها كتاب «العهد القديم» الذي يعدّ مصدراً هاماً من مصادر الحياة العربية القديمة، بل ومصداً هاما من مصادر الأدب العربي القديم، وكما يقول الدكتور محمد خليفة حسن: «العهد القديم مليء بالإشارات والموضوعات التي تشير إلى عرب شبه الجزيرة العربية مما يجعله بحق أحد المصادر الأساسية لتاريخ العرب وحياتهم وأنشتطهم، كما يوضح الدور الديني للعرب في صياغة ديانة بني إسرائيل، ودورهم أيضاً في تشكيل جانب من الإنتاج الأدبي المنسوب إلى الإسرائيليين. وهنا تظهر بالذات أهمية كتاب العهد القديم في التأريخ للأدب العربي القديم، حيث اشتمل على قصص وروايات عربية الأصل وجدت طريقها إلى الأدب العربي القديم، إما عن طريق الترجمة أو عن طريق التبني المباشر

لبعض القصص العربي ونسبته إلى بني إسرائيل بعد إدخال تعديلات عليه ليناسب الحياة الإسرائيلية وظروفها»[٣٣].

إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي لم ينقطع استعمالها منذ بدايتها حتى الآن، ولذلك ليس هناك عربية قديمة وعربية حديثة، وإنما هي عربية واحدة، تطورت على مدى آلاف السنين، محافظة على قواعدها واشتقاقاتها كما بدأت بها، فكما يقول أحد الباحثين: «لقد ثبتت اللغة العربية أقدامها في أية بقعة هبطتها حتى في عهد الاحتلال الفارسي واليوناني والروماني. ولم تستطع أية لغة أخرى أن تحل محلها وتمحوها، بل محت الجميع - الغازية والمستعمرة - وظلت صامدة كالطود أمام جميع الهزات والأعاصير، وما ذاك إلا لمرونتها وخفتها على اللسان والسمع وقدرة اتساع فقهها اللغوي في الاستيعاب وترجمة الأفكار والمشاعر سواء في ذلك الشعر والنثر.»[٣٤]

وننتقل الآن إلى عرض بعض المواد اللغوية في اللغات المسماة بـ(السامية) من أجل بيان قوة اللسان العربي فيها، وإظهار ما يدل على رسوخ الأصل العربي لدى هذه اللغات.

أولاً : اللغة الأكدية:

هذه اللغة المعهودة هي من الناحية التاريخية إحدى لغات المنطقة العربية، تسري فيها خصائص متشابهة مع اللغة العربية، منها ظاهرة الإعراب التي وجدت في النقوش الأكادية، وحين ننظر في نصوص العصر الجاهلي نجد لغة عربية وصلت إلى الكمال والنضج، وينتظم فيها الإعراب بكل صوره. وهذا يدل بصراحة متناهية على تطور طويل الأمد، ولا يمكن أن تكون طفولة العربية وجدت في العصر الجاهلي، فهذه مرحلة التمام للغة سبقها وجود لغة قديمة أكثر سذاجة وبساطة.

وهناك ظواهر لغوية عديدة تتفق فيها العربية والأكدية غير ظاهرة الإعراب، منها التأنيث بالتاء، وجمع المذكر بالواو والنون، وظاهرة التنوين العربية التي نراها في صورة التمييم، كما نجد المشابهة بين اللغتين في جذور الأفعال الثلاثية، وأصول المفردات، والضمائر، وأسماء الأعداد، وألفاظ القرابة، وأعضاء الجسم المزدوجة، وكذلك ألفاظ العادات والتقاليد العربية أو الصحراوية.

ولذا نرى أن لغتنا العربية عميقة الجذور، تعود إلى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، كما أنها ممتدة الفروع، وارفة الظلال، لم تدخل مكاناً إلا وسيطرت عليه، وضمته تحت جناحيها. وهذه حقائق تتجلي باستمرار مع العثور على نقوش أكادية جديدة، ومنها تظهر أسرار هذه اللغة وصلتها باللغة العربية الأم.

ثانياً : اللغة الكنعانية:-

الكنعانيون نسبة إلى «كنعان» التي كانت تعني إلى وقت قريب الأرض المنخفضة – منطقة سوريا – تمييزاً لها عن مرتفعات لبنان. وفي أصل كلمة «كنعان» خلاف، فالتوراة تشير صراحة إلى أنه اسم علم توراتي، وهو ابن حام ابن نوح، ثم تنزل عليه اللعنات، وعلى من ينتسب إليه من الكنعانيين.

ومن المعلوم تاريخياً أن الكنعانيين انشطروا إلى قسمين: قسم منهم سكن فلسطين واحتفظوا باسمهم، وقسم منهم سكن سوريا ودعوا بالفينيقيين. ولا أريد هنا أن أسرد تاريخ كل قسم، فهذا يطول بي وليس بحثنا مجاله، بل سنركز الحديث على اللغة التي تتفق وتتشابه مع لغتنا العربية.

اللغة الكنعانية لغة ميتة منذ زمن بعيد، فلدينا نقوش كنعانية مكتشفة ليست قليلة، ولكن لوحظ عليها عدم تطور نظامها الكتابي، كما حدث في أخواتها، فما زالت هذه النقوش تهمل الحركات الطويلة إلى حد كبير. ويبدو أن الشعب الكنعاني لم يكن مهتماً بتدوين حضارته.

وعلى كل حال، فإن أعظم ما قدمه الكنعانيون إلى العالم هي أبجديتهم الصوتية الهجائية التي مثلت كل صوت من أصوات اللغة بعلامة خاصة، والتي غدت أساساً لجميع أبجديات العالم المتمدن في الشرق والغرب.

وأقدم شكل لهذه الأبجدية عثر عليه حتى الآن هو ما كشف في سنة ١٩٢٦في رأس شمراء على بعد بضعة كيلو مترات شمال مدينة اللاذقية على الساحل السوري. ويرتد تاريخ هذه الأبجدية الأوغاريتية (نسبة إلى المدينة الكنعانية القديمة التي جرى التنقيب في خرائبها) إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد [٣٥].

كما أن اللغة الأوجاريتية تحتفظ بظاهرة المنع من الصرف، وهذا يؤكد أنها ظاهرة قديمة احتفظت بها العبرية، في حين أن سائر اللغات فقدتها مع الزمن، كما أن الأوجاريتية فيها ظاهرة التعريف بأل كالعربية واستعمال الاسم الموصول (ذو)، وحرف العطف(الفاء)، وهي ظاهرة عربية قديمة.

وقد أثبتت الندوة العالمية الأوجاريتية التي أقيمت في اللاذقية بمناسبة مرور خمسين عاماً على اكتشاف مدينة أوجاريت الكنعانية – ومن خلال الوثائق – أن اللغة العربية هي المرجع والمصدر الحقيقي الذي يفسر لنا هذه الاكتشافات الجديدة، كما أثبتت أن اللغة العربية استعملت بأشكال شتى في إيضاح معاني الأوجاريتية، وقد فطن «كلود شيفر» مكتشف أوجاريت إلى هذا الأمر فقال: «إن اللغة الأوجاريتية الكنعانية تؤلف أقدم مصدر للغة العربية»[٣٦].

وقد استرعى انتباهنا في معجم **Gesenius** إشارته إلى أن الكنعانيين لم يتمكنوا من تأسيس إمبراطورية بالمعنى السياسي لهذا المصطلح، ولكنهم استطاعوا إنشاء مستعمرات تجارية [٣٧].

وما سبق يعزز قولنا من أن الكنعانيين عرب، ولغتهم هى إحدى اللهجات العربية للغة الأم كما صرح بذلك عدد لا بأس به من المستشرقين وعلماء العربية المحدثين.

ثالثاً: اللغة العبرية القديمة:

جاء العبرانيون إلى أرض كنعان من الصحراء بعد وفاة موسى عليه السلام وتولي خادمه يشوع بن نون قيادة جيشه، وكانوا يتكلمون بلهجة آرمية أقرب إلى العربية منها إلى لغة أخرى. وحين دخلوا كنعان تكلموا بلغة سكانها الأصليين، أعني اللغة الكنعانية، وأطلقوا على أنفسهم مصطلح (عبري) الذي يدل على الترحال والتنقل، ولا يختلف عن لفظ (عربي) سوى في تقديم حرف الباء على الراء، للدلالة على عبور الصحراء أو النهر. ومن العجيب أن هؤلاء العبرانيين بعد أن استقروا في كنعان وعرفوا المدنية والحضارة صاروا ينفرون من كلمة (عبري) التي تذكرهم بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يطلق عليهم اسم (بنو إسرائيل) فقط.

إن التقارب اللغوي بين مصطلحي «عربي» و «عبري» لهو دليل دامغ على أصالة العربية وحداثة العبرية التي هي خليط من اللهجة الآرامية واللهجة الكنعانية، وليست لغة أصيلة قائمة بذاتها كبقية اللغات.

وإذا قلنا أن اللفظ (عبري) لم يدل على لغة اليهود في بداية وجودهم في أرض كنعان، بقدر ما يدل على القوم الذين دأبوا على التنقل والترحال فإننا كذلك نميل إلى أن لفظ (عربي) قد أطلق على اللغة الأولى في جزيرة العرب، لكن المستشرقين أنكروا هذه التسمية إلى أن بلغت الكمال وطوّفت في أنحاء العالم، وظهر أغلب عناصرها من الأعراب فاصطلح على تسميتها باسم «العربية» وجعلوا بداية وجودها في العصور القريبة من ظهور الإسلام.

ونختم حديثنا هنا بما قاله الدكتور/ محمد سالم الجرح عن هذا التقارب اللغوي بين العربية والعبرية بشكل أوضح حيث يقول: «كلما تقدمنا في دراسة اللغة العبرية ازداد اقتناعنا بهذا الشبه القوي بينها وبين العربية، فعلى مستوى الدراسة الصوتية تتشابه اللغتان فيما تستعملان من أصوات تشابها يكاد يكون تاماً، وكذلك على مستوى الدراسة المقطعية، يكاد النسيج المقطعي في اللغتين يكون متفقاً تماماً. فإذا تركنا هذا وذاك إلى مستوى الصيغ والكلمات، وجدنا التشابه مرة أخرى قوياً وأكيداً، حتى أنه يمكن أن ترد كل صيغة عبرية إلى أصلها العربي، كما يمكن أن نجد للأكثرية الساحقة من المفردات العبرية مقابلاً عربياً.

وفي دراسة الجمل والتراكيب تعود صلة القربى بين اللغتين فتؤكد نفسها مرة أخرى، بل إنها لتؤكد نفسها في المنطق والفكرة التي تقف وراء الجمل والعبارات.... كل هذا يؤكد وحدة الأصل بين اللغتين العبرية والعربية»[٣٨].

رابعاً: اللغة الآرامية:

الآرامية هي القسم الثاني من اللغات الغربية الشمالية، فقد ظهرت بعد الكنعانية بفترة وجيزة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، ولذا يظهر الشبه قوياً بين العبرية والآرامية. ولكن اللغة الآرامية اتسعت المناطق التي ظهرت فيها هذه اللغة، فشملت كل سوريا وبوادي الشام وفلسطين ومنطقة دجلة والفرات في القرن الأول الميلادي، ونتج عن اتساع مناطق الآرامية أن تشعبت إلى لهجات عديدة.

لقد عثر المنقبون على العديد من النصوص الآرامية في شمال سورية كما تم العثور على مكتبة آرامية تخص الجالية اليهودية التي كانت تعيش في جزيرة فيلة – التي تقع وسط النيل عند أسوان – ترجع إلى القرن الخامس قبل

الميلاد. وكذلك تم العثور عام ١٨٨٣ على حجر في «تيماء» بشمال الجزيرة العربية – موجود الآن بمتحف اللوفر في باريس – وجدت عليه كتابة باللغة الآرامية.

وأهمية هذا الحجر أنه يحمل اقدم كتابة عثر عليها حتى الآن في هذه المنطقة، إذ إنه يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد [٣٩].

هذه اللغة الآرامية اتسمت بالمرونة كاللغة العربية، ويحسب لها السيادة الأولى على اللغات السابقة عليها، فقد قضت الآرامية بالتدريج على اللهجة الأكادية، ثم على اللهجات الكنعانية – ومن بينها العبرية التي ماتت على ألسنة اليهود قبل ميلاد المسيح، وحلت محلها إحدى اللهجات الآرامية. هذه السيادة للآرامية هيأت للعربية الانتشار بعد مجيء الإسلام، والقضاء على الآرامية في كل المناطق التي فتحها المسلمون بعد مجيء الإسلام.

وهناك لهجات آرامية عديدة – منها السريانية – ظهرت في أرض العراق وسورية منذ بداية الألف الثانية قبل ميلاد المسيح. ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى ما هو أقدم من هذا التاريخ الزمني للآرامية ولهجاتها، وهو أن (إبراهيم) عليه السلام كان من القبائل الآرامية، ولم يجعل من نفسه أمة مستقلة، بل تنقل وراء الرزق، خرج من أور هرباً من وجه نمرود والتجأ إلى أبي مالك ملك الكنعانيين، ومن هنا نعتته التوراة بالعبراني أي المتنقل، ولا ينتمي إلى العبرية، وإنما المسألة هي أن أولاد يعقوب وذريته وجدوا أن القبائل الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم قد انحازت إلى الحنفية التي دعا إليها إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، لذلك هجروا اللغة الآرامية إلى اللغة الكنعانية التي مسخوها بالتغيير والزييف، حتى كوّنوا ما عرف باللسان العبري بعد ذلك بفترة ليست قصيرة.

خامساً: اللهجات (الجزرية) الجنوبية:

تؤلف اللغة العربية الشمالية مع اليمنية القديمة والحبشية شعبة لغوية واحدة عاشت في جنوب الجزيرة في مقابل الشعبة الشمالية المتمثلة في الكنعانية والآرامية ولهجات كل منهما. هذه اللغات الجنوبية تتشابه في المفردات وأصول الاشتقاق، وفي الصيغ وقواعد البنية وفي الجمل والتراكيب، بل وفي المعاني والأفكار، مما يدعونا إلى أن نؤكد انها لابد أن تكون متطورة عن أصل لغوي واحد، وهو العربية أو الجزرية الأم، التي كان يتكلمها الشعب العربي الأول في وطنه الموحد قبل أن تمزقه الهجرات وتوزعه في بيئات متفرقة.

ولعل مما يستأنس به في الحديث عن اللهجات الجنوبية ما نوجزه في نقاط:

١-اختلف المستشرقون في تقسيم اللهجات العربية فأكثرهم يعتمد القسمة الجغرافية إلى شمالية وجنوبية، وبعضهم يفضل القسمة التاريخية إلى بائدة وباقية، والذي نطمئن إليه أن كلتا القسمتين صالحة، فكل اللهجات العربية ترجع إلى لسان عربي واحد.

٢- اللهجات العربية الشمالية (الثمودية واللحيانية والصفوية) واللهجات العربية الجنوبية(المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية) هي لهجات عربية صحيحة لا تختلف عن اللهجة الفصحى بأكثر مما تختلف فيه لهجتا تميم وقريش أو أسد وهذيل.

٣- العربية الفصحى هي مزيج لطيف من اختيار موفق لخصائص لهجات عربية كثيرة أهمها القرشية والتميمية.

٤- الهجرة العربية التي صاحبت الفتوحات الإسلامية هي مثال حديث للهجرات القديمة التي حدثت منذ آلاف السنين، وكما قضت العربية - لغة القرآن

الكريم - على لغات عديدة في مصر والعراق وشمال أفريقيا، كذلك صاحبت الهجرات القديمة اللغة الجزرية الأم، ودخلها بعض التحريف، فصارت اللهجات منها لغات مستقلة مسماه بـ الأكادية - الكنعانية - العبرية - الآرامية.

٥- اللسان العربي بكل خصائصه وصفاته قديم قدم الأكادية وتمتد جذوره قروناً عديدة أكثر مما يقدر له المستشرقون.

وأيضاً استمرت العربية في تاريخها الطويل لغة بدوية تعبر عن حاجات القبائل التي عاشت في شمال الجزيرة العربية، وظل البدو - بعد مجيء الإسلام - هم الحجة في قضايا اللغة عدة أجيال على الرغم من دخول العربية مناطق جديدة ذات حضارات قديمة.

٦- اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تمكنت من البقاء قيد الحياة دون كل اللغات المتفرعة عنها، بل إن مفردات اللغة العربية الآن تفوق كل مفردات هذه اللغات مجتمعة، وتكاد تتفوق على أخصب لغات العالم، لما تحويه من مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة، وتعبر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان.

٧- اللغة العربية الفصحى تعد أحدث لغة جذرية(سامية) تم تدوينهاعلى الإطلاق، ولكنها في قواعدها تعد أقدم اللغات، ولا يمكن الاستغناء عنها في أية دراسة لغوية مقارنة، بل هي الأساس الأول والأخير في تحديد خصائص اللغة الأم التي وجدت في شبه جزيرة العرب آنذاك.

* *

المبحث الثالث

تفرّد العربية بالأصالة

اللغة العربية غصن شجرة مترامية الأطراف، متشعبة الجذور، ودراسة هذا الغصن يتطلب الإلمام بفروع هذا الغصن، وبالتالي من خلال المقارنة تتضح لنا أصالة العربية. وقد فهم ذلك كثير من المستشرقين الألمان، فشددوا في جامعاتهم على تعليم اللغة العربية في التخصص في اللغات السامية، لأن من يعرف العربية يسهل عليه دراسة بقية اللغات التي تشترك مع العربية في أصواتها وبنيتها وتراكيبها، وهذا ثابت في العربية الفصحى التي هي امتداد للغة الجزرية الأم.

أولاً : الأصوات التي تفرّدت بها العربية:

تعتمد اللغات الجزرية على الأصوات الصامتة الساكنة وأهملت الحركات، وتلجأ إلى الاهتمام بالحركات لتغيير المعنى أو إدخال تعديل عليها.

ونحاول هنا التركيز على ما تفردت له العربية في النظم الصوتية:

أ-وجود جميع أصوات الحلق في العربية واختفاء بعضها في لغات أخرى

فقد اكتفت العبرية مثلاً بأربعة أصوات حلقية هي الهمزة والهاء والعين والحاء، في حين أن الأكدية لم تبقَ إلا على الهمزة والخاء، واللغة العربية الفصحى هي اللغة الوحيدة التي بها ستة أصوات حلقية هي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء. كما حافظت العربية على خصائص صوتية تتعلق بأصوات الحلق منها ميلها إلى الفتحة، فأغلب باب المجرد فعَل يفعَل من الكلمات التي عينها أو لامها أحد حروف الخلق، مثل: سأل يسأل، نهر ينهر، فتح يفتح. والذي نؤكده أن أصوات الحلق الستة جاءت في صورتها السليمة في العربية الفصحى، وهي موروثة عن اللغة الأم.

ب- الإحتفاظ بالأصوات المطبقة، والأصوات الأنسانية:

تقل أصوات الإطباق في فروع اللغة الأم، ولم يبق منها سوى صوتين في العبرية هما الصاد والطاء، في حين أن العربية الفصحى قد اكتملت فيها الأصوات الأربعة للإطباق وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء. وحين توجد هذه الأصوات في العربية الشمالية والعربية الجنوبية القديمة فهذا دليل على أنها موجودة في اللغة الأم. ويبدو أن الجهد العضلي الزائد الذي يرافق صوتي الضاد والظاء كان وراء سقوطهما من العبرية مثلاً التي تستعيض عنهما بصوت الصاد. وصرنا نجد انحسارًا في أصوات الإطباق في اللهجات العامية المصرية كأن تتحول الصاد إلى سين، والطاء إلى تاء والضاد إلى دال، ومن المؤكد أن جانب السهولة والتيسير وراء هذا التحول كما أن العربية هي اللغة الوحيدة التي احتفظت بالأصوات الأسنانية «الذال والثاء والظاء» وتبدلت إلى أصوات أخرى هي «الدال والتاء والزاي» في أغلب اللغات المسماة بالسامية.

ج- نظام المقاطع الصوتية:

تتكون كل لغة من وحدات صوتية صغيرة مكونة من صوامت وحركات، تنتظم فيما بينها لتؤلف وحدات كبرى. ويقتصر نظام المقاطع في اللغة الأم على نوعين من المقاطع أولهما: المقطع المفتوح المكون من صامت + صائت قصير أو طويل وثانيهما: المقطع المغلق المكون من صامت + صائت قصير أو طويل فصامت.

وإذا ما تفحصنا أشكال المقاطع العربية فإننا سنجد أنها تختص بالآتي :

١-جميع الأشكال المقطعية تبدأ بصامت- كما هو حال المقاطع في الأصل- ومن ثم فلا وجود في العربية لمقاطع تبتدئ بحركة.

٢- لا يلتقي صامتان في بداية المقطع ولا في حشو الكلمة ولا في آخرها إلا في حالة الوقف فقط، أما اللغات الأخرى فقد استحدثت فيها التقاء صامتين في نهاية الكلمة كما في כָּתַבְתְּ Kâtavt (كتبْتِ)

٣- المقطع الطويل المغلق من نوع (صامت + حركتين + صامت) يوجد في النثر كثيراً كما في (شابة، دابة) وفي أواخر الكلم عند الوقف، مثل: المقطع «مين» من (المسلمين). ويشيع هذا المقطع في العبرية لعدم وجود الإعراب فيها وبخاصة صورة الفعل الثلاثي الأجوف في صورة الماضي الغائب نحو:

קָם qām قام   צָם sām صام נָם nām نام

يقول الدكتور صلاح حسنين: «المقطع الطويل المغلق لا يجوز في الشعر أصلاً إلا في الوقف، أي أنه لا يجوز فيه مثال: الضالّين وشابّة ومدهامتان. وإذا كان الشعر العربي لا يقبل مثل هذا النوع من المقاطع فالشاعر الذي يستخدم كلمة تحتوي على هذا المقطع يقحم همزة في الكلمة، أو بعبارة أخرى: قسم المقطع إلى مقطعين .... وهناك طريقة أخرى للتخلص من هذا النوع من المقاطع في الشعر وذلك بترك التضعيف»(٤٠).

كما تخلصت اللغة العربية من هذا المقطع المغلق ذي الصائت الطويل بتقصير ذاك الصائت كما يحدث في حالة جزم المضارع الأجوف، نقول:

يقوم ← لم يقُمْ

yaqō mu   lam yaqom

ومثل ذلك فعلته العبرية القديمة حين تدخل واو القلب على الفعل المستقبل مثل:

וַיָּקָם vayyāqom بدلا من יָקוּם yaqūm

ثانياً: النظم الصرفية التي تفردت بها العربية:

أ- يرتبط المعنى الأصلي بحروف ثلاثة في اللغات المسماة بالسامية تعرف بالحروف الأصلية، وتلتقي فيها مجموعة مختلفة من المشتقات. وهذه ظاهرة خاصة بهذه اللغات، وليس لها نظير في اللغات الهندوأوربية. وفي العربية توجد ألفاظ ثنائية نحو (يد، أب، أخ، أم، دم.) ويبدو أنها كانت ثلاثية الأصل، ثم اتخذت شكلها الثنائي في فترة لاحقة لكثرة استعمالها بين الناس، ولميل اللغات إلى السهولة والتخفيف.

يقول الدكتور رمزي بعلبكي: «إننا نريد أن نؤكد أن غلبة الجذور الثلاثية فيها عائدة، على نحو جزئي، إلى المقايسة، وذلك أننا كثيراً ما نلمس نزعة في هذه اللغات إلى تعميم الظاهرة الثلاثية، أي إلى نقل الثنائي إلى حيز الثلاثي، وإخضاعه بذلك إلى النمط الغالب في الجذور. وهناك دلائل على هذه النزعة يمكننا أن نذكر أهمها، وباختصار شديد، كالآتي:

١- أن الأسماء الثنائية تلحق بالثلاثي، وذلك في الجموع - ولاسيما جمع التكسير- وفي التصغير والنسبة، بإضافة صوت إلى صيغتها يقرّ بها من الصيغ الثلاثية.

٢- أن بعض القصور يقتصر على أصلين اثنين، كما يستدل بمقارنة أفعال مأخوذة منه إما في لغة سامية ما أو بين لغتين فصاعداً. ومثل ذلك في العربية «داك» و «دكّ» بمعنى، وجذرهما الدال والكاف.

٣- أن بين بعض الأفعال للثنائية المضعفة والأفعال الثلاثية التي تشترك معها في أصليها الاثنين مزيداً عليهما أصل ثالث، علاقة معنوية واضحة.ومن أمثلة ذلك في العربية: «سلّ» و «سلب».

٤- أن بعض الأفعال الثلاثية يشترك في أصلين اثنين، ويفترق فيما يثلث ذينك الأصلين، مع احتفاظه بنصيب من معنى مشترك.من ذلك في العربية الفاء واللام وما يثلثهما، نحو: «فلج» و «فلح» و «فلذ» و «فلع» و «فلق» و «فلى» وجميعها يفيد القطع.

٥- أن بعض الأفعال الثلاثية قد تكون فاؤه مزيدة على أصل ثنائي، علماً بان الأمثلة التي يأتي بها أصحاب هذا الرأي تأييداً له قليلة جداً، وبعضها غير مقنع. فمن هذه الأمثلة بعض الأفعال الثلاثية المصدرة بالسين، نحو: «سطح» أي: «بسط» من «طحّ» أو «طحا» وكلاهما بمعنى «بسط».

إن الاستنتاج الذي يستتبع ما تقدم هو أن للثنائيات وجوداً حقيقياً في الساميات، وأن منها ما أخضع للنمط الغالب من الجذور، أي النمط الثلاثي ومردّ ذلك إلى المقايسة.»

ب- التمييز بين التذكير والتأنيث يرجع إلى مرحلة مبكرة، فهو من المشترك السامي (الجزري) القديم، الذي يردّ إلى اللغة الأم، فلدينا أسماء لا يميز مؤنثها عن مذكرها بمورفيم التأنيث إنما تنتمي إلى مرحلة لغوية سابقة على القياس، وهي بمجملها أسماء قديمة جداً، حافظت عليها العربية الفصحى، من ذلك: (أب و أم، وعبد وأمة، وثور وبقرة، وحمار وآتان) ومثل هذا وجود وفرة من الألفاظ المؤنثة غير المنتهية بعلاقة تانيث مثل: (لسان، كبد) في العربية[٤١].

ج- يعبر عن المثنى في العربية بمورفيم خاص بها هو الألف والنون أو الياء والنون وكما يقول الدكتور رمزي بعلبكي: «يبدو أن النون التي في مورفيمي التثنية والجمع تنحدران من أصل مشترك، والراجح أنهما من التنوين الذي يلحق علامة الإعراب في المفرد، وأن اختصاص المثنى

بكسرة بعد النون واختصاص الجمع بالفتحة بعدها مردّه من مزيد إلى التفرقة بين الصيغتين، وذلك في مرحلة لاحقة على الأرجح»[٤٢].

ومن المعلوم أن المثنى انقرض في كثير من اللغات المسماة بالسامية ولم يبق إلا في حالات خاصة كالدلالة على أعضاء الجسم المزدوجة والأعداد المثناة، وأسماء الزمن المزدوجة. يقول الدكتور/ محمد بحر عبد المجيد: «يبدو أن التثنية من الظواهر اللغوية التي كانت في اللغة السامية الأم، واحتظفت بها العربية وبعض اللغات السامية مثل الأكادية والأجريتية، وفقدتها اللغات السامية الأخرى»[٤٣]. وما زالت العربية الفصحى تستخدم ضمائر التثنية واسماء الإشارة المثناة وأسماء الموصول المثناة، وذلك كله غير موجود في العبرية والآرامية.

د- جموع التكسير في اللغات الجنوبية: استخدمت اللغات العربية الجنوبية جموع التكسير باطراد، وإن كانت سماعية، كما أن بعض اللغات العربية الشمالية، كالعبرية، فيها بقايا من هذا النوع من الجمع، وقد اختلف حولها الدارسون، والغالب في تفسيراتهم أن أوزان جموع التكسير في اللغات الجنوبية هي من الأصل السامي القديم، كما أن اللغة العربية الفصحى توسّعت في هذا الجمع، يقول الدكتور محمد بحر عبد المجيد: «يبدو أن جمع التكسير أقدم من جمع التصحيح، وقد عرفتها السامية الأم، وربما لم تعرف جمع السلامة الذي ظهر في اللغات التي تولدت منها، أي أن جمع السلامة تطور وليس أصلاً»[٤٤].

وقد ذهب كثير من المستشرقين إلى أن جموع التكسير كانت في الأصل أسماء مفردة لها معنى كلي، تطورت بعد ذلك إلى جموع لأسماء مفردة معينة، فليست جموع التكسير مشتقة في الأصل من أسماء مفردة «بتكسير» صيغ هذه الأسماء المفردة، كما يقول النحاة العرب، أي بتغيير حركاتها وإضافة حروف

إليها أو حذف حروف منها، وإنما هي موضوعة أصلاً في صيغ مفردة للدلالة على ضمانات كلية (٤٥).

والخلاصة: جموع التكسير من اللغة الأم، فصيغها مطردة في اللغات الجنوبية وبخاصة العربية الفصحى، وبقيت ثمة آثار لجمع التكسير في الشمالية الغربية كالعبرية والآرامية، والقارئ للمصادر النحوية القديمة ككتاب سيبويه والمقتضب للمبرد، يلمس مدي توسع العربية في استخدام أوزان جمع التكسير وتحديد العلاقة بين أوزان هذا الجمع وأوزان المفرد، كأن يقال « فِعال» جمع لـ «فَعْل» و «فَعَل» و «فَعَلَة» إلخ.

هـ- وجود صيغة (أفعل) في معانيها المتعددة: الوصف، والتعجب، والتفضيل، مما لا وجود له في أية لغة أخرى من اللغات الجزرية (السامية). ومن المعروف أن التفضيل في العربية يجرى بصيغة (أفعل)، ومع ذلك فلدينا كلمتان للتفضيل على غير القياس، وهما (خير، شرّ)، ولعلّ ذلك يعود إلى مرحلة سابقة من مراحل تطور اللغة الجزرية الأم، حينما كان التفضيل يتم بذكر صفة متبوعة بحرف الجر ومدخوله.

ثالثًا: الخصائص النحوية التي تفردت بها العربية:

احتفظت اللغة العربية الفصحى بأكبر عدد من الظواهر التركيبية القديمة، والتي تشترك فيها أو في بعضها اللغات الجزرية(السامية).

أ- بناء الجملة:

قواعد تركيب الجمل في اللغات الجزرية (السامية) تعدّ سهلة إذا قورنت بنظائرها في اللغات الهندوأوربية. ويتجلى ذلك واضحًا في استخدام الجمل القصيرة المتوازية، والتي ترتبط أحيانا بأداة عطف، دون أن تتداخل الجملة أو تتعقد.

ومن الثابت أن بناء الجملة العربية قد شهد تطورًا كبيرًا قياسًا على ما نعرفه عن العنصرين الصوتي والصرفي. وقد شاع فيه الجمل التي تتسم بالبساطة، وعدم التداخل، وتراها كأنها مرصوفة الواحدة تلو الأخرى. كما أن ترتيب عناصر الجملة العربية قائم على تصدر الفعل ويليه الفاعل ثم سائر عناصر التركيب، حتى قيل: «العربية لغة فعلية» «الجملة الفعلية أساس التعبير اللغوي». ويبدو أن هذا الترتيب هو الأصل، وما نراه في العبرية وغيرها من تقدم الفاعل على فعله هو تطور عن اللغة الأم.

ومن مميزات اللغة العربية أيضا وجود الجملة الاسمية المحضة، فيها أي التي تقوم على مبتدأ وخبر دون رابطة لفظية بينهما من فعل مساعد أو غيره كما هو الحال في مجموعة اللغات الهندية الأوربية. نقول «محمد ناجح» دون حاجة إلى فعل مساعد «يكون» أو ضميرًا «هو» أو نحو ذلك.

كما أن اللغة العربية بها قواعد واضحة لنظم الجملة وللعلاقة بين المفردات، كأن تتبع الصفة الموصوف، وألا يفصل – إلا في الضرورة – بين المضاف والمضاف إليه، وألا يقدّم ويؤخر الكلام إن لم يؤمن الالتباس، فكل شيء يجرى داخل الجملة العربية على وفق نظام دقيق خلت منه بقية اللغات الجزرية (السامية).

ب- الإعراب من أبرز خصائص العربية:

احتفظت اللغة العربية الفصحى بظاهرة الإعراب في صورة كاملة غير موجود في سائر اللغات الجزرية التي لم تعرف هذه الظاهرة في نصوصها.

أما اللغات التي عرفتها كالأكادية كثيرًا، والحبشية قليلا فقد اندثرت منها هذه الظاهرة، ولم يعد لها الوجود الكامل والحقيقي الذي نراه في العربية الفصحى.

يعدّ الإعراب أقدم السمات اللغوية في العربية الفصحى، فقد فقدته اللغات الأخرى ما عدا اللغة الأكادية قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي، ولا شك في أن وجود الإعراب في اللغة الأكدية الذي يعود تاريخها إلى ٢٥٠٠ قبل الميلاد، لهو دليل قوي على قدم اللغة العربية التي اشتركت مع الأكادية في هذه الظاهرة. ومن ثم فقد أصبح الإعراب صفة مميزة للعربية ليس بين لغات الفصيلة السامية فحسب، بل يميزها عن اللهجات العربية القديمة والحديثة.

ولقد نقل إلينا نحاة العربية القدماء جانبًا مهمًا من الوظائف النحوية التي يؤديها الإعراب بسبب ارتباطه بالعامل، الذي هو أحد أركان الدراسات النحوية. وكان الرأي السائد آنذاك أن العامل هو الذي يحدث ذلك الأثر الذي يسمي «علامات الإعراب» وهي الضمة علامة الرفع والفتحة علامة النصب، والكسرة علامة الجر، وذلك مع الاسم المفرد. وهذا النظام الإعرابي تم اختصاره إلى حالتين في الأسماء الممنوعة من الصرف، وتوسيعه في أبنية جمع التكسير إلى ثلاث حالات، بالإضافة إلى ابتكار نهايتين في جمع المؤنث تعقبان علامة التأنيث، خلافًا للمثنى وجمع المذكر اللذين يحملان علامة الإعراب قبل العلامة العددية. يقول أحد الباحثين المحدثين: « تدلنا المقارنة على أن النظام الإعرابي السامي، منذ النشأة، خص الضمة بالإسناد والفتحة بالمفعولية والكسرة بالإضافة، وهذا ما أدركه النحاة العرب في لغتهم، فقالوا إن الرفع علم الإسناد والنصب علم المفعولية والجر علم الإضافة إلا أن الفصحى نفسها كانت قد بدأت تنحو نحو التقليص التدريجي لهذا النظام الثلاثي فاقتصر بعض الأسماء فيها على علامتين إعرابيتين لثلاث حالات إعرابية، كما في الممنوع من الصرف وجمع المؤنث السالم، واقتصر بعضها الآخر على حالة واحدة، أي على البناء، نحو «أمس» و «ثلاث عشرة». أما العاميات العربية فقد خطت في ذلك خطى أبعد، لأن بقاءها حية على الألسن جعلها أكثر عرضة للتغير»(٤٦).

والواقع أن الدراسات اللغوية المقارنة لم تحصر مزية الإعراب في اللغة العربية في أنها قديمة مغرقة في القدم، وإنما أضافت إلى اللغة العربية أنها لغة حية تنمو جذورها وقواعدها مع مر الزمن، وكما يقول «برجشتراسر»: «إن العربية ابتدعت شيئين، الأول : إعراب الخبر والمضاف ... والثاني: عدم الانصراف في بعض الأسماء»[٤٧].

خلاصة ما تقدم أن اللغة العربية الفصحى التي ظهرت كآخر لغة جزرية (سامية) على الإطلاق من حيث التدوين هي أقدم اللغات التي بقيت حية، وفيها معظم العناصر اللغوية القديمة كظاهرة الإعراب وغيرها، ولذلك لايمكن الاستغناء عنها في أية دراسة لغوية مقارنة، وهذا باعتراف المستشرقين أنفسهم[٤٨].

وما يقال عن ظاهرة الإعراب ينطبق على كثير من الظواهر اللغوية الأخرى التي احتفظت بها اللغة العربية دون غيرها، أو أنها احتفظت بها بصيغتها وشكلها الأصليين من غير أن يطرأ عليها تغيير جوهري، وهذا كله ناتج عن حقيقة أن اللغة العربية نشأت وتطورت في الموطن الذي عاشت فيه اللغة الأم، وأنها لم تحل محل لغة أخرى، كما حدث لغيرها من اللغات المتفرعة عن اللغة الأم، كما أن مكان انتشارها الجغرافي وانعزالها النسبي ساعد هو الآخر على استقلالها ومحافظتها على خواصها القديمة بعيدًا عن المؤثرات الخارجية[٤٩].

رابعًا: الخصائص الدلالية:

إذا ألقينا نظرة فاحصة في معجمات اللغات الجزرية، وأحصينا مفرداتها لوجدنا العربية من أغناها على الإطلاق، بل تفوق كل مفردات اللغات الجزرية الأخرى مجتمعة، وتكاد تتفوق على أخصب لغات العالم لما تحويه من مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة، وتعبر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان.

ومن الثابت أن اللغات الجزرية (السامية) تشترك في مجموعة من الألفاظ الأساسية التي ترجع إلى أصل اشتقاقي واحد ومدلول واحد في مجالات مختلفة على النحو التالي:

١- ألفاظ أساسية، مثل ولد، مات، قام، زرع ، أكل.

٢- ألفاظ تدل على جسم الإنسان، مثل رأس، عين، أذن، يد، رجل، شعر.

٣- ألفاظ خاصة بالنبات، مثل: سنبلة، حنطة، شعير، ثوم، ...

٤- ألفاظ خاصة بالحيوان، مثل: كلب، جمار، ذئب، عجل، ليث...

٥- ألفاظ القرابة، مثل : ابن، بنت، أخ، أخت، أب، أم، عم، ...

٦- الأعداد الأساسية، مثل: واحد، اثنين، ثلاثة... مائه، ألف ...

٧- بعض وحدات الزمن، مثل: يوم، ليل، ساعة، أسبوع، سنة ...

٨- حروف الجر الأساسية، مثل : من، على، إلى...

ولدينا مفردات أخري تتكرر في العربية وغيرها من اللغات الجزرية (السامية) مما يؤدي فرضية أن العربية هي امتداد اللغة الجزرية الأم. ونلفت النظر إلى بعض هذه الكلمات:

١- كلمة (نهر) توجد بلفظها في جميع اللغات الجزرية (السامية) נָהָר nāhār في العبرية ويقابلها (نهر) العربية.

٢- أسماء الأعلام التي تدل على بعض المواضع التي تعود إلى تبادل فكرى وديني لا نعلم بدايته، لكنه يؤيد قدم العربية، ومن ذلك (تهامة) و (عدن) ... إلخ

٣- كلمة (انس) من الكلمات الشائعة الدلالة على الرجل، فهي في العربية جذرها (أن س) وفي العبرية אִישׁ، وتظهر النون واضحة في المؤنث אִשָּׁה 'eššā وفي جمع المذكر אֲנָשִׁים 'anašīm وفي جمع المؤنث נָשִׁים nāšīm.

وهناك ألفاظ تشترك جذورها الاشتقاقية في العربية الفصحى وبعض اللغات الجزرية، كالعبرية مثلا، ولكن دلالتها تطورت في إحدى اللغتين مثل (ل.ح.م) فهي تعنى (لحم) في العربية، و (خبز) في العبرية. وكذلك (ل.ب.ن) فمعناها (لبن) في العربية، و (أبيض) في العبرية، وكلتا الكلمتين يتفق فيهما اللفظ والمعنى في العربية، مما يدل على أن تطور الدلالة حدث في العبرية. وقد أشار الدكتور محمد بحر عبد المجيد إلى جانب التطور الدلالي فقال: « وعند انتشار العربية في بقاع مختلفة تطورت دلالات بعض الألفاظ في المجتمعات المختلفة التي وجدت فيها وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية، وأعطت لبعض الكلمات ظلالا دلالية لم تعرفها في بيئتها الأصلية تبعًا للظروف الحضارية الجديدة التي وجدت فيها مثل: وظيفة وطراز وصرع وربو وعرض وجوهر»(٥٠).

وكان الدكتور محمود فهمي حجازي قد ذكر أمثلة تؤكد قدم اللغة العربية في مقاله بعنوان : « اللغة الأجريتية بنيتها وعلاقتها بالعربية»، ومن هذه الأمثلة:

١- تبدو الأجريتية في أمثلة ذات أهمية في تاريخ كلمات عربية من ذلك كلمة (مصر). وهنا تظهر النقوش الأجريتية حاملة أقدم توثيق لاسم مصر المتداول في العربية ... وهكذا يتضح من النقوش الأجريتية أن اسم مصر عمره – على أقل تقدير ثلاثة آلاف وخمسمائة عام.

٢- وهناك كلمات لها تاريخها القديم ودلالتها المتغيرة، فكلمة (ق ر ت) وكذلك (ق ر ى ت) وردتا في الأجريتية بمعنى المدينة. وكثيرًا ما دلت هذه الكلمة

على مدينة أُجريت .. وهذه الكلمة لم يثبت ورودها قبل النقوش الأجريتية ولكن وجودها في لغات أخر - منها العربية والعبرية والفينقية والآرامية - يؤكد كونها مشتركة، ولكن حدث لها تغير دلالي في العربية، مع أن المعاجم العربية ظلت تذكر المعنى القديم.

٣- تشترك الأجريتية مع اللغات الأخرى في مئات الكلمات التي تعد من الرصيد المشترك في كل هذه اللغات. إن أكثر الكلمات التي أثبت اللغوي الألماني «برجشتراسر» وجودها مشتركة في هذه اللغات نجدها في الأجريتية كما نجدها في العربية. ومن ذلك تلك الألفاظ الدالة على القرابة (أب) (أم) (أخ) (أخ ت) (ب ن)، ونجد كلمة (أ ن ث) (أ ث ت) بمعنى أنثى. والحيوان مثل كلمة (ك ل ب)، وعلى النبات مثل كلمة (ب ق ل) (ح ط ت)...

٤- مفردات اللغة الأجريتية لها أهمية التأصيل المعجمي لكلمات عربية من ذلك الكلمات الآتية:

(إب) في الأجريتية، يقابلها (أبّ) في العربية بمعني الفاكهة، ولهذه الكلمة مقابل في السريانية من هذه الحروف الأصول.

(أ ج ن) في الأجريتية بمعنى النار، ومن ذلك في العربية (إجّانة) ولهذه الكلمة أيضًا مقابل في السريانية من هذه الحروف الأصول .....

وبعد فإن الأجريتية بهذه الخصائص اللغوية المشتركة مع العربية تقربنا من تصور تلك المرحلة التاريخية. هاجرت جماعات عربية من جزيرة العرب إلى منطقة الساحل السوري الشمالي، واحتفظت بلغتها، واحتكت بمصريين و وآشوريين وسجلت في النقوش صلاتها بهم ... ويبدو أن الأجريتين وأمثالهم يعيدون إلينا ذكر من وصفهم المؤرخون العرب باسم العرب العاربة»[٥١].

المبحث الرابع

عروبة النبي «أيوب» في صياغة يهودية

كتاب «العهد القديم» مليء بالإرشادات والموضوعات التي تشير إلى عرب شبه الجزيرة العربية، مما يجعله بحق أحد المصادر الأساسية لتاريخ العرب وحياتهم وأنشطتهم. كما أن الأدب العربي القديم في بعض جوانبه المبهجة يمكن فهمها من خلال مقارنتها بالأدب العربي القديم، فهناك صلة مادية ومعنوية بين اللغة العربية واللغة العبرية، وبين الأدب العربي والأدب العبري القديم.

ويعدّ سفر «أيوب» أحد أسفار العهد القديم ذات الطابع العربي، وحتى نكون منصفين هنا يجب علينا أن نعزل المادة العبرية اليهودية عن الأصل العربي حتى يمكننا الوصول إلى التصور الأول لهذه القصة.

يحكي سفر أيوب عن رجل صالح، يتقي الله، وينعم بصفاء النفس مع الأصدقاء، ثم يقع فريسة للمتاعب من كل جانب، يجرد من ثروته ثم يفقد عائلته وأخيرا يسيطر عليه المرض، وهو لا يعلم لماذا يفعل الله معه ذلك، وتظهر شخصية الشيطان في حوار مع الله الذي يتكلم عن إيمان أيوب بأنه حقيقي.. ويعرض السفر لكل مشاكل الوجود في عالم البشر وعالم الحيوانات.

إن النص العربي لسفر أيوب يثير مشكلات أكثر من أي سفر آخر في كل أجزاء العهد القديم، لذلك قال عنه «فرانسيس اندرسن»: «إن سفر أيوب دائرة معارف مصغرة للحياة قديما في الشق الأدنى، ولذا فإن بناءه الثقافي وخلفيته الاجتماعية تسهمان في تفسير الكثير من النصوص»[٥٢] ولهذا كله اشتهرت قصة «أيوب» بين الأمم، وادّعته كل أمة لنفسها. ومن أشهر من ادّعاه المصريون، حتى قيل: «أيوب المصري». والحق أنه ليس مصريا، بل هو من نسل إبراهيم عليه السلام، الذي يضرب به المثل في الصبر.

ولا نريد هنا أن نعرض لتلك المسائل الثقافية والاجتماعية والتي نراها موجودة في تفسيرات الكتاب المقدس، وقد يكون من تتمة الفائدة هنا أن نبرز عروبة النبي «أيوب» من خلال اللغة التي دوّن بها سفر أيوب، ففيها من الخصائص اللغوية التي يتميز بها هذا السفر عن غيره من أسفار العهد القديم. وكما يقول الدكتور محمد خليفة حسن: «والحقيقة أن نسبة قصة أيوب إلى أصل عربي رأي قال به بعض النقاد المتخصصين في دراسات العهد القديم وفي الدراسات العربية فالمعجم الخاص بالعهد القديم الذي وضعه العلامة جيزينوس يعرّف أيوب بأنه عربي تعريفا مباشرًا، ليس فيه لبس، والمستشرق «ألفرد جيوم» كتب مقالا هامًا بعنوان الخلفية العربية لسفر أيوب، وكذلك رد «مرجليوث» السفر إلى أصول عربية»[٥٣].

ويتضح ما نعنيه، من عروبة النبي أيوب وسفره، فيما جاء في مقولة الدكتور «جواد علي»: «... ومن علماء التوراة من يرى أن (أيوب) صاحب السفر المسمى باسمه أي (سفر أيوب)، وهو من أسفار التوراة، هو رجل عربي، إذ كانت كل الدلائل الواردة في سفره تدل على أنه من العرب»[٥٤] وقد قنع شراح التفسير الحديث للكتاب المقدس بأن «فكرة أن سفر أيوب قد كتب أولا بالعربية قد عبّر عنها قديمًا (ابن عزرا) ثم (جان جاك روسو) بعد ذلك، وكان الأخير متميزًا، لأنه لم يستطع أن يصدق بأن اليهود قادرون على إنتاج أي شيء يمثل هذه الروعة. وفي العصور الحديثة هناك كتاب (جلوم) الذي أكد فيه أن اللغة العربية هي أساس السفر، ومما يؤكد ذلك كثرة وجود كلمات عبرية وعربية لها نفس الأصل»[٥٥].

وتتوفر في هذا السفر مجموعة من الأدلة والخصائص التي تجعل منه سفرًا عربيا، صيغ في لهجة عبرية، ومن أهم هذه الأدلة والخصائص ما يلي:

أولاً: موضوعات سفر أيوب ذات طابع ديني فلسفي؟، عالج السفر، من خلال الحوار بين أيوب وأصدقائه، مسائل خاصة بالشر وأسباب وجوده في الحياة، والموت والمصير الإنساني، ومسئولية الإله عن الشر، وطبيعة الشيطان وطبيعة الخطيئة ومشكلة الشقاء الإنساني. يقول الدكتور جواد علي: «إن هناك تشابها يكاد يكون كاملا بين القصة السومرية والبابلية، والقصة الواردة في العهد القديم- قصة أيوب- من ناحية الموضوع وسرد الأحداث والطريقة الشعرية»(٥٦).

ثانيا: لم يتعرض السفر لنسبة «أيوب» كما جرت عادة الرواية من قدماء اليهود في ذكر اسم بطل القصة واسم أبيه، واسم السبط الذي ينتمي إليه من بني إسرائيل، ففي هذا السفر نواجه اسما كأنه نكرة، يبدأ السفر بـ(رجل في أرض عوض، اسمه أيوب)، وإن اختلف العلماء في مكانها فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب في (نجد) أو في بلاد الشام في حوران.

ثالثًا: الجزء الكبير من ثروة أيوب يتمثل في الجمال، وهي حيوانات غير طاهرة، تحرمها الشريعة الماسوية ذبائح للأكل أو دواب للركوب، ولم ترد إليها إشارة في توراة موسى. ثم إننا نجد الحمير من ضمن ثروته، ولكنه ركز على نوع الإناث منها، إذ إن ذكور الحمير لم يكن قد تم استئناسها تمامًا في ذلك الوقت. نجد ذلك في المقدمة للسفر (وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان بقر وخمسمائة أتان، وخدمه كثيرون جدًا، فكان هذا الرجل أعظم كل بني المشرق) (أيوب ١/ ٣).

رابعًا: عاش «أيوب» في زمن عرف فيه (الله) باسم (القدير) أكثر مما يعرف باسم (يهوه)، فقد تم إحصاء كلمة (قدير) بثلاثين مرة، ولذلك نستطيع أن نقول: إن سفر أيوب يدل على شخصية عاشت قبل موسى بقرون عديدة،

بدليل أن هذا السفر لم يذكر شيئًا عن نجاة بني إسرائيل من مصر، ودعوة إبراهيم إلخ.

خامسًا: تظهر ثقافات «بني المشرق» الذي ظهر فيهم أيوب، في هذا الشعر نجد القيم الاجتماعية التي كان عليها أيوب كالكرم والمروءة والشهامة وهي قيم عربية خالصة. يقول الدكتور محمد خليفة حسن «إن السفر لا يشير إلى بني إسرائيل تاريخيا أو دينيا أو ثقافيا. وتوجد إشارات سريعة لا تكفي لإعطاء بنية يهودية للسفر أو هوية يهودية لمؤلفه، منها إشارة واحدة إلى إله إسرائيل في المقدمة والخاتمة (وهما من الإضافات)، وذكر (يهوه) في خطب يهوه سبعة وعشرين مرة. ولا يوجد ذكر للاسم (إلوهيم) كمقابل ليهوه، بينما استخدم الاسم «إيل» ٣٨ مرة، والاسم شداي (خمسة وعشرين مرة) وكلها ترد بمعنى «إله» أو «الله» ولا توجد إشارات إلى مؤسسات يهودية. لهذه الأسباب وغيرها اعتقد فريق من العلماء أن كاتب سفر أيوب ليس عبرانيا أو إسرائيليا، لأن السفر لا يحتوي على شيء يختص بالإسرائيليين»[٥٧].

سادسًا: أيوب وأصحابه ليسوا إسرائيليين

١- اسم «أيوب» نفسه ليس عبريًا، فكما قال «جزينيوس» عنه: «إن معناه غير معروف، وقد يكون اسم مفعول من الفعل אָיַב بمعنى عادي، أي: المعادي»[٥٨]. والراجح أن الاسم عربي خالص مشتق من مادة (آب يؤوب أوبا) أي: رجع وتاب إلى الله، وفلان أوّاه أوّاب، وفلان تائب آيب، وقد وجد اسم أيوب في الآية الكريمة بهذا المعنى: (نعم العبد إنه أوّاب) في حين أن العبرية أماتت هذا الجذر، والمستخدم لديهم الفعل שָׁב **šab بالشين**، ويقابله في الآرامية (ثاب) بالثاء، ومعناه: رجع بسلام. وعلة هذا تكون كلمة (أيوب) أقرب الألفاظ إلى الأصل العربي، ومعناه: العائد إلى الله فهو أوّاب

أو أيّاب. وربما منع من الصرف لشيوعه في النص العبري قبل نزول القرآن الكريم، فعومل معاملة بقية الأسماء الأعجمية.

٢- أصحاب أيوب الذين عاش بينهم تبدو أسماؤهم عربية، وهم أليفاز التيماني- وتيمان هنا نسبة إلى تيماء العربية- وبلدد الشوحي، وصوفر النعماني. فالاسم الأول يبدو أنه تكون من (إيلي) أي إلهي و(فاز) أي انتصر. ويمثل هذا الرجل عدل القضاة، فهو يحكم بالظاهر، ولا يتوغل في ثنايا النفوس لذلك نراه يذكر أيوب بفضله على الآخرين. ونسبته إلى بلد عربي خالص هو تيماء قرية من تبوك في المملكة العربية السعودية الآن.

أما الصاحب الثاني لأيوب فهو «بلدد» وهي أقرب إلى الخليج فالنطق الفارسي القديم للإله «بعل» ومنه «داد» فعل العطاء بالفارسية فيكون معنى هذا الاسم «عطاء الله» وهذا تشعر به من خلال هذا الصاحب «بلدد» الذي كان مهتما بحالة السماء ونزول الماء منها، وكأنه المزارع البسيط الذي خبر الحياة، وبشر أيوب بحسن العاقبة ومجيء الفرح.

والصاحب الثالث هو صوفر النعماني، ونسبه عربي أصيل، فهو (صافر) أي الطائر المبشر بالخير، وهو النعماني من النعيم، وقد يكون تحريفا لاسم موضع يدعى نعمان الأراك، وهو إقليم معشب كثير الخضرة والثمار في غرب الجزيرة العربية. ويقول الدكتور حسن ظاظا: «وفي نهاية الحوار الطويل بين أيوب وأصدقائه الثلاثة بدالهم أنه عنيد شديد العناد وأنه يصر على رفض الاعتراف بأنه مذنب في حق الله سبحانه وتعالى حتى ظن الأصدقاء أنه مغرور وأن الله تعالى أعدل من يمتحن عبدًا من عباده الصالحين بمثل هذا الوبال، ولكن تبرز في نهاية القصة شخصية أخرى يرجح عندي أنها إضافة يهودية إلى شعر أيوب، بدليل أن الراوية يقدمه للجمهور تقديما أوفى وأكثر تفصيلا من تقديمه لأيوب وأصدقائه الثلاثة»(٥٩).

سابعًا: كثرة الملامح اللغوية التي تميز لغة سفر أيوب عن اللغة العبرية الموجودة في بقية أسفار العهد القديم، نذكر منها:

١- يختلف سفر أيوب عن بقية الأسفار في أنه يحتفظ بهجاء بدائي، فكثير من الكلمات لم يتم ضبطها بالحركات، كما نجد اختلافا في استخدام بعض الكلمات فمثلا ضمير المتكلم **אֲנִי ʼanī** **ظهر** في صور ثلاث، منها الصورة المألوفة السابقة، والصورة الثانية **אֲנִי ʼānī'** **والصورة** الأقدم **אָנֹכִי ʼānōkī** [٦٠] **وكذلك** كلمة **אֶרֶץ ʼeres** **كتبت** **אָרֶץ ʼāres** [٦١]. وهذا يجعل السفر مختلفا إلى حد كبير عن مستوى اللغة السائدة في معظم أجزاء العهد القديم[٦٢].

٢- تبدو في هذا السفر أمثلة كثيرة ذات أهمية في تأريخ لغتنا العربية. وأكثر هذه الكلمات موجودة في اللغات الجذرية (السامية)، ولا تنسب بالضرورة إلى اللغة العبرية وحدها التي تكونت في ظروف مغايرة واختلاط شديد باللهجات الكنعانية ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية:

١- ألفاظ القرابة التي هي جزء من الألفاظ المشتركة في اللغات الجزرية، وهي:

- **אָב ʼāb**«٨/ ٨»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «أب». و«الأب» من البقايا اللغوية القديمة، ذات الأصل الثنائي في اللغات الجزرية (السامية).
- **אֵם ʼēm**«١٢/١»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «أم». والأم: أصل الشيء للحيوان والنبات، والأم: الوالدة والجدة.
- **אָח ʼāh**«١٣/١»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «أخ». والأخ: من جمعك وإياه صلب أو بطن، أو هما معًا، أو من يشاركك في الرضاعة. والمؤنث منه **אָחוֹת ʼahōt** **أخت**.
- **בֵּן bēn**«١٣/١» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «ابن». والابن:

الولد الذكر، ومؤنثه בַּת bat، ويراد بها الأنثى من الأولاد.

ويتضح من خلال هذه الألفاظ الدالة على القرابة أنها مغرقة في القدم فكما يقول «بروكلمان»: «يوجد بين الثروة اللغوية القديمة أسماء ذات أصلين من تلك الأصوات، وهي أولا: الكلمات التي تدل على القرابة مثل: «أب، وأخ، وعم، والتي تعدّ كلمات منحدرة من لغة الأطفال على نحوها»

ويكثر دوران هذا الحكم على هذه الكلمات، لوجودها ثنائية نطقا وكتابة في معظم اللغات الجزرية (السامية)، ومنها اللغة العربية التي افترض علماؤها حرفا ثالثًا لهذه الكلمات، وحدث ذلك في مرحلة زمنية متأخرة لا تقارن بما نراه في سفر أيوب. ونتج عن افتراض الحرف الثالث تجاوزات من النحاة عند بيان هذا الحرف، فهذا أبو إسحاق الزجاج يصور لنا جانبًا من خلاف النحاة قال: «أبناءكم جمع ابن، والأصل كأنه جمع بني وبنو، ويقال: ابن بيِّن البنوة فهي تصلح أن تكون «فعَل وفِعْل»... و«بنت» يدل على أنه يستقيم أن يكون فِعْلا، ويجوز أن يكون «فعَل» نقلت إلى «فِعْل» كما نقلت «أخت» من «فعَل إلى «فِعْل» فأما «بنات» فهو ليس بجمع «بنت» على لفظها، إنما ردت إلى أصلها فجمعت «بنات» على أن الأصل في «بنت» «فِعْلة» كأنها مما حذفت لامه. والأخفش يختار أن يكون المحذوف من «ابن» الواو، قال: لأن أكثر ما تحذف الواو بثقلها، والياء تحذف أيضا للثقل»(٦٣).

إن التاء من «أخت» و«بنت» ليست مبدلة من الواو كما ظن النحاة العرب وإنما هاتان الكلمتان، والمذكر منها، من الأسماء الثنائية التي بقيت في العربية على صورتها الأصلية من حرفين هما (أخ) (ب ن)، فكما يقول «برجشتراسر»: «إن «الأخ» و«الابن» من الأسماء القديمة جدًا التي مادتها مركبة من حرفين فقط لا من ثلاثة أحرف. وأن التاء وإن لم تسبقها فتحة هي تاء التأنيث، فهي في اللغة العربية، وخصوصًا في الأكدية والعبرية كثيرًا ما لا فتحة قبلها»(٦٤).

٢- ألفاظ أعضاء البدن:

وردت في سفر أيوب مجموعة ألفاظ تدل على أعضاء الجسم، ومازالت تدور في فلك المعنى القديم لها، المأخوذ من اللغة الأولى الجزرية، ومن هذه الألفاظ:

- יָד yād «١٢/١»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «يد» وهي من الأسماء المؤنثة، وترد مثناه في العربية والعبرية יָדַיִם yādāim يدان.

- אֹזֶן ’ōzen: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «أذن»، والأذن: عضو السمع في الإنسان والحيوان، وترد مثناة، لأنها من أعضاء الجسم المزدوجة אָזְנַיִם ’ōznayim أذنان.

- חֵךְ hēk «١٢/١١، ٣١/٣٠»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «حنك»، والحنك: باطن أعلى الفم من داخل، وهو الأسفل من طرف مقدم اللحيين، وهما الحنكان. ولم تظهر النون في الكلمة العبرية، ولكنها موجودة في كلمة חֶנֶךְ henek بمعنى «اللثة»، وهي لحم الأسنان ومغارزها. وقد جاءت الكلمة مضافة إلى الضمير فبرز معها الحرف الثالث في صورة الإدغام فيما بعده: לְשׁוֹנִי בְחִכִּי lšōnī bhikkī: لساني في حنكي. «أيوب ٢/٣٣».

- בֶּטֶן beten «١٣/١١»: المقابل لها في الكلمة العربية لفظا ومعنى «بطن»، والبطن من كل شيء: جوفه، والبطن: خلاف الظهر. وهو من الأسماء المذكرة وتأنيثه لغة- كما في الصحاح- وهو من الأعضاء غير المزدوجة في الجسم.

٣- أسماء الحيوانات:

لدينا ألفاظ تدل على الحيوانات، يمكن تأصيلها في ضوء مواد لغوية عربية قديمة، وجاء ورودها في هذا السفر يؤكد قدمها لغويا.

- אָתוֹן ’atōn «٣/١» وجمعها אֲתֹנוֹת ’atōnōt: والمقابل لها في العربية لفظا ومعنى «أتان». والأتان: أنثى الحمار، وجمعها «أتن». وهذه الكلمة المؤنثة من البقايا اللغوية القديمة، إذ إن الأوائل الذين عاشوا في شبه جزيرة العرب لم تكن لديهم وسيلة نحوية للتفرقة بين المذكر والمؤنث كالتاء وغيرها، لذلك خصصوا كلمة للمذكر وأخرى للمؤنث.

- גָּמָל gāmāl «٣/١» وجمعها גְּמַלִּים gmālīm **وجمال**. والجمل من أقدم الحيوانات وأعزها عند العرب، وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية، ويصير رمزًا لها، وليس من تراث اليهود المعروفة في التاريخ، ولم يعرفوه كوسيلة للنقل إلا في القرن العاشر الميلادي في الأندلس، وكل هذا يؤكد لنا عروبة هذه الكلمة.

- לַיִשׁ lāyiš «٤/ ١٠-١١»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «ليث». والليث: الأسد، وجمعه «ليوث» أي: أسود. وبين اللفظين تبادل صوتي هو أن الثاء العربية تحولت إلى شين عبرية، ويكثر هذا في الكلمات الموغلة في القدم نحو שָׁב šāb في مقابل (ثاب) العربية، وكلمة שׁוֹר šōr التي تقابل (ثور) في العربية.

- זְאֵב z‘ēb «٣٠/ ٢٩»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «ذئب» والذئب: كلب البر، والجمع: أذؤب وذئاب. وفي العبرية أيضا: זְאֵבוֹן z’abōn: ذئب صغير.

- כֶּלֶב keleb «١/٣٠» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «كلب» ومن المعروف أن صيغة (فعْل) الساكنة الوسط في العربية تقابلها العبرية في تطورها الصوتي بتشكيل الوسط بالكسر، وهو أمر ساد في دول الخليج. ونجد الجمع يكاد واحدًا في اللغتين وهو جمع التكسير כְּלָב klāv كلاب، وأكدت العبرية هذا الجمع في مرحلة زمنية متأخرة فأضافت علامة الجمع

يم إلى الصيغة فقلنا כְּלָבִים klāvīm.

- עָרֹב ʻārōb «٣٨/ ٤١» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «غراب» والغراب: جنس طير من الجواثم، يطلق على أنواع كثيرة، منها: الأسود. والعرب يتشاءمون به إذا نعق قبل الرحيل، ويضرب به المثل في السواد والبكور، والحذر، والبعد.

- נֶשֶׁר nešer «٢٩/ ٢٦»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «نسر» والنسر: طائر من الجوارح، حاد البصر، هو أكبر الجوارح حجمًا، وهو سريع الخطي، بطيء الطيران، وسمي بالنسر، لأنه ينسر الشيء ويقتضيه والفعل נָשַׁר nāšar: نَسَرَ، فالمعنى واحد في اللغتين، وهو النشر والقطع والقطف.

٤- أسماء النباتات:

من الكلمات التي تعطي تاريخًا قديمًا موثقًا أسماء النباتات، فقد كان شبه جزيرة العرب مليء بالنباتات التي كانت تنمو وتزدهر فيها في البداية حتى أصابها الهلاك وهجرة المزارعين لها، وكان للطبيعة يد في هذا التحول. ويرى «كيتاني» أن هذا التغير الذي طرأ على جوّ جزيرة العرب إنما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة، غير أن أثره لم يبرز أو لم يؤثر تأثيرًا محسوسًا ملموسًا إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة. وعندئذ صار سكان بلاد العرب، وهم الساميون، ينزحون عنها أمواجًا، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير، وحياة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق منذ هذا الزمن(٦٥).

ومن ألفاظ النباتات التي وردت في سفر أيوب ما يأتي:

- חִטָּה ḥiṭṭā «٣١/ ٤٠» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «حنطة» وهي البُرّ. والفعل منها «حنط» الزرع حنوطا: حان حصاده، والمادة اللغوية بالنون

في اللغتين، ولكنها جاءت مدغمة في الطاء التي بعدها في العبرية والتي تتخلص من النون الساكنة بإدغامها فيما بعدها ما لم يكن حلقيا أوراء.

- שְׂעוֹרָה s'ōrā «٣١/٤٠» المقابل لها في العربية لفظًا ومعنى «شعير». والشعير: نبات عُشبي حَبِّي شفوي من الفصيلة النجيلية، وهو دون البر في الغذاء. ويقال: «فلان كالشعير يؤكل ويذم».

- שִׁבֹּלֶת šbbōlet «٢٤/ ٢٤» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى: سنبلة. والسنبلة: واحدة السنبل، وهو نبات يستخرج من جذور بعض أنواعه عصير مشهور. والكلمة العبرية قابلت السين العربية بالشين كما أنها أدغمت النون في الباء، وقيل: إن التضعيف هو الأصل القديم واللغة العربية الفصحى فكت الإدغام بإحلال النون- وهو صوت متوسط محل أحد صوتي الإدغام. وربما كانت النون زائدة في العربية كما أشار إلى ذلك ابن منظور في اللسان[٦٦].

- בֹּסֶר bōser «٥/ ٣٣» المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «بُسْر»، والبُسْر: تمر النخل قبل أن يُرطب، والغضّ الطريّ من كل شيء. وفي العربية: بسر النبات: رعاه غضا أول رعي. وفي العبرية نجد كلمة בֹּסֶר تعني الفواكه غير الناضجة.

٥- أسماء الأماكن الصحراوية:

شاع في سفر أيوب استخدام المفردات الصحراوية أكثر مما هو موجود في العبرية المألوفة في باقي نصوص العهد القديم. ومن هذه المفردات ما يأتي:-

- עוּץ 'ūs «١/١» المقابل العربي لها لفظًا ومعنى «عوص» وهي في الأصل علم، يراد به عوص بن إرم من «بني المشرق» كما جاء في السفر، وهم في الاستعمال العبري القديم يعنون به «العرب» و«عوص» يطلق على

المنطقة الشرقية من نجد، وسماه بعض النسابين العرب «عيس» وهو سيقان الشجر «عصا».

- קֶדֶם kedem«١/٣»: المقابل لها في العربية لفظا ومعنى «قَدْم» وتطلق على ماء لبني ضبينة، والقدوم، قرية بحلب، وموضع بنعمان، وجبل بالمدينة، ومحلها أماكن عربية. ولذا قيل: «إن هذا السفر قد أخذ من ثقافات «بني المشرق» الـ Qedemites الذين ينتسب إليهم أيوب نفسه»(٦٧).

- שְׁבָא sbā«١/١٥»: المقابل العربي لها لفظا ومعنى «سبأ» ويراد بها بلدة بلقيس، ولقب ابن يشجب بن يعرب، والذي جمع قبائل اليمن حوله. وأهل سبأ ضرب بهم المثل في التفرق، قالوا: تفرقوا أيدي سبأ «لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا في البلاد، فأخذت كل طائفة منهم طريقا.

ثامنًا: مفردات ودلالات تؤكد عروبة السفر وقدمه:

- שָׂטָן sātan«أيوب ١/٦، ١/٧، ١/٨» المقابل العربي لها لفظا ومعنى: شيطان. والشيطان: روح شرير، مغوٍ، يطلق على المتمرد المفسد. وهذا المعنى العربي لم تعرفه العبرية. والعجيب أن هناك إشارات تفيد أن الشيطان المرعب واحد من أبناء الله، بل قال «درايفر Driver وجراي Gray»: إن الشيطان ليس فقط من أبناء الله، ولكنه متميز ورفيع المقام أيضا. ولكن هذا نوع من الشطط، فمن الصعب حصر دور الشيطان في سفر أيوب فيما قالا، فهو عدوّ كل خير في الكون، وبعض مفسري الكتاب المقدس أرادوا التوفيق في ذكر الشيطان مع أيوب، فذهبوا إلى «كونه شخصا مثيرًا للمتاعب وليس موظفا، ولا يصح مقارنته بأحد رجال البوليس السري في عهد الملكية في إيران (السافاكَ)... ودور الشيطان في السَفر صغير، ومكانه في التعليم اللاهوتي للسفر أقل»(٦٨).

يقول الدكتور حسن ظاظا: «إن هذه القصة تخلو تمامًا من ذكر أي اسم لعدوّ الله الرجيم إلا اسم «الشيطان» ويبدو أنه عندهم أعجمي، ينطقونه «سلطان» بالسين المهملة، فإذا سأل الله من أين جاء؟ يقول: مشُوط بارصْ، أي من التسكع في الأرض، فيعود متلمسًا أصلا للاشتقاق بالشين، ولا يكون هذا في لغة إلا إذا أشبهت إحدى ألفاظها لغرابتها.... كل هذا جعل تلك القصة تبدو غير أصيلة في التراث اليهودي. ثم هذه الديموقراطية الساذجة في النقاش بين الرب والشيطان الذي يصل من جانب الشيطان إلى درجة التحدي والجدل بين كائنين متساوين في المنزلة. كل هذا غير مألوف في القصص اليهودي»(٦٩).

- **אֱנוֹשׁ** ’enōš الاسم اللغوي القديم الدال على الإنسان، ويقابل لفظا ومعنى كلمة (إنس) يقول عنها الدكتور حسن ظاظا: «إن كلمة «إنس» كانت هي الكلمة الشائعة فيما قبل تاريخ هذه اللغات للدلالة على الإنسان. وهي الكلمة الموجودة عندنا في العربية وفي العبرية وفي الآرامية التي توجد فيها أيضا كلمة «جيرا» وهي في الواقع اسم مجازي للرجل يتضمن معنى القوة الذي يوجد في كلمة «الجبروت». أما كلمة (الرجل) في اللغة العربية فمنظور فيها إلى أنه المخلوق الذي يمضي على رجلين لا على أربع»(٧٠). وهذا الأصل اللغوي القديم طوّرت كل لغة منه صوتيا حسب ما تراه، فالعبرية المألوفة أبدلت النون ياء **אִישׁ** ’īš، وفي اللهجات العربية نجد كلمة «إيسان» بالياء، والعربية زادت الألف والنون فقيل: إنسان. وفي الآرامية **אֱנָשׁ** ’enāš **تعني**: إنسان.

أداة النفي **אִי** ’e التي تطورت في العربية الفصحى فصارت «إن» قال عنها قوجمان: « **אִי**: بادئة معناها النفي»(٧١). وقد وضحّ الدكتور إبراهيم أنيس تطور هذه الأداة فقال: «أداة النفي العربية «إن» التي رويت لنا في كثير من النصوص الصحيحة مثل: «وإن منكم إلا واردها» والتي لا نشك في أداة قديمة، بعيدة في القدم، يحتمل أنها كانت شائعة بصورتها هذه في السامية الأولى. ثـ

تطورت النون إلى ياء المدّ، وأصبحت الأداة «אִי» لأن النون من الأصوات المائعة الشبيهة بأصوات اللين، وقد تطورت نفس هذا التطور في كثير من الكلمات العربية»(٧٢).

هذه الأداة אִי التي للنفي وردت في سفر أيوب، ومن أمثلتها، יְמַלֵּט אִי־נָקִי וְנִמְלַט בְּבֹר כַּפֶּיךָ (٧٣) وينجى حتى من ليس بريئا بفضل طهارة قلبك.

ويبدو أنه حدث تطور آخر لهذه الأداة التي تكونت من عنصر صوتي هو الهمزة التي شكلت بالحيريق جا دول، فقويت الأداة بالنون مرة أخرى فصارت في العبرية אַיִן ’ēn، وتلك الأداة هي التي سادت بعد ذلك في نصوص العهد القديم في نفي الجملة الاسمية، وصار معناها «ليس» التي تنفي الوجود، وتتصل بالضمائر كما في العربية.

- استخدام اسم الجلالة אֵל منفردًا للدلالة على الإله، دون التركيز على יְהוָה أو אֱלֹהִים ، אֲדֹנָי ونتعجب من شراح التفسير الحديث للكتاب المقدس الذين حصروا أسماء الآلهة في ثلاث فقط، فقالوا: «يوجد في العهد القديم باللغة العبرية ثلاث مترادفات رئيسية لاسم الجلالة وهي «الوهيم» و«يهوه» و«ادوناي»... غير أن هذه الكلمات الثلاث لا ترد في الترجمة العربية بصيغها العبرانية، إنما تستعمل بدلا منها ألفاظ: الله ويهوه والرب والسيد»(٧٤)

ونستخلص من كلامهم أن كلمة (إيل) وحدها، والتي أطلقت على اسم الجلالة لم يعد لها وجود فعلي في أحاديثهم، وهي الكلمة الأولى التي دلت على التوحيد قديمًا بدليل وجودها في أسماء الملوك في بلاد العرب الجنوبية، وفي اسم إيلومي وإيلوم الذي تولى الملك في بابل الجنوبية. قال الأستاذ العقاد: «ويقول عبد الله فلبي في كتابه سوابق الإسلام: إن هذه الكلمة- إيل- هي شهادة الوحدانية في طورها الأول، ومن مرادفاتها في أسماء الشعب إيل رب، وإيل

ملك، وإيل راب، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وأنه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع، ولا يقال هذا إلا لتغليب إله واحد على سائر الآلهة، أو لنفي صفة الإلهية عن سواه»(٧٥).

- انفرد سفر أيوب باستخدام علامة جمع المذكر (ين . ין) ولم تقتصر على العلامة المشهورة (. ים)ءوهي العلامة المأخوذة من اللغة الكنعانية. يقول فرانسيس اندرسن: «كلا اللفظين- بالياء والنون، والياء والميم- موجودان في سفر أيوب، وبينما تعتبر الـ(im) الاستخدام المثالي في اللغة العبرية، إلا أن الـ(in) تستخدم أحيانا في العهد القديم وورودها في سفر أيوب بهذا التنوع لا يمكن أن يعزي فقط لتأثير اللغة الآرامية، لأنه موجود أيضا في بعض العقائد القديمة. واستعمالها في اللغة المؤابية يوحي بأنها كانت لهجة منبثقة من اللغات الجنوبية التي كانت تتكلمها الأسباط الإسرائيلية والشعوب القريبة ذات صلة بها»(٧٦).

ويبدو لنا أن المورفيم الخاص بالجمع هو (ina) الذي ينحدر من أصل مشترك، وله علاقة صوتية واضحة بالتنوين الذي يلحق علامة الإعراب في المفرد. والذي يميز سفر أيوب هنا أنه حافظ على الأصل المستعمل في اللغة العربية، مما يؤكد اختلاف لغة السفر هنا عن لغة بقية أسفار العهد القديم، يقرّب هذا السفر من اللغة العربية في خصائصها.

- نصوص العهد القديم تمثل التطور اللغوي للغة العبرية، ولذا خلت من الإعراب الذي هو من سمات اللغة البدائية التي عرفتها الجزيرة العربية، ومع ذلك بقيت أثار إعرابية في سفر أيوب مازالت تمثل الركام اللغوي لظاهرة الإعراب، ومنها وجود علاقة الرفع وهي النون مع الأفعال الخمسة (المسندة إلى واو الجماعة)، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

- וּמִיַּד חָזָק אֶבְיוֹן - ومن قبضة اليد ينقذهم(أيوب٥/١٥).

http://kotob.has.it

- **עַד אָנָה תּוֹגְיוּן נַפְשִׁי** = (أيوب١٩ ٢ / ١) حتى متى تعذبون نفسي. ويشيع هذا في اللغة الآرامية أيضا مثل **יְקוּמוּן** سيقومون (دانيال ٧/ ١٠) و **תַּעַשְׁיִן** (تعملين) (راعوث ٣/ ٤).. وبالإمكان هنا رد هذا العنصر (na) إلى أصل مشترك حافظت عليه العربية والأوجاريتية والآرامية، وسقط في الأكدية والعبرية والحبشية، ولكن بقي ما يدل على وجوده قديما في سفر أيوب لدينا، وهذا مما يؤكد اختلافه عن بقية أسفار العهد القديم.

وهكذا تبين لنا من هذا العرض لسفر أيوب أنه يعود إلى أدب عربي قديم لم يصل إلينا، وإذا كان التاريخ قسا علينا وأضاع الكثير من معالم حضارتنا وآدابنا فإن مجال المقارنات يساعدنا على معرفة هذه الأصول القديمة الواردة في المدون من اللغات الجزرية (السامية) والتي هي مشتقة من لغتنا.

* *

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على تأريخ اللغة العربية من خلال المقارنات اللغوية بين العربية وما تفرع منها من لهجات أصبحت لغات مستقلة بعد الهجرات المتتابعة. وأود أن أبينّ في إيجاز ما توصلّت إليه هذه الدراسة من نتائج.

١- لا توجد في الحقيقة أمة تسمى «السامية» أو «الساميون» والأفضل أن نقول (اللغات الجزرية)، و(الأمة الجزرية)، و(الجزريون). هم يمثلون الجذع الذي تفرعت منه بقية الأمم التي هاجرت من شبه جزيرة العرب.

٢- اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي لم ينقطع استعمالها منذ بدايتها حتى الآن ولدينا عربية واحدة تطورت على مدى آلاف السنين، محافظة على قواعدها واشتقاقاتها.

٣- اللغة العربية أساس كل دراسة لغوية مقارنة على الرغم من حداثة تدوينها فقد ثبت أن قواعدها موجودة في اللغات المتفرعة منها، كما أن مفرداتها تفوق كل مفردات هذه اللغات مجتمعة.

٤- اللغة العربية الموغلة في التاريخ احتفظت بمجموعة من الكلمات ذات الأصول الثنائية، واتخذت شكلها الثلاثي في مرحلة لاحقة لكثرة تداولها بين الناس كما احتفظت بالأصل الأحادي لكلمة «فم» فالفاء هي العنصر المشترك في كلمات هذه المادة في اللغات الجزرية (السامية).

٥- ثبت بالإمكان التأريخ لبعض الظواهر اللغوية العربية بما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، ومنها ظاهرة الإعراب التي هي من أبرز خصائص العربية التي وجدت في الأكدية مثلا.

٦- توجد في العربية مجموعة من المفردات التي تؤكد التاريخ القديم لهذه اللغة منها ألفاظ الضمائر وأسماء الأعداد، وأعضاء الجسم وألفاظ القرابة وعدد غير قليل من حروف الجر. وهي مفردات تؤكد أن العربية الفصحى امتداد للغة الجزرية الأم التي لم تفارق جزيرة العرب.

٧- تأكد لنا عروبة أيوب، وما جاء في سفر أيوب يمثل مرحلة لغوية أسبق وأقدم من مرحلة تدوين بقية أسفار العهد القديم. وهذا السفر بصورته العربية، فكرًا ولغة، يعطينا صورة صادقة لكلمات عربية موغلة في القدم استخدمها العرب الذين هاجروا من شبه جزيرة العرب إلى بلاد الرافدين والشام.

٨- بدا لنا أن سفر أيوب لا يشير إلى بني إسرائيل تاريخيا أو دينيا أو ثقافيا وذلك يؤكد عروبته، وظهر لنا أن كاتب سفر أيوب لم يكن عبرانيا أو إسرائيليا، وإلا تدخل بعنصريته أو بقلمه لإضفاء هوية يهودية على السفر.

والله الموفق،

الهوامش

(١) د/ محمد خليفة حسن: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته. ص ١٣٩.

(٢) د/ جلاء إدريس: الفعل: دراسة مقارنة بين العربية والعبرية ص ١٣.

(٣) سفر التكوين ١١/١٧، ١٢/ ١-٥.

(٤) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ١١.

(٥) الخليل بن أحمد: العين مادة (كنع) ١/ ٢٠٥.

(٦) أولمستد: تاريخ فلسطين، نقلا من مقال: اللغة العربية في معيار القدم بين الساميات لـ إحسان جعفر ص ٢٤ من مجلة الفيصل السعودية ص ٢٤.

(٧) فيلبي: تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠.

(٨) نولدكه: اللغات السامية ص ١٤.

(٩) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ١٢.

(١٠) نفتالي: التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية ص ٤.

(١١) السابق والصفحة.

(١٢) د/ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ١٤٨، ٢/ ٢٨٧.

(١٣) د/ طه باقر: من تراثنا اللغوي القديم ص ١٧.

(١٤) د/ علي العناني وزملاؤه: الأساس في الأمم السامية ولغاتها ص ٥٦.

(١٥) د/ صلاح حسنين: في علم اللغة ص ١٨٤.

(١٦) رواه أحمد في مسنده ١٩٩٢/٤.

(١٧) ابن فارس: مقاييس اللغة ٤/ ٣٠٠.

(١٨) ابن منظور: لسان العرب ٩/ ١١٤ مادة (ع ر ب).

(١٩) السابق والصفحة.

(٢٠) جورجى زيدان: العرب قبل الإسلام ص ٣٩.

(٢١) د/ مراد كامل في تعلقاته على كتاب (الفلسفة اللغوية) هامش ص ٣٦.

(٢٢) السابق والصفحة.

(٢٣) د/ مراد كامل من تعليقه على كتاب الفلسفة اللغوية هامش ص ٤١.

(٢٤) فيليب حتى وزملاؤه: تاريخ العرب ١/٥٣.

(٢٥) د/ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ١/ ٥٣.

(26) Gesenias, Hebrew & Chalder Lexicon. P.788.

(٢٧) هذا البيت قاله القطامي، وتتمته:

نفسي فداك بني أمٍّ هـم خلطـوا   يـوم العروبـة أورادًا بـأوراد

انظر: الأيام والليالي والشهور للفراء ص ٣٨.

(٢٨) جاء في المصدر السابق: يا حسنة عبدُ العزيز، وليس: عند العزيز.

(٢٩) ابن فارس: مقاييس اللغة ١٤/ ٣٠.

(٣٠) د/ إسماعيل عمايرة: العدد: دراسة لغوية مقارنة ص ٨٨.

(٣١) د/ أحمد عثمان: في الشعر الجاهلي واللغة العربية ص ٤٧.

(٣٢) د/ فالح شبيب العجمي: أبعاد العربية ص ٧١.

(٣٣) د/ محمد خليفة حسن: رؤية عربية ص ١١٣.

(٣٤) ماجد خير بك: اللغة العربية ص ٩١.

(٣٥) د/ محمد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللغة ص ٨٩.

(٣٦) د/ إحسان جعفر: اللغة العربية في معيار القدم ص ٢٥.

(37) Gesen. P.489.

(٣٨) د/ محمد سالم الجرح: المنهج المقارن في دراسة النحو العربي ص ١٣-١٤.

(٣٩) د/ أحمد عثمان: في الشعر الجاهلي واللغة العربية ص ٩٦.

(٤٠) د/ صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن ص ٨٩- ٩٠.

(٤١) د/ رمزي بعلبكي: فقه العربية المقارن ص ١٣٨- ١٤٠.

(٤٢) السابق ص ٤٨.

(٤٣) د/ محمد بحر عبد المجيد: بين العربية ولهجاتها والعبرية ص ١٠٦.

(٤٤) السابق ص ١٠٩.

(٤٥) د/ السيد يعقوب بكر: الحضارات السامية القديمة لموسكاتي ص ٢١٢.

(٤٦) د/ صلاح حسنين: علم اللغة النظري ص ٢٢٢

(٤٧) برجشتراسر: التطور النحوى للغة العربية ص ١١٧.

(٤٨) كريس فرستيغ: اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها ص ٣٤، ترجمة محمد الشرقاوي.

See: Gesenius.p.7.

(٤٩) د/ صبحي صالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢٤- ٢٥، وأيضا انظر: إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ٣.

(٥٠) د/ محمد بحر عبد المجيد: بين العربية ولهجاتها والعبرية ص ١٦٨.

(٥١) انظر: اللغة الأجريتية: بنيتها وعلاقتها بالعربية، مقال للدكتور محمود فهمي حجازي ص ٢٨ وما بعدها.

(٥٢) انظر: التفسير الحديث للكتاب المقدس (أيوب) ص ١٤.

(٥٣) د/ محمد خليفة حسن: رؤية عربية ص ١٠٥.

(٥٤) د/ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٦٣١.

(٥٥) التفسير الحديث للكتاب المقدس ص ٥٩.

(٥٦) د/ جواد علي: المفصل ١/ ٦٣٢.

(٥٧) د/ محمد خليفة حسن: مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم ص ١٩٧.

(58) See: Gesenius.p.15.

(٥٩) د/ حسن ظاظا: أيوب ملحمة قديمة اغتصبها اليهود ص ٢٣.

(٦٠) انظر: سفر أيوب ٧/ ١٢- ٩/١٢- ٢١/١٣- ١٨/١٣- ٢٢/١٣.

(٦١) انظر: سفر أيوب ٥/ ١٠.

(٦٢) بروكلمان: فقه اللغات السامية ص ٤١.

(٦٣) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٣٠- ١٣٢.

(٦٤) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية ص ٥١.

(٦٥) د/ جواد علي: المفصل ١/ ٢٤٤.

(٦٦) ابن منظور: لسان العرب مادة: سنبل.

(٦٧) التفسير الحديث للكتاب المقدس ص ٥٨.

(٦٨) السابق ص ٨٦.

(٦٩) د/ حسن ظاظا: أيوب ملحمة قديمة اغتصبها اليهود ص ٢٠.

(٧٠) د/ حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١٣.

(٧١) قوجمان: قاموس عبري عربي ص ٢٥.

(٧٢) د/ إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة ص ١٨٢.

(٧٣) انظر: سفر أيوب ٢٢/٣٠.

(٧٤) التفسير الحديث للكتاب المقدس ص ١٠٧.

(٧٥) عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٦٧.

(٧٦) التفسير الحديث للكتاب المقدس ص ٥٦.

* *

المراجع

أولا: المراجع العربية:

١- إبراهيم أنيس (دكتور): من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٨٥.

٢- أحمد عثمان (دكتور): في الشعر الجاهلي واللغة العربية، مكتبة الشروق بالقاهرة ١٩٩٦م.

٣- إسماعيل عمايرة (دكتور): العدد: دراسة لغوية مقارنة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٧٧م.

٤- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس): مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٦٩م.

٥- ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٢م.

٦- إحسان جعفر (دكتور): اللغة العربية في معيار القديم بين الساميات. مقال مجلة الفيصل السعودية العدد ٢٠٤.

٧- برجشتراسر (جوتلف): التطور النحوي للغة العربية، إخراج وتصحيح د/ رمضان عبد التواب مكتبة الخانجى القاهرة، القاهرة ١٩٨٢م.

٨- بروكلمان (كارل): فقه اللغات السامية، ترجمة د/ رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، السعودية ١٩٧٧م.

٩-جلاء إدريس (دكتور): الفعل: دراسة مقارنة بين العربية والعبرية، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠- جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، دار الهلال، مراجعة د/ حسين مؤنس د.ت.
١١- جورجي زيدان: الفلسفة اللغوية، دار الهلال، مراجعة د/ مراد كامل، ١٩٦٩م.
١٢- جواد علي (دكتور): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩م.
١٣- حسن ظاظا (دكتور): أيوب ملحمة قديمة اغتصبها اليهود، مقال بمجلة فيصل السعودية الرياض، عدد ٢٦١.
١٤- حسن ظاظا (دكتور): الساميون ولغاتهم، دار القلم، دمشق ١٩٩٠م.
١٥- الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي، ود/ مهدي المخزومي بغداد ١٩٨٢م.
١٦- رمزي بعلبكي (دكتور): فقه العربية المقارن، دراسات في أصوات العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
١٧- الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق د/ عبد الجليل شلبي، دار الحديث القاهرة ١٩٩٤م.
١٨- صبحي صالح (دكتور):دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، دمشق ١٩٦٠م.
١٩- صلاح حسنين (دكتور): في علم اللغة، القاهرة ٢٠٠٣م.
٢٠- صلاح حسين (دكتور): المدخل في علم الأصوات المقارن، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٦م.
٢١- طه باقر (دكتور): من تراثنا اللغوي القديم، العراق١٩٨٠.
٢٢- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨م.

٢٣- علي العناني (دكتور) وزملاؤه:الأساس في الأمم السامية ولغاتها، مطبعة بولاق، القاهرة ١٩٣٥م.
٢٤- فالح بن شيب المعجمي (دكتور):أبعاد العربية: دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقتها ببقية اللغات السامية، الرياض ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٢٥- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): الأيام والليالي والشهور تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٨٠م.
٢٦- فرانسيس اندرسن: التفسير الحديث للكتاب المقدس، العهد القديم، (أيوب)، الجزء الثامن عشر، نقله إلى العربية إدوارد وديع عبد المسيح دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٠م.
٢٧- فيليب حتى وزملاؤه: تاريخ العرب، الجزء الأول، دار الكشاف طبعة رابعة ١٩٦٤م.
٢٨- فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨.
٢٩- قوجمان: قاموس عبري عربي دار الجبل، بيروت ١٩٧٠م.
٣٠- كيس فرستيغ: اللغة العربية، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوي، المشروع القومي للترجمة عدد ٤٤٣، القاهرة ٢٠٠٣م.
٣١-ماجد خير بك: اللغة العربية: جذورها وانتشارها، دمشق ١٩٩٢م.
٣٢- محمد الأنطاكي (دكتور): الوجيز في فقه اللغة، الطبعة الثانية، سوريا ١٩٦٩م.
٣٣- محمد بحر عبد المجيد (دكتور): بين العربية ولهجاتها والعبرية، مكتبة سعد رأفت، القاهرة ١٩٧٧م.

٣٤- محمد خليفة حسن (دكتور): رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القـديم وحضارته، القاهرة ١٩٩٥م.
٣٥- محمد سالم الجرح (دكتور)- المنهج المقارن في دراسة النحـو العربـي مذكرة طلابية، سبتمبر ١٩٦٤م.
٣٦- محمد خليفة حسن (دكتور): مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم القـاهرة، د.ت.
٣٧- محمود فهمي حجازي (دكتور): مقال: اللغة الأجريتية: بنيتها وعلاقتهـا بالعربية، مجلة علوم اللغة، العدد الثاني ١٩٩٨، القاهرة.
٣٨- موسكاتي (سبتينو): الحضارات السامية القديمة، ترجمة الدكتور/ السـيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.
٣٩- نفثالي: التأثيرات الإسلامية في العبادات اليهودية، ترجمة د/ محمد سـالم الجرح، مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة.
٤٠- نولدكه (تيودور):اللغات السامية ترجمة د/ رمضان عبد التواب، القاهرة ١٩٦٣م.
٤١- ولفنسون (إسرائيل):تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩م.

ثانيا: المراجع الأجنبية

١- Gesenius Hebrew and Englisn Lexicon of the old Testament As Translated By Edward Robinson Oxford ١٩٥٩.

* *



الفصل الرابع

تجربة إحياء اللغة العبرية قبل قيام الدولة

يحسب كثير من الناس أن إحياء اللغة يتم بقرار سياسى فى زمن محدد، وهذا مع الأسف تصور خاطئ ، لأن الإحياء عملية مستمرة تتم يوميا بطرق متعددة ، وفى أماكن متفرقة ٠

وكلمة (الإحياء) هنا لا يراد بها معناها الحقيقى ، وهو الوجود بعد الموت ، وهو المعنى الذى أبرزته المعاجم العربية ، وجاء فى قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ وقوله ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ٠ إن المعنى المراد هو المعنى المجازى إذ إن اللغة العبرية لم تمت تمامًا فى يوم من الأيام ، بل كانوا يستعملونها فى معابدهم وصلواتهم ، وهو وجود ضيق لا يمكن أن يقارن بما هى عليه الآن ، مما يجعلنا نستخدم لفظ الإحياء مجازًا ويراد به التكلم بالعبرية والكتابة بها فى كل أمور الحياة ٠

أولاً : حال العبرية قبل بدء الإحياء :

عاشت التجمعات اليهودية خلال الأعوام (١٠٠٠/١٨٠٠م) بصفات ومعايير تختلف عما كانت عليه فى وجودها فى أرض كنعان أو بلاد ما بين النهريين ٠ ويطول بنا القول لو حاولنا تتبع كل حياة اليهود فى هذه الفترة التى عرفت بـ "العصور الوسطى" ولكننا سنركز على جانب من حياتهم يوضح لنا حال اللغة العبرية وأثرها فى حياتهم ٠

١-علماء اليهود تعلموا من علماء العربية فى الأندلس مناهج البحث فـى اللغة والأدب والشريعة ، وطبقوا ذلك على التراث اليهودى وانعكس ذلك فى مؤلفاتهم النحوية والفقهيـة ، والتفاسـير المطولـة للتـوراة والتلمود ، والمعاجم، كما انتشرت دواوين شعرائهم التى جاءت على غرار الشعر العربى ، وعرف ذلك العصر بـ "العصر الذهبى" .

٢-كانت اللغة العربية هى لغة الحديث والكتابة لدى جماهير اليهود فـى الأندلس .

أما اللغة العبرية فقد اقتصرت على المعابد ، وظلت اللغة المقدسة لدى المصلين بها ، وحفظة التوراة آنذاك . وكتبت بها مؤلفـات تفسـر التوراة مثل المدراشيم .

٣-ترتب على حياة العزلة الطويلة التى عاشها يهود أوربا فى العـصور الوسطى أن تكونت لهم لغة خاصة يعيشون بها ذات طابع خاص من خلال إحلال بعض مفردات عبرية أو آرامية محل مفـردات اللغـة الوطنية، مما أوجد لغات يهودية خاصة بهم فى اسـتمرار الاتـصال ببعضهم فى سائر الدول .

ومن هنا وجدت لغة "اليدش" كلغة للأشكيناز وهى عبـارة عـن لهجة ألمانية قديمة مختلطة بكلمات عبرية ، وتكتب بحروف عبرية ، وقد استكملت هذه اللهجة مقومات اللغة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى . كما وجدت لغة أخرى لليهود الذين يعيشون فى غرب أوربـا وخاصة فى إسبانيا وعرفت باسم "اللادينو" أو لغة السفارديم ، وهى عبارة عن لهجة قستلية دخلتها بعض ألفاظ عبرية وعربيـة وتركيـة وتكتـب

بحروف عبرية . وقد شاعت هذه اللغة بين يهود الأندلس وبعد طردهم منها حملوها معهم ، حيث انتشروا فى شمال إفريقيا ومصر وفلسطين والشرق عامة وجنوب أوربا .

٤-ازدهر الشعر العبرى وبلغ قمة نهضته في الأندلس ، وكتب باللغة العبرية، ولم يكتب باللغتين الدارجتين ، وهذا مع حدث مع لغات تقليدية عاشت فى القرون الوسطى ، كانت لها لغة للكتابة وأخرى للحديث ، وأصبحت اللغة العبرية هى التى توحد بين هؤلاء اليهود فى مختلف البلدان من خلال ما يسجله الأدباء الموهوبين من شعر دنيوى إلى جانب الشعر الدينى .

٥-نتج عن وجود حركة أدبية مكتوبة بالعبرية التوراتية أو المشنا مع التخاطب باليديش أو اللادينو ما عرف بالازدواجية لدى اليهود عبر عن هذه الازدواجية "يهوشع جلبوع" فقال : "إن ازدواجية اللغة عند كثير من الأدباء فى القرن السابق ، وخلال هذا القرن ، كان مسألة طبيعية بالنسبة للأدباء المتأصلين ، لدرجة أن كان من بينهم من اشترك فى هذا الصراع – الصراع بين العبرية واليديش"[١] وقال أيضا : "لم يكن هناك قانون يحرم دراسة اللغة العبرية ، ولذلك لم يكن هناك داع لقانون من أجل إباحتها ، ولكن نظرًا لأن حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) السابقة على الحركة الصهيونية كانت قد وجهت معظم سهامها المسنونة من أجل إصلاح الحياة اليهودية إلى الدين اليهودى باعتبار أن إصلاحه هو المدخل الحقيقى ، والصحيح،

---

(١) د/ رشاد الشامى : تطور خصائص اللغة العبرية ص١٠٥ ، القاهرة ١٩٧٨ .

لإصلاح الحياة اليهودية فقد حدث أن ربط ما بين اللغة العبرية والدين اليهودى ، وحينما ظهرت الصهيونية على مسرح الحياة اليهودية أصبح هناك ثالوث يدافع عنه الصهاينة ، وهو ثالوث : الصهيونية – اللغة العبرية – الدين اليهودى(١) .

ومن ذلك كله نرى أن اللغة العبرية ظلت حية تمامًا كلغة مكتوبة فى مجال الأدب ، ولكنها لم تكن لغة تخاطب أو واسطة للحياة الاجتماعية والتعليم العام . يؤكد ذلك "حاييم رابين" بقوله : "نحن على ثقة من أنه خلال المدة كلها لم يجر التكلم باللغة العبرية على نحو عام فى محيط العائلة أو فى أى مجال آخر من مجالات الحياة الخاصة والعامة . وكانت المخاطبة تجرى بصورة طبيعية بلغة البلد الذى عاش فيه المتكلم ، وأحيانا لبضعة أجيال ، بلغة البلد الذى هاجر منه المتكلم أو أسلافه حديثا . ولم تختلف لغة تخاطب اليهود عن مثيلتها لدى جيرانهم من غير اليهود الحاليين أو الجدد إلا بكونها تحتوى على مزيج معين من الكلمات والعبارات العبرية والآرامية (التلمودية) . وفى مطلع عصر أوربا الحديث فقط نشأت لغتان يهوديتان : الأيدية فى أوربا الشمالية واللادينو فى أوربا الجنوبية والشرق الأدنى ، وكانت كلتاهما لا تزالان تكتبان جنبا إلى جنب مع العبرية"(٢) .

على أية حال نستطيع أن نقول : استمرت العبرية طيلة العصور الوسطى لغة الكتاب المقدس والمشنا والتلمود ، وظلت تمارس دورها

---

(٢) السابق ص ١٠٥/١٠٦ .

(١) حاييم رابين : إحياء العبرية مقال بمجلة (أرئيل) القدس يونيو ١٩٨١ .

الخاص بوصفها لغة الروح والدين التى تؤلف بين اليهود التى ينتشرون فيها وتوحدهم • أما لغة التخاطب بين هؤلاء اليهود فقد كانت لغة البلد الذى يعيشون فيه ، إلى أن ظهرت لغات خاصة بهم كاليديش واللادينو ، فأصبحت لغة الحديث والتخاطب فى الحياة المعاصرة •

ثانيًا : بدء حركة إحياء العبرية لخدمة الصهيونية :

الصهيونية تعنى نقل اليهود من أماكن تجمعاتهم فى الشتات للاستيطان فى فلسطين حول جبل صهيون المقدس فى المقام الأول للأهمية • وعلى من يريد البقاء من اليهود فى الشتات أن يقدم الدعم المالى والسياسى لعمليات استيطان اليهود فى المقام الثانى للأهمية • ولهذا تعد الصهيونية حركة سياسية أكثر من كونها حركة دينية •

وارتبط التوسع الصهيونى فى فلسطين باستئصال اللغات الدارجة على ألسنة هؤلاء اليهود وإحياء اللغة العبرية العتيقة التى هى لغة الكتابة بجعلها لغة الحديث أيضا ، والعمل بجد ونشاط من أجل نشرها بين المستوطنين اليهود فى فلسطين بحيث تصبح هى الرابط المشترك بينهم •

يقول الدكتور رشاد الشامى : "حينما بدأ تيار الهجرة إلى فلسطين يزداد بواسطة اليهود فى بداية ظهور بعثها كلغة قومية مجرد لغة ثانوية كانوا يتعلمونها من مصادر مختلفة من كتب اللغة القديمة • إن الإحصاءات تشير إلى أن اليهود الذين كانوا يتحدثون العبرية فى ذلك الوقت لم يكونوا يتجاوزون ثلث عدد المهاجرين ، وكانت معرفة العبرية لديهم تتفاوت بين المعرفة التامة والجهل التام • وقد كانت اللغات الأجنبية الخاصة بهؤلاء المهاجرين ، والتى تربوا عليها فى مواطنهم الأصلية هى

الأشيع فى الاستعمال بين اليهود سواء فى المنـزل أو بين الأشخاص وبعضهم ، أو فى المعاملات العامة"(١) ٠

ولهذا أصبح لزاما على مؤيدى إحياء العبرية من الصهيونيين أن يجاهد جهادًا شاقًا لكى تكون اللغة العبرية لغة تخاطب بين الشعب اليهودى، فهى الخيط الوحيد الذى يربط بينهم ، وإذا كان الوطن هو وطن الأجداد فاللغة كذلك هى لغة الأجداد ٠

ثالثًا : دور بن يهودا فى إحياء التخاطب بالعبرية

ولد الأديب الروسى (هكوهين برلمان) عام ١٨٥٨ ، وتوفى فى القدس عام ١٩٢٢م ، وبعد أن أكمل تعليمه فى روسيا سافر إلى باريس ليتعلم الطب سنة ١٨٧٨ ، وغيّر اسمه إلى صيغة عبرية هى "إليعازر بن يهودا" ٠

مكث "بن يهودا" فى باريس ثلاث سنوات ، نشر فيها سلسلة من المقالات فى الصحف العبرية ، ومنها صحيفة (هشاحار) التى كانت تصدر فى فينيا ، نشر فيها مقالا ركز فيه على إحياء الشعب اليهودى ، وعن أرضه ، وعن لغته ٠ وأعاد الحديث عنهم فى مقال آخر بعنوان (مسألة عظيمة) فى نفس الصحيفة ٠ وفى هذا المقال ظهرت لأول مرة الكلمة العبرية المبتدعة للتعبير عن القومية (لئوموت) ٠ وقال : "توجد لنا لغة يمكن أن نكتب بها الآن كل ما يخطر ببالنا، ونستطيع أن نتكلم بها إذا رغبنا فى ذلك" وفيما ذكر ربط بين أمرين مهمين لابد من وجودهما فى كل يهودى وهما : فكرة

---

(١) د / رشاد الشامى : مرجع سابق ص١٠٨ ٠

استيطان فلسطين وتحدى سلطان اللغات الأجنبية بالحديث باللغة العبرية فى هذا الموطن ٠

وفى أكتوبر ١٨٨١ وصل "بن يهودا" إلى أرض فلسطين المحتلة ونراه – كما جاء فى مذكراته – قد ضرب المثل والقدوة لأفكاره ، فلم يتكلم إلا بالعبرية منذ وصوله إلى القدس ، ورفض التخاطب مع كل يهودى يقابله إلا بالعبرية ، وعلّم زوجته العبرية ، وأصر على مخاطبتها باللغة الأصلية لديهما وهى العبرية ٠ وعندما رزقا بابنهما سنة ١٨٨٢ لم يتحدثا معه إلا بالعبرية فرضعها منذ البداية ، ومن هنا تكون أول بيت عبرى فى فلسطين يستعمل العبرى نطقًا وكتابة ٠

ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لفرض العبرية نطقا وكتابة على بقية اليهود ، فقد واجهته معارضة شديدة لأن عملية الإحياء تعيدهم إلى قيم الماضى التى تتعارض مع حاجات الحاضر ، كما قالوا إن اللغة العبرية التى ماتت منذ ما يقرب من ألفى سنة لم تعد تناسب التعبير عن الأفكار والمعانى الحديثة٠ ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن عام ١٨٨٢ كثرت فيه الحوادث ضد اليهود فى شرق أوربا مما دفع الحكومة الروسية إلى إصدار قوانين مايو التى تقيد اليهودى داخل إطار الحى اليهودى أو الجيتو الذى يسكنه ٠ ولم يهدأ اليهود لهذه الإجراءات الروسية التى تستهدفهم وتحد من حركتهم ، فبدأت تتكون الجمعيات والحركات اليهودية التى تنادى بضرورة الهجرة إلى فلسطين واستيطانها ٠

وقد انقسم المعارضون لأفكار يهودا إلى ثلاث فرق : الأولى : ناصرت لغة الييدش ، والثانية دعت إلى استعمال اللغات الأوربية فى

التدريس، والثالثة دعت إلى استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العبرية ٠

ولكن معظم مؤيدى الحركة الصهيونية تمسكوا باللغة العبرية وعدوها عنصرًا مهما من عناصر الإحياء القومى ، فهى لا تقل أهمية عن الوطن المرجو فى فلسطين ٠ كما أنهم ذهبوا إلى أن القيم التاريخية فى حد ذاتها تمثل القيم القومية المطلوبة ، وكذلك نصروا العبرية القديمة على كل لغة حاضرة ٠

وقد أسعدتهم دعوة بن يهودا إلى التكلم باللغة القومية القديمة – الجديدة، فشكلوا مؤيدو الحركة الصهيونية جماعة جديدة عرفت بين اليهود باسم أحباء صهيون سنة ١٨٨٢م وركزت فى أهدافها على دعوة اليهود إلى الوحدة ، وإقامة وطن قومى فى فلسطين ، وإحياء اللغة العبرية من جديد كلغة محادثة فيما بينهم ٠ وأن يكون الأدب العبرى رائد الحياة الجديدة والمعبر عنها ٠

ويمكننا إلقاء الضوء على المحاور التى عمل فيها بن يهودًا لتحقيق أهدافه فيما يلى :

أ –الالتزام الشخصى بالتخاطب بالعبرية :

حرص "بن يهودا" فى حديثه على التكلم بالعبرية ، ولم يتكلم بسواها حتى يكون قدوة ومثلا لغيره من اليهود ، وعلم زوجته العبرية نطقًا وكتابة ، وألزمها بها حتى مع ابنهما المولود ، وقوبل الابن مرة برفض التخاطب معه من الأم حين أراد أن يقلد طفلاً يتكلم بغير العبرية

وبذلك كوّن أول بيت عبرى يتكلم لغة ما زال ينقصها كثير من الأساليب الحديثة ٠

٢-التركيز على الأطفال والشباب فى إحياء اللغة العبرية :

أراد "بن يهودا" إيجاد الأطفال والشباب من اليهود الذين يجيدون العبرية نطقًا وكتابة يتمكنون من إيجاد وطن قومى يعيشون فيه مستقلين عن غيرهم لغة ودينا ووطنا ٠ ولكى يتحقق له ذلك اهتدى إلى أن أمهات المستقبل يستطيعون الإسهام فى جعل الأطفال والشباب يتكلمون العبرية فأنشأ لذلك مدرسة تعليم البنات ، تعلم جميع المواد اليهودية والعامة باللغة العبرية ٠

ولكن وجهة النظر هذه قوبلت بمعارضة شديدة من المتدينين ، فهاجموا فتح المدارس للبنات ، وهاجموها فى المعابد وحثوا الأطفال على رمى "بن يهودا" بالأحجار ٠ ومع ذلك لم ييأس "بن يهودا" وواصل جهوده من أجل إحياء العبرية حديثًا وكتابة وتغلب على صعوبات كثيرة تمثلت فى عدم تأهيل المعلّمين لذلك ، وعدم وجود كتب تعليمية باللغة العبرية ، فاضطر إلى ترجمة كتب أجنبية إلى العبرية ٠

٣-تأسيس جمعيات الإحياء أو التحدث بالعبرية :

اشترك "بن يهودا" مع "يحيئيل ميخل" فى تأسيس جمعية

(إحياء اسرائيل) سنة ١٨٨٢م ، بغرض إحياء العبرية فى التخاطب على ألسنة اليهود الكبار فى فلسطين ، والذين استقروا فيها ، وحتى توجد القدوة التزم أعضاء الجمعية بالحديث بالعبرية فيما بينهم فى كل مكان ، وحثوا أبناءهم وسائر أفراد أسرهم على الحديث بالعبرية ٠

كما أسس "بن يهودا" جمعية (لغة واضحة) بهدف نشر تعليم العبرية ، والتخاطب بها بين الكبار ، ومحاربة اللغات الفاسدة المنتشرة فى فلسطين ، وظهر أثر هذه الجمعية خارج أرض فلسطين المحتلة ، حيث ظهرت جمعيات أخرى على منوالها فى بلاد العالم تحث اليهود على الالتزام بالتخاطب بلغتهم العبرية ٠

ومع تقدم السنين ظهرت فى القدس سنة ١٨٩٠ لجنة عرفت بـ (لجنة اللغة) ويرأسها "بن يهودا" ومن أعضائها "دافيديلين" و "أفراهام موش" ٠ وقد ركزت هذه اللجنة على معالجة المشاكل التى طرأت لدى المتحدثين الأوائل بالعبرية ، وكانت المشكلة الكبرى المثارة هى كيفية توحيد نطق العبرية بعد سماع ألوان مختلفة من نطق الحروف العبرية ٠

٤-إنشاء القواميس العبرية للإسهام فى إحياء العبرية :

شرع "بن يهودا" فى إيجاد قاموس اللغة العبرية الحديثة قبل أن يصل إلى القدس ، وبعد وصوله بدأ فى إعداد الكلمات وصبها فى قوائم ، وبيان دلالتها ، واستطاع أن يخرج من قاموسه خمسة مجلدات ، وأطلق عليه (قاموس اللغة العبرية القديمة والحديثة) ولكنه توفى بعد أن ترك مادة باقى القاموس ، فعكف على تمامه كل من "موشى تسفى سيجل" و "نفتالى طورسينى" فأخرجا أحد عشر مجلدًا ، فصار عدد القاموس ستة عشر مجلدا٠

أما المنهج المتبع فى هذا القاموس فهو وضع الكلمات العبرية فى أبنية وأوزان تلائم العبرية ، فإن لم يجد اتجه إلى اللغة الآرامية ، فإن لم

يكن بحث عن الحذر فى اللغة العربية التى هى أغنى اللغات السامية فى معاجمها ، كما أنها المتكلمين فى فلسطين وهى اللغة التى ظهر أثرها واضحا فى العصر الذهبى فى الأندلس • وحرص على عدم التأثر باللغات الأجنبية وبخاصة الأوربية ، وإن فلتت منه بعض التأثيرات الفرنسية التى أوردها فى قاموسه ، ومن ذلك كلمة (صابون) ، وهى فى الفرنسية savon •

ويمكن القول إجمالا بأن "بن يهودا" هو أول من نفذ فكرة إحياء العبرية فى نفسه ، وفى بيته ، وفيمن عاصره بالمحادثة معه أو القراءة لمؤلفاته ، واستطاع المجمع اللغوى العبرى أن يكمل عمله الضخم ، ليظهر أثره فى كل من حرص على جعل العبرية هى لغة الوطن ، فى صورة الكتب الدراسية والصحف والمجلات والإذاعة المرئية والمسموعة •

رابعًا : تحقيق العبرنة الشاملة فى فترة الإحياء الثانية

شهدت اللغة العبرية فى الفترة (١٩٠٠-١٩٤٨) اتساعا فى المفردات، ووجود السلطة التى تحتم على كل يهودى استعمالها كأحد مطالب الاستيطان اليهودى فى فلسطين ، ولذلك خصصوا وقتا كافيا فى برامجهم للدراسة العبرية ، وحرصوا على أن تكون لغة التعليم فى الدراسة عبرية •

وتجدر الإشارة إلى أنه فى مدرسة هرتسليا الثانوية التى أسست فى يافا عام ١٩٠٦ كانت العلوم كلها تدرس آنذاك بالعبرية ، والشىء نفسه حدث فى المدرسة الثانوية بالقدس التى أسست بعد ذلك بحوالى عامين •

وفى المدرسة الثانوية بيافا انقسمت خطة الدراسة من الفرقة السادسة فأعلى إلى برنامجين : برنامج يعادل ذلك البرنامج الموجود فى مدرسة تطبيقية يكون خريجوها مؤهلين للدراسة فى معهد العلوم التكنولوجية ، وبرنامج آخر يشبه برنامج المدرسة الثانوية فى ألمانيا التى يكون خريجوها مؤهلين لدخول الجامعة . وكان دبلوم هذه المدرسة معترفا به من قبل الجامعات الأمريكية والأوربية ، بما فى ذلك جامعة برلين ، وهذا معناه أن تعلم وتعليم العلوم التقنية والعلمية بالعبرية ليس مستحيلا[١] .

ومن الثابت أن اليهود حرصوا فى مؤتمر بال ، والمؤتمرات اللاحقة حتى عام ١٩٤٢ على عدم ذكر مصطلح "الدولة اليهودية" وفضلوا عليها كلمة (وطن) منعا لإثارة حساسيات الدول الأوربية والعربية ، ولكنهم مهدوا سرّا لإعلان هذه الدولة بهذا المسمّى الدينى لربط الماضى بالحاضر .

إن حركة إحياء اللغة العبرية فى القرن العشرين قد صاحبها تقدم ملحوظ فى تنمية الثروة اللفظية ، التى افتقرت إليها الأحاديث اليومية ، وكان للجامعة العبرية ، التى وضع أساسها عام ١٩١٨م بعد إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ ، دور كبير فى الاعتراف بالعبرية كلغة رسمية للتعليم فى فلسطين . لقد حرص مؤسسوها على أن تكون لغة التدريس فى هذه الجامعة هى العبرية وليست لغة أخرى ، حتى تعمل هذه الجامعة العبرية على تحرير اليهودية تحريرًا كاملا من نير اللاهوت ، وتؤكد على أن

---

(١) د / السيد إسماعيل السروى : مقال : فلسفة العبرنة وعلاقتها بالمشروع الثقافى الصهيونى ، مجلة رسالة المشرق ص٢٤٨ من العدد مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة .

الأولوية للعلوم العبرية الدنيوية ٠ وقد تم افتتاح هذه الجامعة فى القـدس عام ١٩٢٥ ٠

ومما تجدر الإشارة إليه أن عوامل كثيرة وجدت لتسهم فى إحيـاء التخاطب بالعبرية مع بداية القرن العشرين منها مجئ عـدد كبيـر مـن المهاجرين لديهم الاستعداد لنطق اللغة العبرية لإصلاح الأضـرار التـى أصابتهم من خلال المذابح الروسية لليهود ٠ كما أن اللغة الموحـدة بـين اليهود تساعدهم على إيجاد حياة مشتركة بينهم فى فلسطين ، والعامـل الأكبر هو تبنى الزعماء والمفكرين وعلماء اللغة الصهاينة فى كل مكـان دعوة إحياء التخاطب بالعبرية ٠

خامسًا : واقع اللغة العربية فى ضوء العبرنة الصهيونية :

استوعبت اللغة العربية الحضارات القديمـة العربيـة والفارسـية والهندية واليونانية ، وجعلت منها حضارة واحدة ، كما أنها هى أقدم لغـة حيَّة مستعملة اليوم وموصولة الماضى ، وهى المحافظة على وحدتها ، فلم تنقسم إلى لهجات على غرار ما حدث للاتينية ، ولم تنقسم إلـى قـديم وحديث ، يستعصى القديم منها على فهم المحدثين وما زلنا نقرأ المعلقات العشر كما كتبها مؤلفوها فى العصر الجاهلى ٠

وكان يمكن لحاضر اللغة العربية أن يكون أكثـر ازدهـارًا مـن ماضيها لو أن الأجيال العربية الحاضرة أظهرت قـدرًا مـن الاعتـزاز بلغتها، والعناية بحسن استعمالها ٠ ولكن الأجيال الحاضرة لم تعد تغـار على لغتها التى هى أول مقومات الهويَّة ٠

يجب أن يكون لدينا الوعى بذاتنا ، وعناصر هذه الذات من ثقافة ولغة: ثقافة تحتضن كنوزًا من القيم والفنون ، ولغة تحتضن كنوزًا من فنون الأدب وأنواع العلم • وفى عبارة واحدة من لا يقدس لغته فهو جاهل بذاته ، وبما تملكه هذه اللغة من كنوز رائعة •

إن اللغة هى الإنسان الناطق بها ، فالعربية هى نحن ، بها نتقدم ، وإذا قصرت عن مواكبة العلم الحديث فنحن المقصرون وليست اللغة • لقد طردت اللغة العربية من مواقع كثيرة كان من المفترض أن تسود فيها حديثا وكتابة، ومن أهمها المؤسسات التربوية ابتداء من المدرسة الابتدائية وانتهاء بالمرحلة الجامعية •

إن لغتنا العربية لم تحظ بدعم عملى يضعها فى المكان الصحيح ولابد لنا من أن نخطط لمستقبل لغتنا ونفيد من إحياء اللغة العبرية فى تقديم الفصحى وتعليمها على أسس جديدة تناسب العصر ولا تعارض الرصيد اللغوى التراثى والرصيد العلمى المتمثل فى الدراسات التى دارت حوله قديما •

لقد أدرك "إليعازر بن يهودا" مكانة اللغة العربية ، ودورها فى إحياء لغته ، فألقى كلمته أمام مجلس اللغة العبرية مركزًا فيها على الإفادة من اللغة العربية حين اكتشف عدم وجود جذور كافية للغته ، قال : "لقد اكتشفت جذورًا عبرية عشرات وفئات ، لن أخفى المكان الذى وجدت فيه هذه الكنوز ، الحق أننى اكتشفتها فى المعاجم العربية ، وكل واحد منكم يعلم مدى غنى المعجم العربى" •

ونختتم هذه النقطة بما نراه مسهما فى إحياء لغتنا العربية الفصحى حديثا وكتابة على النحو التالى :

١-يجب على مجامعنا اللغوية فى البلاد العربية أن تسرع فى مواجهة كل كشف جديد ، وأن تتفق فيما بينها على مصطلح واحد ، يفرض استعماله على الجميع ، فهذا ما فعله العدو فى إحياء لغته حين عبرن كل مكتشف جديد ٠

٢-نركز فى تعليم قواعد العربية على التعبير السليم كتابة وحديثًا، ولا نركز على حفظ القاعدة والاختبار فيها ، وكثيرًا ما يهتم الأستاذ الجامعى بمعالجة التقصير فى حفظ القاعدة ، ولا يراعى أن اللغة العربية هى قراءة سليمة وكتابة سليمة ٠ والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما ذكره الدكتور أحمد بن محمد الضبيب ، حين قال "منذ أربع سنوات زرت روضة للأطفال أنشأها الدكتور عبد الله دنان فى سورية ، ودهشت أطفال بين الرابعة والسادسة من العمر يتحدثون الفصحى بطلاقة دون أن يأخذوا حرفا من النحو ٠ يتحدثون العربية سليقة وهم لا يمضون فى المدرسة أكثر من ست ساعات يوميا ٠ الوصفة السكَرية لهذه الروضة أن لا يجرى أى حديث فى المدرسة إلا بالفصحى ، كل العاملين فى المدرسة يخاطبون التلاميذ بالفصحى، ولا يسمحون لهم بالكلام إلا بها"(١)٠ إن هذه التجربة هى التى فعلها إليعازر بن يهودا فى إحياء العبرية والفارق هو أنه أصرّ على نشر تجربته فى كل أنحاء فلسطين ، ووجد من يناصره فيما فعل ٠

---

(١) د / أحمد بن محمد الضبيب : اللغة العربية فى عصر العولمة ص٢٠١-٢٠٢ ٠

٣-يجب على أجهزة الإعلام التزام النطق بالعربية الفصحى ، ففى ذلك نشر لهذه اللغة ، وبيان الصواب من الخطأ فيها . ويلزم ذلك أن تعطى المناصب الرفيعة فى أجهزة الإعلام لمن يجيد نطق العربية الفصحى شأننا فى ذلك شأن الدول التى تحرص على بث لغتها بين أرجاء العالم، وفى ذلك فائدة عظمى للبلاد العربية على المدى الطويل .

٤-لابد من بث الوعى اللغوى بين أبناء الأمة العربية وإيقاظ غيرتهم على اللغة بوصفها إحدى مقومات الشخصية العربية ، وأخيرًا أذكركم بما قاله حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية التى تنعى حظها بين أهلها :

فإما حياة تبعث الميْت فى البلى — وتنبت فى تلك الرموس رفاتى

وإما ممات لا قيامة بعده — ممات - لعمرى - لم يقس بممات

والله الموفق ،،

المصادر والمراجع

****

١-د / أحمد بن محمد الضبيب (دكتور) : اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العربيكان السعودية ٢٠٠١م ٠

٢-السيد إسماعيل السروى (دكتور) : فلسفة العبرنة وعلاقتها بالمشروع الثقافى الصهيونى ، مجلة رسالة المشرق العدد مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة ٠

٣-حاييم رابين : إحياء العبرية ، مجلة القدس ، يونيو ١٩٨١م ٠

٤-رشاد الشامى (دكتور) : تطور خصائص اللغة العبرية (القديمة – الوسيطة الحديثة) مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ١٩٧٨ ٠

* * *

فهرس الموضوعات

*****

* *